

رِسَالُ رَبَّانِيَّةٍ
فِي آيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ

حقوق الطب مع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ١٩٨٩٣ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: 978-977-6618-58-9

الناشر

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة

ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣

واتس / ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com



رَسَائِلُ رَبَّانِيَّةٍ فِي آيَاتِ قُرْآنِيَّةٍ

تأليف

راجي عفوره العزيز

محمد بن هاشم عبد العزيز

عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ

دارُ اللؤلؤة

للنشر والتوزيع
الميصورة - مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى من تتوارى الكلمات مني خجلاً لأنني عاجز عن الوفاء بحقه،
وكيف أوفي بحقه وحقوقه كثيرة، إلى أخي الكبير، فضيلة الشيخ/
أبي مالك كمال السيد سالم.

الذي رأيت منه الخير والنصح فكان كما قال القائل:
رعى لي فوق ما يرعى ... وأوجب فوق ما يجب
وأقول له:

أحمد الله أن قدّر ومنّ عليّ بقاء بفضيلتك، فلقد كانت معرفتي
بفضيلتك بمثابة ميلاد جديد، ونقطة تحول في حياتي، فلولا أن الله
جعلك سبباً، ما كنت لأخط قلماً في كتاب لا تحقيقاً ولا تأليفاً،
فوجهتني للخير الذي ينتفع به الإنسان في حياته، ويجري عليه ثوابه
بعد موته بمشيئة الله ورحمته وفضله.

فجزاك الله عني خير الجزاء، ولا حرمني الله من صحبتك، وجمعنا
في الجنة وتحت ظلّ عرشه اللهم آمين.

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ قَاهِرِ الْمُتَجَبِّرِ وَمُذِلِّهِ، وَرَافِعِ الْمُتَوَاضِعِ وَمُجَلِّهِ، الْقَرِيبِ مِنْ عَبْدِهِ فَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ ظِلِّهِ، لَا يَعْزُبُ عَنْ سَمْعِهِ وَقَعُ الْقَطْرِ فِي أَضْعَفِ طَلِّهِ، وَلَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ فِي الدُّجَى دَيْبُ نَمْلِهِ، رَفَعَ مَنْ شَاءَ بِإِعْزَازِهِ كَمَا حَطَّ مَنْ شَاءَ بِذُلِّهِ، اخْتَارَ مُحَمَّدًا مِنَ الْخَلْقِ فَكَأَنَّ الْكُلَّ خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهِ.

أحمدته على أَجَلِ الْإِنْعَامِ وَأَقْلَهُ، وَأَشْهَدُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ شَهَادَةً مُصَدِّقَ قَوْلِهِ بِفِعْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِنَقْضِ الْكُفْرِ وَحُلِّهِ، فَقَامَ معجزه ينادي: فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وبعد:

فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ أَنْ يَعِيشَ الْإِنْسَانُ فِي صَحْبَةِ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا أَنَّ الشَّرْفَ كُلَّ الشَّرْفِ أَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ خَادِمًا لِكِتَابِ رَبِّهِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمَنْهَاجُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ، وَلَقَدْ أَمَرْنَا رَبُّنَا بِتَدْبِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَتَذَكَّرُوا أَيْتِيهِ وَلِيَذَكَّرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [المؤمنون: ٦٨].

﴿ومن هنا أقول:﴾

وأنا أتدبر القرآن الكريم كما أمرني ربي وخالقي سبحانه وتعالى،
استوقفتني هذه الآية الكريمة في سورة الأحزاب قال تعالى: ﴿الَّذِينَ
يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:
٣٩] وتحديدًا قوله تعالى: ﴿رِسَالَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

- وبدأت أبحث في القرآن الكريم فوجدت الكلمة متكررة في قوله
تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٦٢].

* وفي قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [٦٨]
[الأعراف: ٦٨].

* وفي قوله تعالى: ﴿يَقُومُوا لِقَدْ أَبَلُّغْنَاهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَضَحْتُ لَكُمْ﴾
[الأعراف: ٩٣].

* وفي قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبَلُّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨].

* وجاءت بالإفراد في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ
أَبَلَّغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَضَحْتُ﴾ [الأعراف: ٧٩].

- وفي هذه الآيات نلاحظ أن الكلمة متكررة على لسان أنبياء كرام عليهم
السلام من الله تعالى.

- فأخذ بقلبي قضية الرسائل وكيف أنها ربانية ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾
[الأعراف: ٦٢]، جاء بها أنبياء الله ليلبغوها عباد الله.

ثم لفت نظري أيضًا ما قاله الحسن البصري: «إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً تركبونه، فتقطعون به المراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار». (١)

- فبدأت أبحث في القرآن الكريم، وقرأت القرآن بفضل الله كلمة كلمة، أفتش عن رسائل من الله، فوجدت بحرًا من الخيرات فالقرآن كله رسائل من الله لخلقه، ولكن أنى لي أن أشرح القرآن كله، فاستخرت رب العالمين، وطلبت منه المدد والتوفيق، وألهمني ربّي بفكرة هي:

- أن الرسالة عندما تكتب فإن الناس يكتبون فيها، نحيطكم علمًا، وما شابه ذلك من ألفاظ.

- فبدأت في جمع هذه اللفظة القرآنية: اعْلَمُوا، وَاعْلَمُوا، فَاعْلَمُوا، فَاعْلَمُوا (٢)، ويا سبحان الله وجدت عجبًا، لأنني وجدت بفضل الله منهجًا ومنهاجًا متكاملًا وبيانه كالاتي:

- إننا أتباع منهج، وهذا المنهج له صاحب وهو الله سبحانه وتعالى،

(١) انظر: المحرر الوجيز: (١ / ٣٩)، قوت القلوب: (١ / ١٠٧)، إحياء علوم الدين (١ / ٢٧٥).

(٢) قمت بفضل الله بشرح جميع ما ورد في القرآن الكريم إلا قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ.....﴾ [المائدة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ.....﴾ [الأنفال: ٤١].

ووعاء للمنهج وهو القلب، ومبلغ للمنهج وهو الرسول ﷺ، وعوائق للمنهج وهي الدنيا والهوى والأولاد والأموال، وأتباع للمنهج وهم البشر.

- وهذه الرسائل بعضها يتحدث عن الله، وبعضها يتحدث عن القرآن، وبعضها يتحدث عن الرسول ﷺ..... إلخ.

- وبعد تفكير طويل استعنت بمن رفع السماء بلا عمد، ووضعت هذا الكتاب خدمة ونشرًا لكتاب الله ﷻ وجاء الكتاب في تسعة فصول وهي كالآتي:

★ الفصل الأول: التعريف بالله تعالى: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

[محمد: ١٩].

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: أدلة وجود الخالق جلّ وعلا.

المبحث الثاني: توحيد الله جل جلاله.

المبحث الثالث: فضائل كلمة التوحيد.

المبحث الرابع: آثار لا إله إلا الله في الدنيا.

★ الفصل الثاني: رسائل يُحدثنا فيها ربنا عن ذاته العلية^(١)

وفيه عدة مباحث:

(١) الكتاب ليس في شرح أسماء الله الحسنى، لذلك في هذا الفصل عند شرح الرسائل التي تحدثت عن بعض أسماء الله سبحانه لم أسهب في شرحها من حيث اللغة وما شابه ذلك، لكن أسهب بعض الشيء في آثار الإيمان بهذه الأسماء.

المبحث الأول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

المبحث الثاني: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]

المبحث الثالث: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]

المبحث الرابع: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

المبحث الخامس: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

المبحث السادس: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]

المبحث السابع: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

المبحث الثامن: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]

المبحث التاسع: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]

★ الفصل الثالث: رسالته يحدثنا فيها ربنا عن كتابه العزيز

وفيه مبحث واحد: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤]

★ الفصل الرابع: رسالتان يحدثنا فيهما ربنا عن الرسول ﷺ

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]

المبحث الثاني: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ﴾ [الحجرات: ٧]

★ الفصل الخامس: رسالتان يحدثنا فيهما ربنا عن القلب

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:

[٢٤

المبحث الثاني: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]

★ الفصل السادس: رسالة يُحَدِّثُنَا فِيهَا رَبُّنَا مِنَ الْهَوَى

وفيه مبحث واحد: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾

[القصص: ٥٠]

★ الفصل السابع: رسالة يُحَدِّثُنَا فِيهَا رَبُّنَا مِنَ الدُّنْيَا

وفيه مبحث واحد: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ﴾

[الحديد: ٢٠]

★ الفصل الثامن: رسالة يحدثنا فيها ربنا عن الأموال والأولاد

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[الأنفال: ٢٨]

وفيها مبحثان:

المبحث الأول: عن فتنة المال.

المبحث الثاني: عن فتنة الأولاد.

★ الفصل التاسع: رسائل يحدثنا فيها ربنا عن حقائق ثابتة
وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]

المبحث الثاني: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

المبحث الثالث: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

المبحث الرابع: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

المبحث الخامس: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]

المبحث السادس: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].



عملي في هذا الكتاب

انطلقت مستعيناً بالله طالباً منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١ - جعلت تحت كل رسالة موضوعاً متكاملاً مترابطاً أو أكثر من موضوع على حسب كل رسالة.

٢ - كنت حريصاً على أن يكون حديثي من كلام الله ومن كلام رسول الله ﷺ، وبعد ذلك أذكر بعض الأقوال من كلام السلف الصالح.

٣ - عزوت الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم ذاكراً اسم السورة ورقم الآية.

٤ - قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روى الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحاً ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو..... وهذا في الأعم الغالب.

٥ - القصص والمواقف لها أثر في النفوس، لهذا في بعض الرسائل كنت حريصاً على ذكر المواقف من حياة الرسول ﷺ، ثم من حياة الصحابة والتابعين، مع مراعاتي أن آتي بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي على انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٦ - كما ذكرت في بعض الأحيان من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم موضوع الرسالة التي تكون معنية بالشرح والتوضيح، مع حرصي على انتقاء ما كتبت من شعرٍ يساعد ويخدم الموضوع.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدعي أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارّئه وناشره، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخراً وزاداً في يوم لقيائه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجازي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنة. وأسأل ربي سبحانه وتعالى أن يرحم أممي الغالية الحبيبة كما ربّنتي صغيراً، وأن يمتعها بالنظر إلى وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (أم نور) وأن يجزيها عني خير الجزاء.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة (نور) التي أسأل الله أن ينبتها نباتاً حسناً، وأن تكون قرّة عين لي في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- ثم أقول إن هذا العمل عملٌ بشريّ يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص.

- وأشهد الله ﷻ أن كل خطأ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

- ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأ عندي إلا ما قاله الشاطبي:

أَخِي أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ ... يُنَادِي عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوقِ أَجْمَلًا
وَزُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِعُ نَسِيجَهُ ... بِالْإِغْضَاءِ وَالْحُسْنَى وَإِنْ كَانَ هَلْهَلًا
وَسَلَّمَ لِأَحَدِي الْحُسْنَيْنِ إِصَابَةً ... وَالْآخَرَى اجْتِهَادُ رَامَ صَوْبًا فَأُمَحَلًا
وَإِنْ كَانَ خَرَقٌ فَأَدْرِكُهُ بِفَضْلَةٍ ... مِنَ الْحِلْمِ وَلْيُضْلِحْهُ مَنْ جَادَ مَقُولًا (١)
فدائمًا الإنسان يثبت بشريته، ويأبى الله إلا أن تكون العصمة لكتابه
ولرسوله ﷺ.

ﷺ وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة على ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن
باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِمَ؟! ولئن أخطأ فمن
الذي وُصِمَ؟!

وأعلم أن الخطأ والزلل، هما الغالبان على من خلق الله من عجل، فإن
أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله
منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

(١) الشاطبية الأبيات: (٧٥-٧٨)

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجٍ ... مؤملاً جبر ما لاقيتُ من عَرَجٍ
 فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب الوري في الناس من فرجٍ
 وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعاً ... فما على أعرج في الناس من حَرَجٍ
 وأسأل آل الله تعالى أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن
 يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه
 نصيباً وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
 سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد
 وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه ببنانه ورضيه بجنانه:

الفقير إلى عفوره العزيز

محمد هاشم عبد العزيز

جوال/ ٦٥٠٦٢٠٣٠١٠٠٢٠٠٢

يوم الثلاثاء - ١ من شهر الله المحرم ١٤٤٠هـ

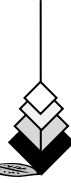
الموافق ١١ سبتمبر ٢٠١٨م



الفصل الأول

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

المبحث الأول أدلة وجود الخالق جلّ وعلا



❁ الدليل الأول: دليل الفطرة:

الفطرة السليمة تشهد بوجود الله من غير دليل، ولذلك لم يُطل القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى، لأنّ القرآن يقرّر أنّ الفطر السليمة، والنفوس التي لم تتقذر بأقذار الشرك، تُقرّ بوجوده من غير دليل، وليس كذلك فقط، بل إنّ توحيده - سبحانه - أمر فطري بدهي قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ ۚ أَلَيْسَ أَلَدِيمُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون في تاريخ الأديان، وهي أنّ الأمم جميعاً - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه إليها وتقُدّسها.

❁ وقد يقال هنا: لو كان التوجه إلى الله أمراً فطرياً لما عبد الناس في مختلف العصور آلهة شتى.

❁ والجواب: إنّ الفطرة تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إلى المعبود الحق.

فيما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة بيدل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد نصّ الرسول ﷺ على صدق هذا الذي قررناه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ» (١). ولم يقل يُمسلمانه، لأن الإسلام مُوافقٌ للفطرة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نُؤثّر في فطرته هل يخرج موحدًا عارفًا برّبّه، فنقول: إذا ترك شياطين الإنس البشر، ولم يدنسوا فطرهم، فإن شياطين الجن لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم: ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا» أَوْ قَالَ «شَيْئًا». (٢)

والقرآن وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنّه ﴿يُوسُوسُ فِي

(١) البخاري: (١٣٨٥)، مسلم: (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم: (٢١٧٥).

صُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ [الناس: ٥]، وقد صح أيضًا أن لكل إنسان قرينًا من الجن يأمره بالشر، ويحثه عليه، وفي القرآن ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢٧﴾ [ق: ٢٧].

ولا يتخلص المرء من هذا إلا بالالتجاء إلى الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
 ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ النَّاسِ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤
 الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُورِ النَّاسِ ٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٦﴾ [الناس: ١ - ٦].

وشياطين الجن يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها، عَنْ عِيَّاضِ ابْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ» (١) عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا» (٢).

• المصائب تصفي جوهر الفطرة:

وكثيرًا ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصائب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عونًا،

(١) نحلته: منحته.

(٢) رواه مسلم: (٢٨٦٥).

وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرب نزل به قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَتَيْتُمْ السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِكُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [القمان: ٣٢].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٣ - ٥٤].

فانظر هذا البيان الإلهي لسفه عقول المشركين، حيث إنهم يلتجئون إلى

الله الواحد عند كل كرب في البحر والبر لتيقنهم أن أصنامهم لا تملك دفع المكروه عنهم وأن الله وحده هو الكاشف للبلاء، ثم يصرون على عبادتها وإشراكها مع الله في الألوهية.

والعقل السليم لا يرضى بالتجاء صاحبه إلى إله في الشدة وإله آخر في الرخاء؛ لأن الإله المنجي من الكربات حقيق أن يكون إلهًا معبودًا وحده في الرخاء، كما في قصة إسلام حصين، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي عَمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ: «يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟» قَالَ أَبِي: سَبْعَةَ سِتَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. (١)

وكذلك قصة رجل من كنانة جاء بإبله ليوقفها على صنم يقال له: «سعد» للتبرك، فلما أدناها منه نفرت وتفرقت في كل وجه، فرماه الرجل بحجر قائلاً: لا بارك الله فيك إلهًا أنفرت علي إبلي، ثم خرج في طلبها وهو ينشد:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا ... فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعدٍ
وهل سعدٌ إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد

- وهذا عكرمة بن أبي جهل وجماعة من المشركين فروا من مكة يوم الفتح استكباراً عن الإيمان، فركبوا سفينة لم تلبث أن لعبت بها العواصف وأخذتها الأمواج من كل جانب حتى كادت أن تغرق بمن فيها، فأخذ القوم كلهم يدعون الله ويتضرعون إليه فقال عكرمة: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله، فقال عكرمة: هذا إله محمد الذي يدعوننا إليه وإن لم

(١) سنن الترمذي: (٣٤٨٣)، ضعيف سنن الترمذي (٧٠).

ينجني في البحر غيره، فلن ينجيني في البر غيره، فاللهم رب محمد، إن لك عليّ عهداً إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلا جدنه عفواً كريماً فسلم ثم أسلم.

ويروى كذلك أن ملحدًا جاء إلى جعفر الصادق يسأله عن الله وكيف يجده؟ فقال للسائل: ألم تتركب البحر؟ قال: بلى، قال: فهل هاجت بكم الريح عاصفة وكادت السفينة أن تغرق؟ قال: نعم، قال: فهل انقطع أملك من الملاحين ومن كل وسائل النجاة وانقذح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذ السفينة من الغرق إذا شاء؟ قال: نعم، قال: فذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له. (١)

• المشركون الذين بعث إليهم الرسول كانوا يقرّون بوجود الخالق:

العرب الذين جابههم الرسول ﷺ كانوا مقرّين بوجود الله، وأنّه الخالق وحده للكون، كما يقرّون بأنّه وحده الرزاق النافع الضار،... ولكنهم كانوا يعبدون غيره معه، ولا يخلصون دينهم لله وحده.

وفي معرض إلزام المشركين بالعبودية لله وحده، وإخلاص الدين له كان يسألهم عن الخالق المالك للسماء والأرض، فكانوا يعترفون، ولا ينكرون، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٨٧].

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٧٢).

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، وفي سورة المؤمنون ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

ومن المعروف أن العرب كانوا يُعظمون الكعبة، ويحجون، ولهم بقية من عبادات يتنسكون بها.

❁ الدليل الثاني: المخلوق لا بد له من خالق:

يحتج القرآن على المكذّبين المنكرين بحجة لا بد للعقول من الإقرار بها، ولا يجوز في منطق العقل السليم رفضها، يقول تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

يقول لهم: أنتم موجودون هذه حقيقة لا تنكروها، وكذلك السماوات والأرض موجودتان، ولا شك.

وقد تقرر في العقول أن الموجود لا بد من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء، فيقول: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على

المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير». ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء.

وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم: (قانون السببية). هذا القانون يقول: إن شيئاً من (الممكنات) (لا يحدث بنفسه من غير شيء)؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، (ولا يستقل بإحداث شيء)؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو.

هذا القانون الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) [الطور: ٣٥] وهو دليل يُرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقاً معبوداً، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها.

روى البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ (٣٧) [الطور: ٣٥ - ٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. (١)

﴿قال البيهقي﴾ (٢): قال أبو سليمان الخطابي: «إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه...».

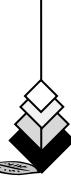
(١) صحيح البخاري: (٤٨٥٤).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: ١ / ٣٩١.

وهنا هبّ شخصاً قال: «أنا خلقت نفسي» فهل يستطيع أن يزعم أنّه خلق السماوات والأرض؟! فإذا كان العدم لا يُوجد سماء ولا أرضاً، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما، وإذا كان هؤلاء لا يستطيعون الادعاء بأنّهم أوجدوا ذلك كله، فإنّه لا بدّ لهذا كله من موجد، وهذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى.



المبحث الثاني توحيد الله جل جلاله



❖ أشرف ما نطق به اللسان كلمة التوحيد :

وقال العلماء في تعليل ذلك :

١ - كلمة التوحيد: مبدوءة بالنفي، غسلاً للقلب من كل ما سواه تعالى، وحتى يكون مستعداً للتلقي.

٢ - كلمة التوحيد مستغنية عن النقط، ومن طبيعة الموحد الاستغناء عن الخلق اكتفاء بالخالق سبحانه وتعالى.

٣ - ثم إن حروفها جوفية فالمهم فيها هو: القلب.

٤ - تنقل المرء من شقوة الأبد، إلى نعيم الأبد.

٥ - في غيابها تصير أعمال المشركين ﴿كِرَامًا شَتَدَتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] أما المسلم: فحسنته بعشر أمثالها إلى ما يشاء تعالى من أضعاف.

- فليس هناك أجمل من كلمة التوحيد تلك الشجرة المباركة: ﴿أَصْلُهَا

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]. (١)

(١) الخطابة بين النظرية والتطبيق: (٥١-٥٢). بتصرف يسير.

❁ معنى لا إله إلا الله :

لا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، والإله في اللغة هو المعبود، ولا إله إلا الله: أي لا معبود حق إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥) مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فتبين بذلك أن معنى الإله هو المعبود، وأن لا إله إلا الله معناها إخلاص العبادة لله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: «قولوا لا إله إلا الله» قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال قوم هودٍ لنبيهم لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، قالوا ذلك وهو إنما دعاهم إلى لا إله إلا الله؛ لأنهم فهموا أن المراد بها نفي الألوهية عن كل ما سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له، ف لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله - تعالى -، فكل ما سوى الله من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم ليس بإله، وليس له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يألوه غيره، أي: لا يقصده بشيء من التألّه، وهو تعلّق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم نصوص كثيرة تُبين معنى كلمة التوحيد لا إله

إلا الله، وتوضح المراد بها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

* وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنَّنِي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس: ٢٢ - ٢٤].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١١ - ١٤].

* وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَنَقُومَ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ

أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ [غافر: ٤١ - ٤٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، وهي تُبين أنَّ معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله وحده بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، بل لربما جعل لغير الله حظًا ونصيبًا من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات فإنَّ هذا لا يكفي العبد لأن يكون من أهل لا إله إلا الله، ولا ينجيه يوم القيامة من عذاب الله. (١)

❁ أركان لا إله إلا الله :

«لا إله إلا الله» لها نوعان من الأركان؛ نوع لفظي، ونوع معنوي.

أما النوع اللفظي: وهو ما تضمنه لفظ الشهادة «لا إله إلا الله»: فركناه نفي وإثبات؛ «لا إله»: نفي، و«إلا الله»: إثبات.

وأما النوع المعنوي، وهو ما تضمنه معنى الشهادة «لا معبود بحق إلا الله»: فركناه نفي وإثبات أيضًا؛ ف«لا معبود بحق»: نفي، و«إلا الله»: إثبات.

«فلا إله إلا الله» اشتملت على نفي وإثبات؛ فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى؛ فكل ما سواه من الملائكة، والأنبياء، فضلا عن غيرهم؛ فليس بإله، ولا له من العبادة شيء. وأثبتت الإلهية لله وحده؛ بمعنى أن العبد

(١) نقلًا عن: دراسات في الباقيات الصالحات: (ص: ٢٨ - ٣٢). بتصرف واختصار.

لا ياله غيره؛ أي لا يقصده بشيء من التأله؛ وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة؛ كالدعاء، والذبح، والنذر، وغير ذلك. (١)

فالنفي إذا: نفي الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ.

والإثبات: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة عن كل ما سوى الله ﷻ.

والإثبات: إثبات الإلهية واستحقاق العبادة لله ﷻ وحده، لا شريك له. (٢)

وهو معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

❁ شروط لا إله إلا الله:

• معنى الشروط في اللغة:

شروط جمع، مفردا شرط، والشرط: إلزام الشيء، والتزامه؛ يقال: شرط له أمرا: التزمه، وشرط عليه أمرا: ألزمه إياه. (٣)

-
- (١) الشهادتان: معناهما، وما تستلزمه كل منهما للشيخ ابن جبرين ص ٢٢. وانظر الدين الخالص لصديق حسن خان ١ / ١٨٩.
- (٢) انظر أعلام السنة المنشورة ص ٣٩
- (٣) انظر: القاموس المحيط للفيروز أبادي ص ٨٦٩. والمعجم الوسيط لجماعة من المؤلفين ص ٤٧٨.

• المراد بشروط: «لا إله إلا الله»:

يراد بشروط «لا إله إلا الله»: الأمور التي يجب على الإنسان أن يلزمها، حتى يحقق «لا إله إلا الله»، أو: ما لا تصح شهادة «لا إله إلا الله» إلا بوجودها، ويجب اجتماعها.

• منزلة هذه الشروط من شهادة «لا إله إلا الله»:

هذه الشروط بمثابة الأسنان للمفتاح، فلا يفتح إلا بوجودها. وقد أشار إلى ذلك عدد من علماء الأمة؛ منهم الإمام الحسن البصري رحمته، حين قال للشاعر الفرزدق - وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. فقال الحسن: نعم العدة، إن لـ «لا إله إلا الله شروطاً؛ فيأياك وقذف المحصنات. (١)

وقيل لوهب بن منبه رحمته: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ فقال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك. (٢)

• ذكر شروط «لا إله إلا الله»:

لشهادة أن لا إله إلا الله شروط يجب على كل مسلم أن يحققها وهي:

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن رجب الحنبلي ص ٣٩. والدين الخالص لصديق حسن خان ١ / ١٥٧.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. وقد وصله في تاريخ ١ / ٩٥، وأبو نعيم في حيلة الأولياء ١ / ٦٦.

﴿ كما قال الحافظ الحكمي:

وَبَشْرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قِيِدَتْ ... وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ
فَإِنَّهُ لَمْ يَتَفَعَّ قَائِلُهَا ... بِالنُّطْقِ إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا
الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ ... وَالْإِنْقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ
وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّةُ ... وَفَقَّكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّهُ

﴿ ونظمها بعضهم بقوله:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقٌ مَعَ ... مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالْقَبُولَ لَهَا (١)
وَزَيْدَ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... دُونَ الْإِلَهِ مِنَ الْأَوْثَانِ قَدْ أَلِهَا (٢)

• الآن إلى بيان هذه الشروط:

١ - العلم:

الْعِلْمُ «بِمَعْنَاهَا الْمُرَادِ مِنْهَا نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا الْمُنَافِي لِلْجَهْلِ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ ﷻ:
﴿ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٩].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزُّخْرَفِ: ٨٦]. أَيُّ: بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بِقُلُوبِهِمْ مَعْنَى مَا نَطَقُوا بِهِ بِالْإِسْتِثْنَاءِ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا

(١) انظر الشهاداتتان: معناهما، وما تستلزمه كل منها للشيخ ابن جبرين ص ٧٧.

(٢) وهذا الأخير جعله بعضهم شرطاً ثامناً، وهو كذلك، لكن أشار بعض العلماء إلى أنه داخل في السبعة المتقدمة عند التأمل.

بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ [آل عمران: ١٨].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* وَعَنْ عُثْمَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» (١).

والمراد: العلم الحقيقي بمدلول الشهادتين، وما تستلزمه كل منهما من العمل.

٢ - اليقين:

وَالثَّانِي الْيَقِينُ الْمُنَافِي لِلشَّكِّ بَأَن يَكُونَ قَائِلُهَا مُسْتَقِينًا بِمَدْلُولِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ يَقِينًا جَازِمًا، فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَا يُغْنِي فِيهِ إِلَّا عِلْمُ الْيَقِينِ لَا عِلْمُ الظَّنِّ، فَكَيْفَ إِذَا دَخَلَهُ الشَّكُّ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فَاشْتَرَطَ فِي صِدْقِ إِيْمَانِهِم بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) صحيح مسلم: (٢٦).

كَوْنَهُمْ لَمْ يَرْتَابُوا أَيُّ: لَمْ يَشْكُوا، فَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَهُوَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ». (١)

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - بَعَثَهُ بِنَعْلَيْهِ فَقَالَ: «فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ». (٢) الْحَدِيثُ، فَاشْتَرَطَ فِي دُخُولِ قَائِلِهَا الْجَنَّةَ أَنْ يَكُونَ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهَا، وَإِذَا انْتَفَى الشَّرْطُ انْتَفَى الْمَشْرُوطُ.

والمعنى: أَنْ مَنْ أَتَى بِالشَّهَادَتَيْنِ فَلَا بَدَّ أَنْ يَوْقِنَ بِقَلْبِهِ وَيَعْتَقِدَ صِحَّةَ مَا يَقُولُهُ مِنْ أَحَقِّيَّةِ إِلَهِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَطْلَانِ مَا عَدَا ذَلِكَ.

٣ - القبول المنافي للرد:

أي القبول لِمَا اقْتَضَتْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَعْلَمُ مَعْنَى الشَّهَادَتَيْنِ وَيَوْقِنُ بِمَدْلُولِهِمَا، وَلَكِنَّهُ يَرُدُّهُمَا كِبَرًا وَحَسَدًا، وَهَذِهِ

(١) صحيح مسلم: (٢٧).

(٢) صحيح مسلم: (٣١).

حالة علماء اليهود والنصارى، فقد شهدوا بالهيّة الله وحده، وعرفوا محمّداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لم يقبلوه، قال تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ ﷻ عَلَيْنَا مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ مِنْ إِنْجَاءِ مَنْ قَبْلَهَا وَانْتِقَامِهِ مِمَّنْ رَدَّهَا وَأَبَاهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿قُلْ أُولَٰؤُا۟ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٥].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرّوم: ٤٧].

- وَكَذَلِكَ أَخْبَرْنَا بِمَا وَعَدَ بِهِ الْقَابِلِينَ لَهَا مِنَ الثَّوَابِ، وَمَا أَعَدَّهُ لِمَنْ رَدَّهَا مِنَ الْعَذَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوكُمْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ ﴿٣٦﴾ [الصافات: ٢٢-٣٦].

فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِلَّةَ تَعَذِّيبِهِمْ وَسَبَبَهُ هُوَ اسْتِكْبَارُهُمْ عَنْ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا

اللَّهُ، وَتَكْذِيبُهُمْ مَنْ جَاءَ بِهَا، فَلَمْ يَنْفُوا مَا نَفَتْهُ وَلَمْ يُثْبِتُوا مَا أَثْبَتَتْهُ بَلْ قَالُوا
 إِنْكَارًا وَاسْتِكْبَارًا ﴿٥﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ
 أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْآخِرَةِ إِنَّ
 هَذَا إِلَّا أُخْلِقُ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾ [ص: ٥-٧]، وقالوا ههنا: ﴿٧﴾ أَيْنَا لَتَارْكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرِ
 مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ - ﷻ - وَرَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ عَنْ رَسُولِهِ - ﷺ - فَقَالَ:
 ﴿٣٧﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ [الصافات: ٣٧] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

* ثُمَّ قَالَ فِي شَأْنِ مَنْ قَبَلَهَا: ﴿٤٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
 مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ [الصافات: ٤٠-٤٣] إِلَى
 آخِرِ الْآيَاتِ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿٨٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾
 [النمل: ٨٩]، وَعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ
 الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتْ
 الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ،
 فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا
 هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ
 مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلْمٌ وَعَلَمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ
 الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». (١)

(١) صحيح البخاري: (٧٩)، صحيح مسلم: (٢٢٨٢).

٤ - الانقياد:

الانقياد لما دلت عليه المنافي لتترك ذلك، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] أي: بلا إله إلا الله ﷻ وإلى الله عاقبه الأمور ﴿٢٢﴾ وَمَعْنَى يُسْلِمْ وَجْهَهُ أَي: يَنْقَادُ وَهُوَ مُحْسِنٌ مُوَحِّدٌ، وَمَنْ لَمْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَلَمْ يَكُ مُحْسِنًا فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَهُوَ مَعْنِي بِقَوْلِهِ ﷻ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُہٗٓ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وفي حديث أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جُئْتُ بِهِ»^(١) وهذا هو تمام الانقياد وغايته.

والفرق بين الانقياد وبين القبول: أن الانقياد هو الاتباع بالأفعال، والقبول: إظهار صحة معنى ذلك بالقول.

والانقياد: هو الاستسلام والإذعان، وعدم التعقب بشيء من أحكام الله

(١) رواه الخطيب في تاريخه ٤ / ٣٦٩ والحكيم وأبو نصر السجزي في الإبانة «كنز العمال ح ١٠٨٤»، والديلمي في الفردوس «ح ٧٧٩١». وضعفه الألباني.

تعالى.

٥ - الصدق:

«الصدق» فيها المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه يواطئ قلبه لسانه، قال الله ﷻ: ﴿لَمْ يَكُنْ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١-٣] إلى آخر الآيات.

* وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذباً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) [البقرة: ٨-١١].

* وَكَمْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَأْنِهِمْ وَأَبْدَى وَأَعَادَ وَكَشَفَ أَسْتَارَهُمْ وَهَتَكَهَا وَأَبْدَى فُضَائِحَهُمْ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ كَالْبَقَرَةِ وَالْإِمْرَانِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَنْفَالِ وَالتَّوْبَةِ وَسُورَةٍ كَامِلَةٍ فِي شَأْنِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

* وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ». (١) فَاشْتَرَطَ فِي إِنْجَاءٍ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنَ النَّارِ أَنْ يَقُولَهَا

(١) البخاري «١ / ٢٢٦» في العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم.

صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، فَلَا يَنْفَعُهُ مُجَرَّدُ اللَّفْظِ بِدُونِ مُوَاطَاةِ الْقَلْبِ.

٦ - الإخلاص:

وَهُوَ تَصْفِيَةُ الْعَمَلِ بِصَالِحِ النِّيَّةِ عَنْ جَمِيعِ شَوَائِبِ الشَّرِكِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزُّمَرِ: ٣].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البَيِّنَةِ: ٥] الْآيَةَ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزُّمَرِ: ٢].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزُّمَرِ: ١١]، ﴿قُلْ لِلَّهِ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزُّمَرِ: ٤١].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٤٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ [النِّسَاء: ١٤٥، ١٤٦]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

* وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ». (١)

ومسلم «١ / ٦١ / ح ٣٢» في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(١) صحيح البخاري (٩٩).

* وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رحمته الله عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عز وجل» (١).

* وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رحمته الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا، إِلَّا فَتَحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ مَا اجْتُنِبَتِ الْكِبَائِرُ». (٢)

٧ - المحبة لله ورسوله :

وكل ما يحبه الله ورسوله من الأعمال والأقوال وكذلك محبة أوليائه وأهل طاعته. سئل ذو النون المصري - رحمته الله - : متى أحبّ ربّي؟ فقال: إذا كان ما يبغضه أمرّ عندك من الصبر.

والمقصود بالمحبة المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولا هلهاء العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

- (١) البخاري (١ / ٥١٨) في الصلاة، باب إذا دخل بيتا يصلي حيث يشاء. مسلم (١ / ٤٥٦) ح ٢٦٤ في المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.
- (٢) الترمذي (٥ / ٥٧٥) ح ٣٥٩٠ في الدعوات، باب رقم ١٢٧، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

فَأَخْبَرَنَا اللَّهُ - ﷻ - أَنَّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدُّ حُبًّا لَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشْرِكُوا مَعَهُ فِي مَحَبَّتِهِ أَحَدًا كَمَا فَعَلَ مُدَّعُو مَحَبَّتِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُنْدَادًا يَحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَعَلَامَةُ حُبِّ الْعَبْدِ رَبَّهُ تَقْدِيمُ مَحَابِّهِ وَإِنْ خَالَفَتْ هَوَاهُ، وَبُغْضُ مَا يُبْغِضُ رَبُّهُ وَإِنْ مَالَ إِلَيْهِ هَوَاهُ، وَمَوَالَاةُ مَنْ وَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ، وَاتِّبَاعُ رَسُولِهِ - ﷺ - وَاقْتِفَاءُ أَثَرِهِ وَقَبُولُ هُدَاهُ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ شُرُوطٌ فِي الْمَحَبَّةِ لَا يَتَصَوَّرُ وُجُودُ الْمَحَبَّةِ مَعَ عَدَمِ وَجُودِ شَرْطٍ مِنْهَا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أُتْخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] الْآيَاتِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أُتْخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجن: ٢٣].

فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ لِهَوَاهُ، بَلْ كُلُّ مَا عَصَى اللَّهُ بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ فَسَبَبُهُ تَقْدِيمُ الْعَبْدِ هَوَاهُ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ - ﷻ - وَنَوَاهِيهِ.

* وَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمَوَالَاةِ وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤] الْآيَاتِ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ

حَادَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴿[المجادلة: ٢٢] الْآيَةُ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] الْآيَاتِ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤] الْآيَتَيْنِ.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾
[الْمُمْتَحَنَةِ: ١].

إِلَى آخِرِ السُّورَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

* وَقَالَ تَعَالَى فِي اسْتِطْرَاطِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

* وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ
يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ،

وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ». (١)

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٢). (٣)

ويزيد معنا شرط ثامن وهو:

٨ - الكفر بما يعبد من دون الله:

وزيد ثامنهما الكفران بما ... مع الإله من الأشياء قد ألبها (٤)

وهذا الشرط معناه أن يعتقد بطلان عبادة من سوى الله ﷻ، وأن كل المعبودات سوى الله باطلة، وجدت نتيجة جهل المشركين وضلالهم؛ فمن أقرهم على شركهم، أو شك في بطلان ما هم عليه؛ فليس بموحد، ولو قال لا إله إلا الله، ولو لم يعبد غير الله. (٥)

وَأَخِذَ هَذَا الشَّرْطَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ

(١) البخاري «١ / ٧٢» في الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر، وفي الأدب، باب الحب في الله «١ / ٤٦٣»، ومسلم «١ / ٦٦ / ح ٦٨» في الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٢) البخاري «١ / ٥٨» في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ - من الإيمان.

ومسلم «١ / ١٧» في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل.

(٣) معارج القبول: (٢ / ٤١٨-٤٢٥) باختصار.

(٤) راجع شرح الأصول الثلاثة للفوزان: (١ / ١٧٤).

(٥) انظر الشهاداتتان: معنهما، وما تستلزمه كل منهما ص ٧٨.

مَنْ دُونَ اللَّهِ، حَرَّمَ مَالَهُ، وَدَمَّهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ». (١)

* ومن الأدلة على هذا الشرط: قول الله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبعد: فهذه هي شروط «لا إله إلا الله»، ولا بد من اجتماعها، والمداومة
عليها كي يختم للعبد بخاتمة حسنة؛ لأن الأعمال بالخواتيم.
فمتى حقق المسلم هذه الشروط، كان من أهل «لا إله إلا الله» القائمين
بها علما وعملا واستحق محبة الله.



المبحث الثالث

فضائل كلمة التوحيد

كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فضلها عظيم، فلأجلها قامت الأرض والسموات، وُخلقت جميعُ المخلوقات، وبها أُرسل الرسل، وأنزلت الكتب، وُشرعت الشرائع، ولأجلها نُصبت الموازين، ووُضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وانقسمت الخليقة إلى مؤمنين وكفار، وأبرار وفجار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي أعظم أركان الدين وأهم شعب الإيمان، وهي سبيل الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي كلمة الشهادة، ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه ورأس أمره، وهي الحق الذي أسست عليه الملة ونُصبت القبله، وعنّها يُسأل الأولون والآخرون يوم القيامة، فلا تزول قدما عبدٍ بين يدي الله حتى يُسأل عن مسألتين:

ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى: بتحقيق كلمة التوحيد لا إله إلا الله علماً وإقراراً وعملاً.

وجواب الثاني: بتحقيق أنّ محمداً رسول الله علماً وإقراراً وانقياداً

وطاعة. (١)

وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

إن لهذه الكلمة الجلية فضائل عظيمة، وفواضل كريمة، ومزايا جمّة، لا يُمكن لأحد استقصاؤها. وسنذكر فضائلها في القرآن وفي سنة النبي ﷺ.

❖ أولاً: فضائلها في القرآن:

١- ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى جعلها زبدة دعوة الرسل، وخلاصة رسالاتهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].
* وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

* وقال تعالى في أول سورة النحل: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]، وهذه الآية هي أول ما عدّد الله على عباده من النعم في هذه السورة، فدلّ ذلك على أن التوفيق لذلك هو أعظم نعم الله تعالى التي أسبغها على عباده كما قال

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (١ / ٣٤). بتصرف.

سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠]. قال مجاهد: «لا إله إلا الله». (١)، وقال سفيان بن عيينة: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله». (٢)

٢- ومن فضائلها: أن الله وصفها في القرآن بأنها الكلمة الطيبة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

٣- وهي القول الثابت في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٤- وهي العهد في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرأ إلى الله عز وجل من الحول والقوة، وهي رأس كل تقوى». (٣)

٥- ومن فضائلها: أنها العروة الوثقى التي من تمسك بها نجا، ومن لم

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١/ ٧٨).

(٢) ذكره ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص: ٥٣).

(٣) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥١٨).

يَتَمَسَّكَ بِهَا هَلِكٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

٦- ومن فضائلها: أَنَّهَا الْكَلِمَةُ الْبَاقِيَةُ الَّتِي جَعَلَهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ﷺ فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

٧- وهي كلمة التقوى: الَّتِي أَلْزَمَهَا اللَّهُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

* وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: «مَا تَكَلَّمَ النَّاسُ بِشَيْءٍ عَظِيمٍ أَفْضَلَ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عِيَاضٍ: أَتَدْرِي مَا هِيَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ هِيَ وَاللَّهُ كَلِمَةُ التَّقْوَى، أَلْزَمَهَا اللَّهُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﷺ». (١)

٨- ومن فضائل هذه الكلمة: أَنَّهَا مَتْنُهُ الصَّوَابِ وَغَايَتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٣٨﴾

(١) رواه الطبراني في الدعاء (١٥٣٣/٣).

[النبأ: ٣٨].

روى علي بن طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أٰذَنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أنه قال: «إِلَّا مَنْ أٰذَنَ لَهُ الرَّبُّ ﷻ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهِيَ مَنْتَهَى الصَّوَابِ». (١)، وقال عكرمة: «الصواب: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». (٢)

٩- ومن فضائلها: أَنَّهَا هِيَ دَعْوَةُ الْحَقِّ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

١٠- ومن فضائلها: أَنَّهَا هِيَ الرَابِطَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي اجْتَمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَعَلِيهَا يُوَالُونَ وَيَعَادُونَ، وَبِهَا يُحِبُّونَ وَيُبْغِضُونَ، وَبِسَبَبِهَا أَصْبَحَ الْمَجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ وَكَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمته الله في كتابه «أضواء البيان»: «وَالْحَاصِلُ أَنَّ الرَّابِطَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي تَجْمَعُ الْمُفْتَرَقَ وَتُوَلِّفُ الْمُخْتَلَفَ هِيَ رَابِطَةُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أَلَا تَرَى أَنَّ هَذِهِ الرَّابِطَةَ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُجْتَمَعَ الْإِسْلَامِيَّ كُلَّهُ كَأَنَّهُ جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَتَجْعَلُهُ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، عَطَفَتْ قُلُوبَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ مَعَ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْاِخْتِلَافِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمُ

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥٢٠).

(٢) رواه الطبراني في الدعاء (٣/ ١٥٢٠).

وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ [غافر: ٧-٩]، فَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَنَّ الرِّابِطَةَ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ، وَبَيْنَ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى دَعَا اللَّهُ لَهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ الصَّالِحَ الْعَظِيمَ، إِنَّمَا هِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

إِلَى أَنْ قَالَ ﷺ: وَبِالْجُمْلَةِ، فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الرِّابِطَةَ الَّتِي تَرَبُّطُ أَفْرَادِ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَتَرَبُّطُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، هِيَ رَابِطَةُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَلَا يَجُوزُ الْبَتَّةُ النَّدَاءُ بِرَابِطَةِ غَيْرِهَا» اهـ. (١)

١١- ومن فضائل هذه الكلمة: أنها أفضل الحسنات، قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [القصص: ٨٤]. وقد ورد عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وغيرهم: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَسَنَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (٢)، وعن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ قَالَ: «قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: لَهُ مِنْهَا خَيْرٌ؛ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ خَيْرَ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». (٣)

(١) أضواء البيان: (٣/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) انظر: الدعاء للطبراني: (٣/ ١٤٩٧، ١٤٩٨).

(٣) أورده ابن البنا في «فضل التهليل وثوابه الجزيل» (ص: ٧٤).

* وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي عَمَلًا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَ: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَعْمَلْ حَسَنَةً فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ؟) قَالَ: «هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ». (١)

فهذه بعض فضائل هذه الكلمة العظيمة، من خلال ما ورد في القرآن الكريم.

❁ ثانياً: فضائلها من خلال ما ورد في حديث رسول الله ﷺ :

١- فمن فضائلها أنها أفضل الأعمال وأكثرها تضيعةً، وتعدل عتق الرقاب، وتكون لقائلها حرزاً من الشيطان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمِيسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ». (٢)

* وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَارٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ

(١) الدعاء للطبراني (١٤٩٨) وانظر: السلسلة الضعيفة: (٧١٤٤).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٣٢٩٣)، و (رقم: ٦٤٠٣)، وصحيح مسلم (رقم: ٢٦٩١)

أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ». (١)

٢- ومن فضائلها: أنها أفضل ما قاله النبيون، لما ثبت في الحديث عَنْ عَلِيٍّ، رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِي عَشِيَّةَ عَرَفَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢)، وفي لفظ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (٣)

٣- ومن فضائلها: أنها ترجح بصحائف الذنوب يوم القيامة كما في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: اخْضُرْ وَزَنِّكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قَالَ: «فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفِّهِ، فَطَاشَتْ

(١) صحيح البخاري (رقم: ٦٤٠٤)، وصحيح مسلم (رقم: ٢٦٩٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء (رقم: ٨٧٤). والسلسلة الصحيحة: (١٥٠٣).

(٣) الترمذي: (رقم: ٣٥٨٥). وفي السلسلة الصحيحة (٨٠٧/٤) وقال الألباني:

الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد.

السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» (١).

ولا ريب أن هذا قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته التي فيها لا إله إلا الله تطيش بتلك السجلات، إذ الناس متفاضلون في الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكم من قائل لا إله إلا الله لا يحصل له مثل هذا لضعف إيمانه بها في قلبه، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ» (٢)، فدل ذلك على أن أهل لا إله إلا الله متفاوتون فيها بحسب ما قام في قلوبهم من إيمان.

٤- ومن فضائل هذه الكلمة: أنها لو وُزنت بالسموات والأرض رجحت بهن عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ سَيِّجَانٍ مَزْرُورَةٌ بِالْدِّيَبَاجِ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا قَدْ وَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ قَالَ: يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ، وَيَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ ابْنِ رَاعٍ قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ، وَقَالَ: «أَلَا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لَا يَعْقِلُ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ،

(١) المسند (٢/ ٢١٣)، سنن الترمذي (رقم: ٢٦٣٩)، سنن ابن ماجه (رقم: ٤٣٠٠).

وقال العلامة الألباني: صحيح. صحيح الجامع (رقم: ٨٠٩٥).

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٤٤)، وصحيح مسلم (رقم: ١٩٣) (٣٢٥).

وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ....» (١).

٥- ومن فضائلها: أنها ليس لها دون الله حجاب، بل تخرق الحُجب حتى تصل إلى الله ﷻ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَطُّ مُخْلِصًا، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ». (٢).

٦- ومن فضائلها: أنها نجاة لقائلها من النار، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغَيِّرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الْأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى الْفِطْرَةِ» ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزَى (٣)، وفي الصحيحين من حديث عَتَبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». (٤)

٧- ومن فضائل هذه الكلمة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جعلها أفضلُ شُعب الإيمان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ،

(١) مسند أحمد: (٦٥٨٣)، والسلسلة الصحيحة: (١٣٤).

(٢) سنن الترمذي: (٣٥٩٠)، صحيح الجامع: (٥٦٤٨).

(٣) صحيح مسلم: (٣٨٢).

(٤) صحيح البخاري (رقم: ٩)، وصحيح مسلم (رقم: ٣٥).

وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ». (١)

٨- ومن فضائلها: أَنَّ النبي ﷺ أخبر أَنَّهَا أَفْضَلُ الذِّكْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ». (٢)

٩- ومن فضائلها: أَنَّ مَنْ قَالَهَا خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ يَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ الرِّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ». (٣)

وفي قول النبي ﷺ في هذا الحديث: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» دليلٌ عَلَى أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا تُقْبَلُ مِنْ قَائِلِهَا بِمَجَرَّدِ قَوْلِهِ لَهَا بِلِسَانِهِ فَقَطْ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ اسْتِيفَاءِ شُرُوطِهَا وَالِاتِّيَانِ بِقِيُودِهَا الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِذْ هِيَ لَا تُقْبَلُ مِنْ قَائِلِهَا إِلَّا بِذَلِكَ وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ بِفَضْلِ مَنْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.



(١) صحيح مسلم: (٣٥).

(٢) الترمذي (٣٣٨٣)، وصحيح الجامع (١١٠٤).

(٣) صحيح البخاري: (٩٩).

المبحث الرابع

آثار لا إله إلا الله في الدنيا



لهذه الكلمة إذا قيلت بصدق وإخلاص وعمل بمقتضاها ظاهراً وباطناً آثار حميدة على الفرد والجماعة من أهمها:

١ - اجتماع المسلمين التي ينتج عنها حصول القوة للمسلمين والانتصار على عدوهم لأنهم يدينون بدين واحد وعقيدة واحدة كما قال تعالى:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِرِكَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

والاختلاف في العقيدة يُسبب التفرق والنزاع والتناحر كما قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فلا يجمع الناس سوى عقيدة الإيمان والتوحيد التي هي مدلول لا إله إلا الله واعتبر بحالة العرب قبل الإسلام وبعده.

٢- توفر الأُمن والطمأنينة في المُجتمَع الموحد الَّذي يدين بِمُقْتَضَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِأَنَّ كل واحد من أفرادِهِ يَأْخُذ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ وَيَتْرَك مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ تفاعلاً مَعَ عقيدته الَّتِي تملئ عَلَيْهِ ذَلِكَ فينكف عن الاعتداء وَالظُّلْم والعدوان وَيَحِل مَحَل ذَلِكَ التعاون والمحبة والمولاة فِي اللَّهِ عملاً بقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذا يظهر جلياً فِي حَالَةِ الْعَرَب قبل أَن يدينوا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَبعد مَا دانوا بِهَا فقد كَانُوا من قبل أعداء متناحرين يفتخرون بِالْقَتْلِ والنهب وَالسَّلْب فلما دانوا بِهَا أَصْبَحُوا إِخْوَةً متحابين كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٣- حُصُول السِّيَادَةِ والاستخلاف فِي الْأَرْض وصفاء الدِّين والثبوت أمام تيارات الأفكار والمبادئ الْمُخْتَلَفَةِ - كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

فَرَبَطَ سُبْحَانَهُ حُصُولَ هَذِهِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ بِعِبَادَتِهِ وَحده لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي هُوَ مَعْنَى وَمُقْتَضَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

٤- حُصُولُ الطَّمَأْنِينَةِ النفسية والاستقرار الذهني لمن قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهَا لِأَنَّهُ يَعْبُدُ رَبًّا وَاحِدًا يَعْرِفُ مُرَادَهُ وَمَا يَرْضِيهِ فَيَفْعَلُهُ وَيَعْرِفُ مَا يَسْخَطُهُ فَيَجْتَنِبُهُ بِخِلَافِ مَنْ يَعْبُدُ آلِهَةً مُتَعَدِّدَةً كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ مُرَادٌ غَيْرُ مُرَادِ الْآخَرِ، وَلَهُ تَدْبِيرٌ غَيْرُ تَدْبِيرِ الْآخَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

﴿قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رحمته: هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوحِدِ، فَالْمُشْرِكُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدٍ يَمْلِكُهُ جَمَاعَةٌ مُتَنَازِعُونَ مُخْتَلِفُونَ مُتَشَاوُونَ وَالرَّجُلُ الْمُتَشَاكِسُ: السَّيِّئُ الْخَلْقُ.

فَالْمُشْرِكُ لَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آلِهَةً شَتَّى يَعْبُدُ يَمْلِكُهُ جَمَاعَةٌ مُتَنَافِسُونَ فِي خِدْمَتِهِ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَبْلُغَ رِضَاهُمْ أَجْمَعِينَ، وَالْمُوحِدُ لَمَّا كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ فَمِثْلُهُ عَبْدٌ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ قَدْ سَلِمَ لَهُ وَعِلْمُ مَقَاصِدِهِ وَعَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى رِضَاهُ فَهُوَ فِي رَاحَةٍ مِنْ تَشَاوُنِ الْخُلَطَاءِ فِيهِ، بَلْ هُوَ سَالِمٌ لِمَالِكِهِ مِنْ غَيْرِ تَنَازُعٍ فِيهِ مَعَ رَأْفَةِ مَالِكِهِ وَرَحْمَتِهِ لَهُ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ وَتَوَلِيَّتِهِ لِمَصَالِحِهِ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَانِ الْعِبْدَانِ (١)

٥- حُصُولُ السُّمُوِّ وَالرَّفْعَةِ لِأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ

(١) أعلام الموقعين: (١/ ١٨٧).

تَعَالَى: ﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فدلت الآية على أن التوحيد علو وارتفاع وأن الشرك هبوط وسفول وسقوط.

❦ قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقِيمِ رحمته: «شَبَّهَ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدَ فِي عُلُوِّهِ وَسَعَتِهِ وَشَرَفِهِ بِالسَّمَاءِ الَّتِي هِيَ مِصْعَدُهُ وَمَهْبِطُهُ، فَمِنْهَا هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَإِلَيْهَا يَصْعَدُ مِنْهَا، وَشَبَّهَ تَارِكَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ بِالسَّاقِطِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ مِنْ حَيْثُ التَّضْيِيقِ الشَّدِيدِ وَالْأَلَامِ الْمُتَرَاكِمَةِ وَالطَّيْرِ الَّذِي تَخْطِفُ أَعْضَاءَهُ وَتَمَزُّقُهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ بِالشَّيَاطِينِ الَّتِي يُرْسِلُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ وَتَوَزُّعُهُ أَزَا وَتَزَعُّجُهُ وَتَقْلُقُهُ إِلَى مَظَانِّ هَلَاكِهِ، وَالرِّيحِ الَّتِي تَهْوِي بِهِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ هُوَ هَوَاهُ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى إِلْقَاءِ نَفْسِهِ فِي أَسْفَلِ مَكَانٍ وَأَبْعَدِهِ مِنْ السَّمَاءِ». (١)

٦ - عَصَمَةُ الدِّمِّ وَالْمَالِ وَالْعَرَضِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا» (٢)، وَقَوْلُهُ (بِحَقِّهَا) مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوهَا وَامْتَنَعُوا مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّهَا وَهُوَ أَدَاءُ مَا تَقْتَضِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ الشَّرْكِ وَالْقِيَامِ بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ أَتَّهَاهَا لَا تَعَصِمُ أَمْوَالَهُمْ وَلَا دِمَاءَهُمْ بَلْ يَقْتُلُونَ وَتُؤْخَذُ أَمْوَالُهُمْ غَنِيمَةً

(١) أعلام الموقعين: (١/ ١٨٠).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٣/ ٢١٧). فِي الْإِعْتِصَامِ.

للمسلمين كما فعل بهم النبي ﷺ وخلفاؤه.

٧- ومن آثار لا إله إلا الله: أن يتحرر الإنسان من كل طاغوت، والطواغيت: من يعبدون بتجاوز وتعد من دون الله ﷻ، وحسب مؤمن يعظم لا إله إلا الله فيشعر أنه عبد لله، لا تنحني هامته إلا لله وحده، ولا يطأ طيء رأسه وأنفه إلا لله وحده، ولا يمرغ أنفه وجبينه إلا لله وحده، وبدون ذلك ولغير ذلك فإن إراقة الدماء أهون عليه من أن يسجد لغير الله، أو أن ينقاد لغير الله ﷻ، هذه آثار لا إله إلا الله، يقولها من لم يدرس في الجامعات، ولم يؤلف المطولات، ولم يقرأ في المختصرات، صحابي من الصحابة لما قابل قائداً من قواد المشركين، يجيبه على سؤاله الذي قال فيه: ما الذي جاء بكم؟ فقال: إن الله ابتعثنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله. (١)

إن هذا من مقتضى كلمة لا إله إلا الله، أن يتحرر الإنسان فيها، أن يجد عزة وغنى: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره. (٢)

فلا إله إلا الله تغنيك عن كل ما سوى الله ﷻ، ألا لو أننا تعلقنا بها،

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ج/ ص: ٤٧ / ٧) وتاريخ الرسل والملوك - (ج ٢ / ٢٦٨).

(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي: (١ / ١٠٧).

وتوكلنا بمعناها على الله حق التوكل لرزقنا كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتروح بطانًا.

٨- ومن آثار لا إله إلا الله: أنها تحرر النفوس فيما جبلت عليه من غرائز جبلية، جبلت النفس على حب المال، وجبلت النفس على حب الشهوة، وجبلت النفس على كثير من الغرائز، لكن من تعلق بلا إله إلا الله واستحكمت في حياته فإنها تجعله منفقًا لهذا المال الذي يتقاتل الناس على جمعه، تجعله متعففًا عن هذه الشهوة التي يحتال الكثير من أجل الوصول إليها، تجعله ساميًا يرمق ما عند الله في وقت يتنافس فيه الناس على المال، إن لا إله إلا الله تجعل أمانى المسلم أمانى عظيمة.

المسلم الذي يرغب جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا يفكر أن يطمع في أشياء دنيوية، أو أمور سخيفة تافهة، فالعاقل يدرك أن لا إله إلا الله تحرر النفس، وتجعل الإنسان يرثي لحال هؤلاء الذين يتقاطعون ويتدابرون، ويكذبون ويتشاتمون، ويتهاجرون ويتسابون من أجل مصالح الدنيا، لأنه إن رآهم يتقاتلون على مال قلّ أو كثر فإنه يرغب فيما عند الله ﷻ، إن هذا أيضًا مما تقتضيه لا إله إلا الله ومن آثارها.

فواجبنا أن نعتني بها، وأن ندركها تمام الإدراك، وأن نكون دعاة إليها، ندعو إلى لا إله إلا الله حتى آخر لحظة في حياتنا، وحتى آخر لحظة في حياة من ندعوهم، أما آخر لحظة في حياة الداعي: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣] هو الآن

يعالج سكرات الموت، ويدعو إلى لا إله إلا الله، فيقول: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ [البقرة: ١٣٣]. فيقولون: ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وندعو إلى لا إله إلا الله حتى آخر لحظة في حياة من ندعوهم: لما قام ﷺ يدعو عمه أبا طالب، وهو يعلم أنه في آخر اللحظات، لا يستطيع أبو طالب أن يحمل سيفاً للجهاد، ولا أن يقوم ليركع، ولا أن ينحني لیسجد، ولا أن يمد لينفق، ولكنه يدعو إليها حتى ولو في النزع الأخير: «أَيَّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» (١) فيقول أبو جهل وصناديد قريش الذين كانوا من حوله: أتترك دين الآباء والأجداد؟

والنبي يدعوها إليها وأولئك يصدونه عنها حتى مات وهو يقول: على ملة عبد المطلب.

ندعوهم حتى آخر لحظة من حياتهم، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ». (٢)

ندعو إلى لا إله إلا الله غير المسلمين لكي يعرفوا حلاوة الإيمان، ولننقلهم من السجود والخضوع والتعظيم لغير الله، من العبودية للأحجار

(١) البخاري: (٣٨٨٤).

(٢) البخاري: (١٣٥٦).

والأصنام وغيرها إلى شرف التوحيد والوحدانية لله، ندعو المسلمين أنفسهم الذين ينطقون لا إله إلا الله أن يقوموا بحقها وواجبها، ندعو الناطقين بلا إله إلا الله أن يكفوا عن أكل الحرام، ندعو الناطقين بلا إله إلا الله أن يأخذوا الرشوة والربا، ندعو الناطقين بلا إله إلا الله أن يقوموا بهذا الواجب بسمعهم وأبصارهم وفروجهم وبطونهم وكل ما آتاهم الله.

مَا نَطَقِ النَّاطِقُونَ إِذْ نَطَقُوا ... أَحْسَنَ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
تَبَارَكَ اللَّهُ ذُو الْجَلَالِ وَمَنْ ... أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
مَنْ لَذَنُوبِي وَمَنْ يَمَحْصُهَا ... غَيْرُكَ يَا مَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
جَنَّانٌ خَلَدَ لِمَنْ يُوَحِّدُهُ ... أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
نِيرَانُهُ لَا تَحْرِقُ مَنْ ... يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
أَقُولُهَا مُخْلِصًا بِلَا بَخْلٍ ... أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. (١)



(١) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها (ص: ٧١).

الفصل الثاني

رَسَائِلُ يُحَدِّثُنَا فِيهَا رَبُّنَا
عَنْ ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ



هذه رسالة ربانية يخاطبنا فيها ربنا بقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨] وَيُعَلِّمُنَا فِيهَا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، فلا يستهان بعقابه، ولا تنتهك محارمه، ولا يُفْعَلُ ما يُوجِبُ عقابه سبحانه وتعالى.

- وقد تكررت هذه الرسالة ثلاث مرات في كتاب الله وهي بترتيب المصحف كالآتي قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦) ﴿البقرة: ١٩٦﴾، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥) ﴿الأنفال: ٢٥﴾.

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوِّف مع هذه الرسالة الربانية.

- الله تبارك وتعالى خلق الخلق لعبادته سبحانه، وأرسل إليهم الرسل ليأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

فمن آمن بالله وعبدَه وأطاعَه أسعده الله في الدنيا، وأدخله الجنة يوم القيامة، ومن كفر بالله وعصاه شقي في الدنيا، وأدخله الله النار يوم القيامة: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

❖ مبدأ الثواب والعقاب الإلهي:

لقد رتب الله ﷻ الجزاء في الدنيا والآخرة على فعل المكلف، وجعل مدار السعادتين في الدنيا وفي الدار الآخرة نتيجة سلوك الإنسان، وزود الإنسان بالإمكانات التي تعينه على سلوك طريق الخير باختياره، أو سلوك طريق الشر باختياره، وأقام الحجة على الخلق ببعثة الرسل، وبإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُ طَرِيقًا وَاللَّهُ يُلْقِي السَّلَاطَ وَأَنَّهُ يُخَالِفُ طَرِيقًا إِذَا أُتِيَ بِالسَّلَاطِ أَوْ بِلَا طَرِيقٍ﴾ [النساء: ١٦٥] وفطر الإنسان على فطرة الدين، والأرض القابلة لاستنبات الدين هي: الفطرة، يقول عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، أَوْ يُنَصْرَانِهِ، أَوْ يَمَجَّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ». (١) ولم يقل: يمسلمان؛ لأنه مسلم بالفطرة، وفي حديث آخر في صحيح مسلم وهو حديث قدسي، يقول الله ﷻ: «...وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ» (٢) كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ...» (٣).

(١) صحيح البخاري: (١٣٨٥).

(٢) أي: مستقيمين.

(٣) صحيح مسلم: (٢٨٦٥).

❁ ترتيب الجزاء الأخروي على كسب الإنسان الدنيوي:

إن المتأمل لآيات الكتاب الكريم ولأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه يجد هذا واضحاً. (١) قال ﷺ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] فلا يحصل شيء من العبد إلا ويحصل له جزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، يقول ﷺ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) [الروم: ٤١] فظهر الفساد في البر والبحر: فساد في الهواء، والماء، والثمار، وكل شيء بكسب العباد، فتتأثر جميع المخلوقات بكسب الإنسان ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١] وإلا لو أذاق الله العباد كل ما عملوا ما بقي على ظهرها من دابة، ولكن الله حلیم يمهّل ولا يهمل، ويقول ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧) [يونس: ٢٦ - ٢٧] فهذه آية توضح أن القضية قضية كسب، فاكسب خيراً؛ تربح، واعمل سيئات؛ تحسب عليك، فلا يأخذ ذنوبك غيرك، ولا يأخذ حسناتك غيرك، يقول الله ﷻ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ

(١) بل يذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي أن هذا واضح في أكثر من ألف موضع في القرآن الكريم، وهو أن الله دائماً يرتب الجزاء على فعل الإنسان.

الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ [النجم: ٣١] إلى غير ذلك من آيات.

❁ العقاب سنة الله فيمن عصاه من الأمم:

إن الذين يتخذون موقفاً واحداً في جميع شئونهم وهو: العناد، والإصرار، والمكابرة، والرفض، والإعراض، وتكذيب الرسول ﷺ والرسول من قبله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥] ويتركهم الله ﷻ أمام هذا التهديد المجمل فلا يبينه، فلا يعرفون نوع التهديد ولا مواعده، ويتركهم في غاية من الخوف يتوقعونه في كل لحظة من اللحظات؛ لأنهم يتأكدون من صدقه.

وهي حقيقة ينساها البشر حينما يُمكن الله لهم في الأرض، فينسبون أن هذا التمكين من الله، وأن الله إنما مكنهم ليلوهم فيما آتاهم بالعبودية له وحده، والتلقي عنه وحده؛ لأنه صاحب الملك الذي أعطاهم.

❁ الذنوب مهلكة لأصحابها:

إن الذنوب تهلك أصحابها، والله يهلك المذنبين بسبب ذنوبهم، وهذه حقيقة تغيب عن أذهان الناس كما أنها سنة ماضية، حتى لو لم يرها الإنسان في عمره القصير أو المحدود إلا أنها سنة باقية لا تبدل، تصير إليها جميع الأمم، وتنتهي إليها جميع الكائنات عندما تفسو الذنوب، وتنتشر المعاصي، وتقوم الحياة على المخالفات.

❁ عقوبات الله للمخالفين نوعان:

عقوبات على عدم قبول الحق.. وعقوبات على مخالفة أوامر الرب.

- فعقوبات على عدم قبول كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تُمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الَّهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [فصلت: ١٧].

وعقوبات على مخالفة أوامر الرب كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٣﴾ [النساء: ٩٣].

❁ كل من نسي الله يعاقب بعقوبتين:

إحداهما: أن الله سبحانه ينساه، وإذا نسيه الله وأهمله وتركه وتخلّى عنه فالهلاك أدنى إليه من اليد إلى الفم كما قال سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

الثانية: أن الله سبحانه ينسيه نفسه، فيهمل حظوظها وأسباب سعادتها وفلاحها، وينسيه عيوب نفسه وآفاتنا فلا يخطر بباله مداواتها، وإزالة عللها، وهذه أعظم خسارة للعبد، وقد حذرنا الله من ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ومن نسي دين الله في الدنيا وأعرض عنه أشغله الشيطان بما يضره ويبعده عن ربه، ثم نزلت به عقوبة جنايته كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

ومن نسي الله في الدنيا نسيه الله في الآخرة، كما قال سبحانه عن الكفار: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (٣٤) ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَضْتُمْ أَيُّومَ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٣٥) [الجاثية: ٣٤ - ٣٥].

والله ﷻ لا يكلف نفساً إلا وسعها، والأوامر والنواهي الشرعية ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح، ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالله سبحانه أمر العباد بما أمرهم به رحمة منه وإحساناً. ولما كان كل عامل سيجازي بعمله، والإنسان عرضة للنسيان والخطأ والتقصير، أخبر الله سبحانه أنه لا يؤاخذ على الخطأ والنسيان كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فقال الله ﷻ: «قَدْ فَعَلْتُ» (١)

وقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

❖ عقوبات الذنوب والمعاصي نوعان:

عقوبات قدرية.. وعقوبات شرعية.

وهي إما في القلب.. وإما في البدن.. وإما فيهما معاً.

(١) أخرجه مسلم: (١٢٦).

عقوبات في دار الدنيا.. وعقوبات بعد الموت في القبر.. وعقوبات يوم
البعث وحشر الأجساد.. وعقوبات في مستقر الكفار والعصاة في النار كما
قال سبحانه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والغرق على
الماء، وفساد البدن على السموم.

والعقوبة قد تقارن الذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيراً وإما مدة، كما يتأخر
المرض عن سببه أو يقارنه.

أما أصل العقوبة فهو واقع على كل ذنب وما يعفو الله عنه أكثر كما قال
سبحانه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

❁ أنواع العقوبة:

منها ما يتعلق بالدين وهي أشدها كأن تخف المعصية في نظر العاصي، أو
يتهاون بترك الواجب.

ومنها العقوبة في النفس كالمرض.. والعقوبة بفقد الأهل والأولاد..
والعقوبة بفقد المال ونحو ذلك: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ أَنَّهُ لِيُذِلَّ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ

ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ [المائدة: ٤٩].

وإذا أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الأمراء وأقوال الشيوخ عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم.

وأعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم فلم يروها منكراً، وجاءتهم دولة أخرى تقوم فيها البدع مقام السنن.. والنفس مقام العقل.. والهوى مكان الهدى.. والضلال مقام الرشد.. والمنكر مقام المعروف.. والجهل مكان العلم.. والباطل مقام الحق.. والرياء مقام الإخلاص.. والظلم مقام العدل.. والظلام مقام النور.

فحينذاك بطن الأرض خير من ظهرها، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وما ضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلي بتضييع السنن، وما ضيع أحد سنة من السنن إلا يوشك أن يبتلي بالبدع.

والله عزيز حكيم عليم، إذا منع الناس الزكاة، وحرموا المساكين، حبس الله عنهم الغيث، وابتلاهم بالقحط.

فلما منعوا الحق عاقبهم الله بمنع نزول الغيث.

ومن صرف الناس عن الهدى والإيمان صرف الله قلبه عن الهدى والإيمان، فصدهم الله عنه كما صدوا عباده عنه، صدّاً بصد، ومنعاً بمنع:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يُجْزَ بِهِ. وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣)

[النساء: ١٢٣].

وإذا جار القوي على الضعيف، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، سلط الله العدو عليهم ففعل بهم كفعلهم بضعفائهم.

فسبحان من بهرت حكمته العقول، وملك القلوب.

وكفر ساعة يوجب عقاب الأبد في النار؛ لأن الكافر كان على عزم أنه لو عاش أبداً ل بقي على ذلك الاعتقاد أبداً، فلما كان ذلك العزم مؤبداً عوقب بعقاب الأبد، والله عليم بذات الصدور.

أما المسلم المذنب، فإنه يكون على عزم الإقلاع عن ذلك الذنب فلا جرم كانت عقوبته منقطعة.

والعبد إذا قصر في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه، وكلما زاد الإيمان زادت الطاعات، فاستأنس العبد بربه، واستوحش من غيره، وكلما نقص الإيمان قلت الطاعات، وزادت المعاصي، وانشغل الإنسان بالشهوات عن أوامر الله وَعَلَىٰ.

وإذا قامت الحياة على أساس الأموال والأشياء، لا على أساس الإيمان والتقوى، سلط الله على الأمة أربعة أشياء:

قحط الدهر.. وخيانة الحكام.. وظلم الملوك.. وخوف الأعداء، فالأشياء موجودة لكن الحوائج لا تكمل، والأموال موجودة لكن القلوب غير مطمئنة: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: ٣٣).

ومن سنة الله وَعَلَىٰ أن كل من أعرض عن شيء من الحق وقع في باطل،

مقابل ما أعرض عنه من الحق.

فمن رغب عن العمل لله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فما أخسره حين رغب عن العمل لمن ضره ونفعه، وحياته وموته، وسعادته وشقاوته بيده، إلى العمل لمن لا يملك من ذلك شيئاً.

ومن رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم.

ومن رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب لخدمة أدنى الخلق.

ومن رغب عن الهدى بالوحي ابتلي بكناسة الآراء، وزبالة الأذهان.

❖ العقوبات خاصة وعامة:

خاصة: كما عاقب الله قارون وحده، فخسف به وبداره الأرض.

وعامة: كما دمر الله فرعون وقومه؛ لأن فرعون ادعى أنه رب وإله، واستخف قومه فأطاعوه واتبعوه، فدمر الله الجميع، وأغرقهم في البحر كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكذا كل من عاند الرسل وكذبهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقريش عاقبهم الله بذنوبهم: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

• **الله ﷻ على أهل المعاصي عقوبتان:**

إحداهما: جعل الإنسان خاطئاً مذنباً لا يحس بألم المعصية ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

الثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

لكن العقوبة الأولى عقوبة موافقة لشهوته وإرادته فلا يشعر بها، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به فيقاسي ألمها.

وقد ذكر الله العقوبتين وقرن بينهما بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [٤٤] فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

• **على المسلم أن يحذر من أمرين لهما عواقب سوء:**

الأول: رد الحق لمخالفته هواه، فمن فعل ذلك عوقب بتقليب قلبه، وَرَدَّ مَا يَرِدُّ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ رَأْسًا، فلا يقبله إلا إذا برز في قالب هواه.

الثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فمن تهاون بذلك ثبطه الله وأقعدته عن مرضيه وأوامره عقوبة له كما قال سبحانه: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَ لَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١١٠] [الأنعام: ١١٠].

وكل كافر ومشرِك إنما يستحق العقوبة بمجرد كفره وشركه، ولكن إرسال الرسل وترك طاعتهم شرط في وقوع العذاب.

فالمقتضي قائم وهو عدم الإيمان، لكن وقوع العقوبة مشروط بشرط هو إرسال الرسول، ومعصية الرسول كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

❖ ما عاقب الله به الكفار:

- عاقب الله جل جلاله الكفار بعقوبات حسب جرائمهم، ورتب بعض العقوبات على الذنوب.

منها: الختم على القلوب والأسماع.. والغشاوة على الأبصار.. والأقفال على القلوب.. وجعل الأكنة والرين عليها.. والطبع على القلوب.. وتقليب الأفئدة والأبصار.. والحيلولة بين المرء وقلبه.. وإغفال القلب عن ذكر الرب.. وإنساء العبد نفسه.. وترك إرادة الله تطهير قلبه.. وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء.. وصرف القلوب عن الحق.. وزيادتها مرضاً على مرضها.. وإركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة.

ومن عقوبات المعاصي أنها تثبط عن الطاعات، وتبعد عنها، وتجعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه.

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل سافلين، وصاحبه لا يشعر به.

وعلاوة الخسف بالقلب أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والردائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالاً حول البر والخير، والفضائل والطيبات، والعلويات والمحاسن من الأقوال والأعمال

والصفات.

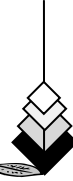
وقد أخبر الله تبارك وتعالى في القرآن ما أوقع بالمشركين من العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد.

فيذكر شرك هؤلاء الذي استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذي استحقوا به النجاة، ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهاناً للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه صادر عن أسمائه وصفاته سبحانه.

فصدور هذا الإهلاك عن عزته، وذلك الإنجاء عن رحمته كما قال سبحانه بعد عقوبات الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ٨، ٩].



المبحث الثاني فاعلموا أن الله عزيز حكيم



هذه الرسالة الربانية تكررت في القرآن مرتين:

الأولى قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

والثانية قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

- ولنا مع هذه الرسالة الربانية وقفتان:

* الوقفة الأولى: مع اسم الله العزيز.

* الوقفة الثانية: مع اسم الله الحكيم.

اسم الله العزيز

❦ معناه في حق الله تعالى:

الله - ﷻ - هو العزيز بكل معاني العزة كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ

الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

❦ يقول ابن كثير: «(العزيز) أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب

الأشياء فلا ينال جنبه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه». (١)

ويقول القرطبي: «(العزیز) معناه المنیع الذي لا ينال ولا يغالب». (٢)

❁ اسم الله العزيز في الكتاب:

ورد ذكر اسمه سبحانه (العزيز) في القرآن في اثنتين وتسعين مرة جاء في أكثرها مقترناً بأسماء أخرى من أسمائه سبحانه الحسنی.

❁ اسم الله العزيز في السنة:

- لقد أثنى نبينا محمد ﷺ على ربه، وهو أعرف الخلق به، فوصفه بأنه صاحب العز التام والعزة المطلقة، فعن أبي سعيد الخدري - رحمته الله - قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذْبَتُهُ». (٣)

* وعن أنس بن مالك - رحمته الله - قال: قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعِزَّتِكَ وَيُزَوِّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ». (٤)

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ١٣١.

(٣) مسلم: ٢٦٢٠

(٤) مسلم: ٢٨٤٨

❁ من أثار الإيمان باسمه سبحانه (العزیز):

إن اسمه سبحانه (العزیز) يستلزم توحیده وعبادته وحده لا شريك له إذ الشركة تنافي كمال العزة، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمته الله تعالى: «وهذه العِزَّةُ مستلزمةٌ للوحدانية؛ إذ الشركة تُنقص العِزَّةَ، ومستلزمةٌ لصفات الكمال؛ لأن الشركة تُنافي كمال العِزَّةَ، ومستلزمةٌ لنفي أضدادها، ومستلزمةٌ لنفي مماثلة غيره له في شيءٍ منها، فالروح تُعاین بقوة معرفتها وإيمانها: بهاء العِزَّةَ وجلالها وعظمتها، وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر؛ المتلقاة من مشكاة الوحي، فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين؛ وجدل المتكلمين؛ وخيالات المتصوفين».

(١)

ثانيًا: ومن كمال العزة تبرئته سبحانه من كل سوء وتنزيهه من كل شر ونقص، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمته الله تعالى: «اسمه (العزیز) الذي له العزة التامة». (٢)

- ومن تمام عزته: براءته عن كل سوء وشر وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة». (٣)

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٥٧.

(٢) العزة الحقيقية لله سبحانه، ولكن هناك من يدَّعي أنه عزیز، وفي الحقيقة عزتهم كاذبة، ولقد وضحت هذه القضية بفضل الله تعالى في كتابي فتح المنان عند الحديث عن سورة فاطر.

(٣) شفاء العليل ٢/ ٥١١.

ثالثاً: من كمال عزته سبحانه نفاذ حكمه وأمره في عباده وتصريف قلوبهم على ما يشاء وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وهذا يجعل العبد خائفاً من ربه سبحانه لائذاً بجناحه معتصماً به متبرئاً من الحول والقوة ذليلاً حقيراً بين يدي ربه سبحانه يسأل ربه حفظ قلبه وصلاح دينه ودنياه، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمته الله تعالى: «... وأنه لكمال عزته حكم على العبد، وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء وحال بين العبد وقلبه؛ وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهره. وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه. ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره. لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد». (١)

رابعاً: ومن شهود عزته أيضاً في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة، كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعييه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه؛ وكذلك العكس، فنقص الذنب وذلتته يُطلعه

على مشهد العِزَّة. (١)

خامساً: يثمر الإيمان بهذا الاسم الكريم العزة في قلب المؤمن ومهما ابتغى العبد العزة عند غير الله تعالى وفي غير دينه فلن يجدها ولن يجد إلا الذل والضعف والهوان قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال سبحانه راداً على المنافقين الذين رأوا العزة عندهم: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والشعور بهذه العزة تثمر التعالي على الباطل وأهله وعدم الاستكانة لهم مهما تسلطوا على العبد فغاية ما يقدرُونَ عليه الأذى الظاهري، أما القلب فما دام مملوءاً بالإيمان والاعتزاز بالقوي العزيز فلن يصلوا إليه ولن يسيطروا عليه ولن يتطرق إليه الوهن والضعف أبداً.

سادساً: كما يثمر هذا الشعور عدم الركون إلى شيء من هذه الدنيا الفانية وجعلها مصدر العزة والقوة فكم رأينا وسمعنا من كثير من الناس الذين اغتر بعضهم بماله أو جاهه أو ولده أو سلطانه ومنصبه فكانت كلها سبباً في إذلاله واستخذائه وشقائه، وصدق من قال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله»، وإنا لنجد مصداق هذا الكلام في واقعنا البائس اليوم حيث إنه لما ركن كثير من الأفراد والطوائف والدول إلى غير الله - ﷻ - يتغنون عندهم العزة أذلهم الله وجعلهم في ذيل الركب ومؤخرة الأمم،

وصدق الله - ﷻ - ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

سابعاً: من أسباب العزة العفو والتواضع والذلة للمؤمنين قال الله تعالى في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال الرسول ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» (١)، فمن عفا عن شيء مع قدرته على الانتقام، عظم في القلوب في الدنيا وفي الآخرة بأن يعظم الله ثوابه.

ثامناً: سمى الله تبارك وتعالى كتابه: (العزیز) وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ﴾ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

قال قتادة: «أعزه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل» (٢)، ومن عزته أن يعز ويرفع من عمل به ودعا إليه، ومن عزته أنه غالب بحججه وكماله وشموله ومن قال به واحتج به فهو الغالب العزيز.

❁ إذا أردت أن تنال العزة في الدنيا والآخرة، فعليك بما يلي:

تذلل للعزيز سبحانه وتقرّب إليه بذلٍ يتقرّب إليك بعزة، وامد يدك إليه

(١) مسلم (٢٥٨٨).

(٢) تفسير ابن جرير ٧٩/٢٤.

بافتقار يمدّك منه بعزة وكرامة وغنى، فعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وآله -: «مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَجَبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ - وعجل -» (١).

ولذلك قال بعض العلماء: طرقت الأبواب إلى الله فوجدتها ملاءى، فطرقت باب التذلل إلى الله فلم أجد عليه إلا القليل من الناس. فكلما ذلت له رفعك وأعزك. - أكرم الناس، وارفَع من قدرهم ومكانتهم، وعاملهم كما تحب أن يعاملوك، وارضَ لهم ما ترضاه لنفسك، ولا تنس قول رسول الله - صلى الله عليه وآله -: .. «..... وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» (٢).

حاول أن تتخلص من الذل، ولا تقبل الذل ولا ترضاه لنفسك، قال صلى الله عليه وآله: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قالوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ». (٣)

ولا يقف بك الأمر عند تخليص نفسك وذويك فقط من الذلة والمهانة، بل ينبغي أن يصل بك الطموح، ويرتفع بك الواجب إلى أن تزيل الذلة عن الأمة الإسلامية، فخطّط كيف تخرجها من ذلها، وتردها إلى عزتها ومكانتها!!.

(١) الطبراني في الأوسط (٤٦٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٩).

(٢) مسلم (٦٧٥٧)

(٣) الترمذي ٢٢٥٤ وصححه الألباني

❁ بيان كيفية التعبد لله ودعائه باسم العزيز:

لقد توسل بهذا الاسم خليل الرحمن إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٥]، وقال النبي ﷺ لأنس بن مالك رضي الله عنه: «إِذَا اشْتَكَيْتَ فَضَعْ يَدَكَ حَيْثُ تَشْتَكِي، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ مِنْ وَجَعِي هَذَا، ثُمَّ ارْفَعْ يَدَكَ ثُمَّ أَعِدْ ذَلِكَ وَثَرًا». (١)

* وحثنا ﷺ على سؤال الله بعزته، فقال ﷺ: «من قال إذا أوى إلى فراشه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي وَأَوَانِي، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُنَجِّبَنِي مِنَ النَّارِ، فَقَدْ حَمَدَ اللَّهُ بِجَمِيعِ مَحَامِدِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ». (٢)

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَصَوَّرَ عَنِ اللَّيْلِ أَرْقَ أَوْ تَقَلَّبَ فِي فِرَاشِهِ، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ». (٣)

- وممن سطر أروع الأمثلة في إثبات العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وليست لمن يملك حسبا أو نسباً أو مالاً: عبد الله بن عبد الله بن أبي بن

(١) الترمذي ٣٥٨٨ وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٢٥٨)

(٢) الحاكم في المستدرک ٢٠٠١، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٣٤٤٤)

(٣) الحاكم في المستدرک ١٩٨٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٢٠٦٦).

سلول - ﷺ -، يوم أن وقف أبوه رأس النفاق، يقول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». هنا وقف ابنه عبد الله الشاب الصالح ومنع أباه من دخول المدينة، وقال في وجهه: «وَاللَّهِ لَا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقَرَّ أَنَّكَ الدَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْعَزِيزُ» (١).

اسم الله الحكيم

ورد اسمه سبحانه: (الحكيم) في القرآن في واحد وتسعين موضعاً. وفي جميع المواضع يرد هذا الاسم الكريم مقترناً باسم آخر من أسمائه - سبحانه - - الحسنی.

❁ ورود اسم الحكيم في السنة النبوية:

أما في السنة ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم:

(١) صحيح الترمذي للألباني رقم (٣٣١٥). ولفظه: عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ - قَالَ سُفْيَانُ: يَرَوْنَ أَنَّهَا غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتَنَبِّئَةٌ»، فَسَمِعَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ، فَقَالَ: أَوْقَدْ فَعَلُوهَا؟ وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبَ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْمَا لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» وَقَالَ غَيْرُ عَمْرٍو، فَقَالَ: لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَاللَّهِ لَا تَنْقَلِبُ حَتَّى تُقَرَّ أَنَّكَ الدَّلِيلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَزِيزُ، فَفَعَلَ.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) **﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (١١٨) [المائدة: ١١٧ - ١١٨] (١)

❁ معناه في حق الله تعالى:

﴿يقول الحلিমی: «الحکیم: الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير»﴾. (٢)

﴿وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل، شيئاً

(١) تقييم العباد من شأن الله وحده، ومن التألي على الله أن نحكم على إنسان حكماً قطعياً، والدليل على هذا أن النبي ﷺ دخل إلى بيت أحد الصحابة، الذين توفاهم الله اسمه أبو السائب، فسمع امرأة تقول: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، وهنا لا يمكن أن يسكت النبي ﷺ لأن سكوته إقرار وتشريع، فقال عليه الصلاة والسلام: ما يدريك أن الله أكرمه؟ قولي أرجو الله أن يكرمه وأنا نبي مرسل، لا أدري ما يفعل بي ولا بكم. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) **﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [المائدة: ١١٧ - ١١٨]، هذا أدب مع الله، فالمؤمن لا يتألى على الله، ولا يقيم البشر، ولا يصدر أحكاماً قطعية مستقبلية، لأن هذا من شأن الرب. من موسوعة النابلسي. بتصرف واختصار.

(٢) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٢.

عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل.

بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.. وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا. وهذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها». (١)

❁ من آثار اسمه سبحانه (الحكيم):

آثار حكمه وحكمته سبحانه وتعالى بادية في خلقه - ﷻ - وفي أمره وشرعه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهذا ما فصله الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته المشهورة بقوله:
وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضاً ما هما عدمان
حكم وإحكام فكل منهما ... نوعان أيضاً ثابتا البرهان
والحكم شرعي وكوني ولا ... يتلازمان وما هما سيان
بل ذاك يوجد دون هذا مفرداً ... والعكس أيضاً ثم يجتمعان
لن يخلو المربوب من أحدهما ... أو منهما بل ليس ينتفیان
إلى قوله:

والحكمة العليا على نوعين أيضاً ... حصلاً بقواطع البرهان
إحدهما في خلقه سبحانه ... نوعان أيضاً ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده ... في غاية الإحكام والإتقان

وصدوره من أجل غايات له ... وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه ... أيضاً وفيها ذاك الوصفان
غاياتها اللائي حمدن وكونها ... في غاية الإتقان والإحسان» (١)
نخلص مما ورد في الآيات السابقة إلى أن اسمه سبحانه (الحكيم)
يتناول معنيين كبيرين:

المعنى الأول: (الحُكم) أي: أن له سبحانه الحكم كله في الدنيا والآخرة.
والحكم هنا يتناول الأحكام الثلاثة:

الأحكام الكونية القدريّة، والأحكام الدينية الشرعية، والأحكام
الجزائية، فله الحكم فيها كله لا شريك له في حكمه، كما لا شريك له في
عبادته قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]. (٢)
المعنى الثاني: (الإحكام). أي: الذي له الحكمة البالغة في خلقه وأمره
وشرعه فلا يخلق ولا يأمر إلا بما فيه المصلحة والحكمة، علمها من علمها،
وجهلها من جهلها.

وعن المعنى الأول يقول الإمام ابن القيم رحمته الله تعالى: «والحكم نوعان:
حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني:

-
- (١) نونية ابن القيم ٢/ ٢١٨ - ٢١٩، الآيات (٣٢٥٢) وما بعدها.
(٢) «ولا يشرك» قرأ الشامي بناء الخطاب وجزم الكاف على أن لا ناهية، والباقون بياء
الغيبة ورفع الكاف على أنها نافية. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة
(ص: ١٩١).

الأول: حكم شرعي ديني: فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم، وترك المنازعة، بل الانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد، ولا سياسة، ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول، فإذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة إقراراً وتصديقاً بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذاً وعملاً، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلافه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلافه تحت الأمر، واضمحل خوضه في معرفته بالحق، فاطمأن إلى الله معرفة به، ومحبة له وعلمًا بأمره وإرادة لمرضاته. فهذا حق الحكم الديني.

الحكم الثاني الحكم الكوني القدري:

الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن، ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضاً، فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبدالقادر الجيلاني: «الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر». اهـ.

فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه، فتأمل قول عمر بن الخطاب

ﷺ وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له: أتفر من قدر الله؟ فقال: نفر من قدر الله إلى قدر الله.

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه، فإنه إذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمة، ودفعه بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره، وهكذا إذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله، فما باله لا يستسلم له ويسالمة ويتلقاه بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفئ قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله، هكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض، فحق هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإذا غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم، وبهذا أمر، بل هذا حقيقة الشرع والقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطيها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه، وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه؟ ولو أن عدوًّا للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله، وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعًا لقدر الله بقدره، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية، اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة،

والمنازعة، وخرج الأمر عن يده، فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث.

الحكم الثالث: وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته:

فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة، وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركب في لجة البحر، وعجز عن السباحة وعن سبب يدينه من النجاة فهنا يحسن الاستسلام والمسالمة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات آخر سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقيه كل عبد، فمن رضي، فله الرضى ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم (الحكيم) - جل جلاله - وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعه وحل في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأن ذلك أوجب له عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل، فهو موجب أسمائه الحسنی وصفاته العلی، فله عليه أكمل حمد وأتمه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره». (١)

وأما المعنى الثاني: (للحكيم) وهو الموصوف بكمال الحكمة والإحكام

(١) طريق الهجرتين ١/ ٣٧، ٣٨، ولم يشر الإمام ابن القيم هنا إلى الحكم الجزائي والذي هو من أنواع الحكم الذي هو لله وحده.

والإتقان فينقسم إلى قسمين:

الأول: حكمته سبحانه في خلقه وصنعه.

الثاني: حكمته سبحانه في أمره وشرعه.

وعن هذين النوعين من الحكمة يقول الشيخ السعدي رحمته الله تعالى: «وحكمته نوعان:

أحدهما: الحكمة في خلقه فإنه خلق الخلق بالحق، ومشتماً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته، وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً، ولا نقصاً، ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن، والانتظام، والإتقان لم يقدرُوا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك.

وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعاً بما يعلم من عظمته، وكمال صفاته، وتتبع حكمه في الخلق، والأمر.

وقد تحدى عباده، وأمرهم أن ينظروا، ويكرروا النظر، والتأمل هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار قليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأى حكمة أجل من هذا، وأى فضل، وكرم أعظم من هذا، فإن معرفته تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحده، وشكره، والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق.

وأجل الفضائل لمن الله عليه بها، وأكمل سعادة، وسرورًا للقلوب، والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية، والنعيم الدائم.

فلو لم يكن في أمره، وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة، وحق الجزاء، وخلقت الجنة، والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه، ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا، ويقينًا، وإيمانًا، وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب، ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح، وهدى، ورشد، وأوامره، ونواهيه محتوية على عناية الحكمة، والصلاح، والإصلاح للدين والدنيا فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما هو الغاية لصلاح القلوب، والأخلاق، والأعمال، والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحًا حقيقيًا إلا بالدين الحق الذي

جاء به محمد ﷺ.

وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد ﷺ لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله، وفروعه، وجميع ما يهدي، ويرشد إليه كانت أحوالهم في غاية الاستقامة، والصلاح، ولما انحرفوا عنه، وتركوا كثيرًا من هداياه، ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية، انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم.

وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة، والحضارة، والمدنية مبلغًا هائلًا، ولكن لما كانت خالية من روح الدين، ورحمته، وعدله كان ضررها أعظم من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، وعجز علمائها، وحكمائها، وساساتها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدرُوا على ذلك ما داموا على حالهم، ولهذا كانت من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين، والقرآن أكبر البراهين على صدقه، وصدق ما جاء به لكونه محكمًا كاملاً لا يحصل إلا به، وبالجمل، فالحكيم متعلقاته المخلوقات، والشرائع، وكلها في غاية الإحكام فهو الحكيم في أحكامه القدريّة، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية». (١)

(١) الحق الواضح المبين ص ٥١، ٥٢. وإن مما يدخل أيضًا في أمره: الأمر الكوني القدري وهو ما يقدره سبحانه على خلقه من الحوادث والغير، فإن الله تعالى حكمته البالغة في كل ما يقتضيه ويقدره، سواء ظهرت هذه الحكمة أم خفيت، وأنبياء الله أعلم بهذا من غيرهم ولذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

❁ من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الحكيم):

مرّ سابقاً أن اسمه سبحانه (الحكيم) تظهر آثاره الجليلة في:

١ - خلقه وصنعه في الآفاق والأنفس.

٢ - وفي أمره الديني الشرعي.

٣ - وفي أمره الكوني القدري.

وهذه الآثار العظيمة التي لا تعد ولا تحصى ينبغي أن تنعكس على إيمان العبد في قلبه وسلوكه وحياته وأن يتعبد لربه بها، ومن أهم هذه الثمار العظيمة ما يلي:

أولاً: أن شهود آثار حكمته سبحانه في خلقه وإتقانه لصنعه تثمر في القلب:

أ- محبة عظيمة لله - ﷻ - وذلك لما يشاهده العبد من الحكمة البالغة والخلق البديع والصنعة المتقنة التي تكفل للإنسان، الحياة الطيبة السعيدة، والتي تنشأ من هذه النعم العظيمة في خلق الإنسان وفي هذا النظام البديع الدقيق في خلق هذا الكون الفسيح الذي سخره الله - ﷻ - للإنسان ليعمره بطاعة الله تعالى وعبادته.

ب- كما أن هذا الشهود يثمر في القلب تعظيم الله تعالى والخوف منه سبحانه والحياء منه، والتأدب معه، وذلك بإخلاص العبادة له سبحانه والتماس مرضاته، وتجنب مساخطه.

ثانياً: وفي شهود آثار حكمته سبحانه في أمره الديني الشرعي وأحكامه

الشرعية التي شرعها لمصالح عباده في الدارين ثمار عظيمة تظهر آثارها في قلب المؤمن وحياته كلها ومن ذلك:

أ- محبة الله - ﷻ - المحبة العظيمة، حيث أنزل هذه الأحكام العظيمة التي تظهر فيها حكمته سبحانه المتمثلة في هذه المصالح الكبرى والخير العظيم الذي احتوته هذه الشريعة التي تحفظ للإنسان دينه، ونفسه، وعقله، وماله، وعرضه، وتكفل له الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

ب- شعور الغبطة والسرور بالهداية لهذه الشريعة العظيمة التي هي من لدن الحكيم الخبير، تنزيل من حكيم حميد، والسعي الحثيث لشكر الله تعالى عليها، والمحافظة عليها، وتجنب أسباب زوالها، والسعي لنشرها بين الناس.

ج- الإذعان لأحكامه سبحانه الدينية وأوامره الشرعية، والاستسلام التام لها وألا يكون في القلب منها أدنى ريبة ولا حرج، قال الله - ﷻ -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝﴾ [النساء: ٦٥].

وهذا الإذعان لأحكام الله تعالى الشرعية واجب وفرض متعين على الفرد، والمجتمع، والدولة، وذلك بأن يكون الحكم والتحاكم إلى شرع الله وحده، ورفض ما سواه. فمن لم يرى الكفاية في شرع الله تعالى فأعرض عنه

أو بدله بغيره ولو في بعضه فإن هذا العمل مناقض للإيمان باسمه سبحانه (الحكيم) فضلاً عن أنه شرك في الطاعة والاتباع، بل شرك في توحيد الربوبية والذي من خصائصها السيادة، والحكم، والتشريع، وكلها حق لله تعالى لا يجوز صرفها لغيره سبحانه.

- وعن الاستسلام لشرع الله تعالى وأوامره ونواهيه يقول الإمام ابن القيم رحمته الله تعالى: «إن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت نبيها، وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها. بل انقادت، وسلمت، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها، وإيمانها، واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها. وكان رسولها أعظم في صدورهم من سؤالها عن ذلك كما في الإنجيل: «يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا، ولكن قولوا: بم أمر ربنا»؛ ولهذا كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً، ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها لم أمر الله بذلك؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مصاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، وذلك يوجب تعظيم الرب تعالى وأمره ونهيه، فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه، ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيم الأمر دليل على تعظيم الأمر، وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به،

ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورًا به، بحيث يتوقف الإنسان على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فهذا من عدم عظمته في صدره، بل يسلم لأمر الله وحكمته، ممثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر، أوفقها العقل، كانت زيادة في البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته لم يوهن ذلك انقياده، ولم يقدح في امتثاله، فالمعظم لأمر الله يجري الأوامر والنواهي على ما جاءت لا يعللها بعلل توهنها وتخدش في وجه حسناتها فضلاً عن أن يعارضها بعلل تقتضي خلافها، فهذا حال ورثة إبليس. والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء». (١)

ثالثاً: وفي شهود آثار حكمته سبحانه في أقداره ثمار عظيمة في القلب والسلوك منها الرضا بقضاء الله تعالى وقدره، والإيمان بأن ما يقضيه الله - ﷻ - من أحكامه الكونية القدرية فيها الحكمة البالغة، وفيها الصلاح والخير، إما في الحال أو المآل مما نعلمه وما لا نعلمه مما يعود إلى كمال علمه وحكمته، ولو ظهر فيها شيء مما تكرهه النفوس وتتألم منه مما يقدره الله سبحانه، ففيه الخير والصلاح للناس، ولو لم يظهر للبشر هذه الخيرية؛ فلا بد من الإيمان بأن الله - ﷻ - له الحكمة البالغة فيما يقدر، وهذا مما يقتضيه اسم الله (الحكيم).

يقول صاحب الظلال: «إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرًا، ووراء المحبوب شرًا، إن العليم بالغايات البعيدة المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده، حيث لا يعلم الناس شيئًا» (١) اهـ.

والمقصود: أن الإيمان بأن الله سبحانه حكيم في قضائه وقدره؛ يثمر في قلب المسلم الاستسلام والرضا بما يقدره الله - ﷻ - من الأحكام الكونية القدرية، من مصائب وأمراض وغيرها، مما لا يستطيع دفعه بالأسباب الشرعية، أما ما يمكن دفعه ومنازعته بقدر آخر من أقدار الله - ﷻ - فإن هذا لا يعارض الإيمان بالقدر.

فالإيمان بعلم الله - ﷻ - وكتابته لجميع المقادير قبل وقوعها، ثم الإيمان بأنه سبحانه حكيم فيما يفعل ويقضي ويقدر، كل هذا يثبت الروح والطمأنينة ويسكبها في قلب المسلم المخبت لربه، المطمئن لقضائه وقدره، الموقن بأن كل ما يكتبه الله - ﷻ - عليه من مصائب وغيرها فهي خير له إما عاجلاً أو آجلاً، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكما قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». (٢)

ولقد كان أنبياء الله - ﷻ - يدركون ما في أسماء الله - ﷻ - من

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٣.

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٩٩).

العبوديات وما يلزم عليها من الرضا والتسليم والطمأنينة لقضاء الله وقدره.

فهذا نبي الله يعقوب - عليه الصلاة والسلام - عندما جاءه الخبر بحجز ابنه الثاني عند عزيز مصر - وقد سبق ذلك فقده ليوسف - عليه السلام - توجه برجائه ودعائه لله ﷻ.

قال تعالى يحكي حاله: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣].

وكذلك الحال ليوسف - عليه السلام - عندما جمعه الله بأبويه، حيث قال: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومن خلال التأمل للآيتين السابقتين نلاحظ أن يعقوب وابنه - عليهما الصلاة والسلام - قد ختما تضرعهما لله - ﷻ - بعد المصائب التي حلت بهما بهذين الاسمين العظيمين (العليم الحكيم).

واختيار هذين الاسمين الجليلين في هذا المقام له دلالة ومغزاه؛ فأعرف الناس بالله - ﷻ - هم أنبيأؤه ورسله، ولقد ختما تضرعهما إلى الله - ﷻ - باسم (العليم الحكيم)، وذلك - والله أعلم - لما يثبه هذان الاسمان الكريمان في قلب المسلم من الرضا والطمأنينة والتسليم لقدر الله - ﷻ -، وأن شيئاً في هذا الكون لا يحدث إلا بعلم الله - ﷻ - وحكمته البالغة.

والمقصود أن ظهور آثار حكمته سبحانه في قضائه وقدره، والإيمان الجازم بأن له سبحانه الحكمة البالغة بما ظهر أو لم يظهر لنا من الحكمة كل

ذلك يثمر الطمأنينة، والسعادة، والروح فيما يصيب المسلم من مصائب ومكروهات، كما يثمر راحة القلب من الهموم والحسد، والحد الذي هي في حقيقتها معارضة لأحكام الله القدرية، وارتياح في حكمة الله تعالى البالغة.

رابعاً: سؤال الله - ﷻ - الحكمة لأنه سبحانه هو مالکها ومسديها مع بذل الأسباب في تحصيلها بالعلم النافع، والعمل الصالح، قال الله سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى - عند هذه الآية: «والحكمة هي: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي:

وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وهم: أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه، وهذان الأمران، وهما: بذل النفقات المالية، وبذل

الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» (١). (٢)



(١) البخاري: (٧٣)، مسلم: (٨١٦).

(٢) تفسير السعدي: ١ / ٢١٤.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ



هذه رسالة ربانية يخاطبنا فيها ربنا بقوله تعالى: ﴿اعْلَمْ﴾ (١) أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وَيُعَلِّمُنَا فِيهَا رَبُّنَا بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَلَا يَعْجِزُهُ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ.

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوف مع هذه الرسالة الربانية. وهذه الرسالة سنتكلم فيها حول هذه الأسماء الحسنی: القادر، القدير، المقتدر.

القادر، القدير، المقتدر

ورد اسمه سبحانه (القادر) في القرآن الكريم (اثنتي عشرة مرة) (سبع) منها بصيغة المفرد كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ

(١) الرسالة التي معنا بفعل الأمر اعلم قرأ بها حمزة والكسائي وهي قراءة سبعة متواترة قال الشاطبي:

وبالوصل قال اعلم مع الجزم شافع... فصرهن ضم الصاد بالكسر فصلا

وقال الشيخ القاضي في شرحه: قرأ حمزة والكسائي ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، قَالَ أَعْلَمْ﴾ بوصل الهمزة أي: بهمزة وصل تثبت في الابتداء وتحذف في الدرج ويجزم الميم، فإذا وقفا على قال ابتداء بهمزة مكسورة وعلى هذه القراءة يكون (اعلم) فعل أمر مبنياً على السكون. الوافي في شرح الشاطبية (ص: ٢٢٣).

عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيَاقًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴿٦٥﴾
[الأنعام: ٦٥].

(وخمسة) منها بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ
لَقَدَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [المؤمنون: ١٨].

وأما اسمه سبحانه (القدير) فقد ورد في القرآن الكريم (خمسة وأربعين
مرة) منها قوله تبارك وتعالى: ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وأما اسمه سبحانه (المقتدر) فقد ورد في القرآن (أربع مرات) واحدة
منها بصيغة الجمع كما في قوله ﷻ: ﴿فَأَنَّا عَلَيْهِمُ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [الزخرف:
٤٢]، وثلاث بصيغة المفرد كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ ﴿٤٢﴾ [القمر: ٤٢].

❖ المعنى اللغوي لهذه الأسماء:

﴿قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (القادر، والمقتدر، والقدير)
ف(القادر) اسم الفاعل من قدر يقدر، و(القدير) فعيل منه وهو للمبالغة،
و(المقتدر) مفتعل من اقتدر وهو أبلغ»﴾. (١)

﴿وقال الأزهري: «وقال الليث: القدرة مصدر قدر على الشيء قدرة،

أي: ملكه فهو قادر قدير». (١)

❁ معنى هذه الأسماء في حق الله تعالى:

﴿ قال الخطابي رحمه الله تعالى: «(القادر): هو من القدرة على الشيء، يقال: قدر يقدر قدرة فهو قادر وقدير، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، ووصف الله سبحانه نفسه بأنه قادر على كل شيء أراده لا يعترضه عجز ولا فتور». (٢)

﴿ ويقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«وهو القدير وليس يعجزه إذا... ما رام شيئاً قط ذو سلطان» (٣)

﴿ وقال في موطن آخر من النونية:

«وهو القدير فكل شيء فهو... مقدور له طوعاً بلا عصيان» (٤)

❁ من أثار الإيمان بأسمائه الحسنی (القدير، القادر، المقتدر):

أولاً: صدق التوكل على الله - عز وجل - والتعلق به وحده والثقة في كفايته في قضاء الحوائج وتفريج الكربات ؛ لأنه وحده القادر على كل شيء ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

أما المخلوق الضعيف مهما أوتي من القوة والقدرة والملك فكل ذلك محدود وهو موصوف بالعجز والقصور، والموت والفناء قال الله تعالى:

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٢٢.

(٢) شأن الدعاء، ص ٨٦.

(٣) النونية ٢/ ٢١٨.

(٤) النونية: البيت رقم (٥٣٠).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

ثانيًا: الثقة في رحمة الله تعالى وحكمته ولطفه، وذلك إذا رأينا المصائب الفردية أو الكوارث الجماعية وتسلب الأعداء على المسلمين إيماننا بقدرة الله - ﷻ - وقهره لكل شيء، وأنه سبحانه قادر على أن يرفع المصائب ويكبت ويقصم الكفرة ثم لا نراه سبحانه يفعل ذلك في وقت من الأوقات فإن هذا يجعلنا نوقن بأن الله تعالى الحكمة في ابتلاء المؤمنين والإملاء للكافرين، وأن في أعطاف ذلك اللطف والرحمة والمصلحة، كما أن في إيماننا بقدرة الله - ﷻ - المطلقة التي لا يعجزها شيء باب إلى العزة وقوة القلب أمام كيد الكافرين ومكرهم. وذلك لأنهم في قبضة الله تعالى وتحت قدرته وقهره فحينئذ يذهب الخوف من القلوب ويستهان بالكفار وقوتهم مع الأخذ بالأسباب الشرعية والمادية التي جعلها الله سببًا في تأييده للمؤمنين، وسببًا في محق الكافرين وهذا الشعور كفيف بدفع اليأس والإحباط عن النفوس، كما هو سبب في عدم الاكتراث والهلوع من قوة الكافرين.

ثالثًا: الابتعاد عن الظلم بشتى صوره وبخاصة ظلم العباد في دمائهم وأموالهم لهم وأعراضهم؛ لأن الإيمان بقدرة الله تعالى وانتقامه للمظلومين من الظالمين يجعل العبد يرتدع عن الظلم والعدوان، وما أحسن قول القائل: (إذا قدرت على الناس، فتذكر قدرة الله عليك، واعلم أن الله عليك أقدر،

وأنه لا مفر لك منه سبحانه). (١)

رابعاً: الإيمان بأن ما أودع الله ﷻ من القدرة والقوة في الإنسان إنما هي من الله ﷻ وإنعامه وفضله، وهذا الشعور يدفع المسلم إلى أن يسخر ما أودع الله فيه من هذه القدرة في طاعة الله ﷻ وفي طريق الخير والإصلاح، ويحذر من توجيه ذلك في معصية الله تعالى وطريق الشر والإفساد.

خامساً: على المؤمن بقدرة الله ﷻ أن لا يغتر بقدرته وقوته، وأن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى فيما ينوبه، وأن يتبرأ من الحول والقوة إلا بالله تعالى، ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى أن نقول في أذكارنا: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (٢)، وعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها ومما ورد فيها: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ...» (٣) وأن نقول حين نصبح وحين نمسي: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ». (٤)



(١) كلمات في مناسبات (ص: ٤٠).

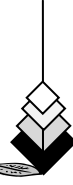
(٢) مسلم: (٤٨٧٥).

(٣) البخاري: (٦٣٨٢).

(٤) النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٧٠)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٣٤٥ (٦٥٤).

المبحث الرابع

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ



الرسالة التي معنا تحدثنا عن علم الله، ولهذا سأتكلم عن الأسماء الثلاثة التي تتعلق بعلم الله تعالى العليم، العالم، علام الغيوب.

ورد اسم (العالم) ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم أضيف في عشر منها إلى الغيب والشهادة، وأضيف في ثلاث منها إلى الغيب وحده.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ [التوبة: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٦١﴾ [الجن: ٢٦].

كما ورد هذا الاسم مرتين في صورة الجمع:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [الأنبياء: ٨١].

أما اسم الله (العليم) فقد ورد في القرآن الكريم مائة وسبعاً وخمسين مرة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ [المائدة: ٩٧]

وأما اسمه سبحانه (علام الغيوب) فقد ورد أربع مرات منها قوله تعالى:

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) [سبأ: ٤٨].

✽ المعنى اللغوي لهذه الأسماء:

(العليم والعالم) اسمان متضمنان صفة العلم، (فالعالم): اسم الفاعل من علم يعلم فهو عالم، والعليم من أبنية المبالغة في الوصف بالعلم، وهو بمنزلة قدير من القادر.

والعلام بمنزلة عليم في المبالغة في الوصف بالعلم إلا أن علامًا يتعدى إلى مفعول، وبناء فعال بناء تكثير وزيادة. (١)

✽ معناه في حق الله تعالى:

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]: «إنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقك». (٢)

وقال: «إن الله ذو علم بكل ما أخفته صدور خلقه من إيمان وكفر، وحق وباطل، وخير وشر، وما تستجنه مما لم تجنه بعد».

(١) انظر الزجاجي ص ٥٠.

(٣) تفسير الطبري ١/ ١٧٥، ١١/ ١٢٧.

﴿ وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدًا ... وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان ... كيف يكون ذاك الأمر ذا إمكان (١)
«وبراهين علمه - تعالى - مشاهدة في خلقة وشرعه، ومعلوم عند كل
عاقِل أن الخلق يستلزم الإرادة، ولا بد للإرادة من علم بالمراد». (٢)

❖ ذكر بعض متعلقات علم الله ﷻ في خلقه سبحانه وأمره:

أولاً: شمول علم الله ﷻ لكل شيء في السماوات وفي الأرض قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) [الطلاق: ١٢]، وقال الله ﷻ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

ثانيًا: علمه الشامل لكل ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ثالثًا: علمه المحيط واختصاصه بمفاتيح الغيب، وبما يحدث من صغير

(١) نونية ابن القيم ٢/ ٢١٥، الأبيات (٣٢٣٤ - ٣٢٣٧).

(٢) صفات الله الواردة في الكتاب والسنة: ١٨٥.

أو كبير في البر والبحر، قال الله - ﷻ -: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

رابعاً: علمه المحيط بمكنونات القلوب، وما تخفيه الصدور، وما توسوس به النفوس، قال الله - ﷻ -: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالِئِيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال - ﷻ -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ومن ذلك علمه سبحانه بكل ما يقوله العباد ويعلمونه سرا وعلانية في ليل أو نهار، فرادى أو جماعات، قال الله - ﷻ -: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

خامساً: علمه الشامل بما في الأرحام لكل أنثى، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

سادسًا: علمه سبحانه لكل الأشياء قبل وقوعها وأن ذلك في كتاب، وله الحكمة البالغة في تقديرها، قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

سابعًا: علمه سبحانه لأحوال عباده تقيهم من فاجرهم، وغنيهم من فقيرهم، وغير ذلك من الفوارق، وذلك قبل أن يخلقهم ويكلفهم، وأن توفيقه لمن يشاء وخذلانه لمن يشاء إنما يكون عن علم بأحوال عباده وعن حكمة بالغة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال عن أصحاب محمد ﷺ: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

ثامنًا: علمه المحيط الدقيق لكل مناجاة بين اثنين فأكثر مهما أسروا النجوى، قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنْثَنُّ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

تاسعًا: علمه الشامل لما ينزل من الشرائع على رسله وأنه سبحانه أعلم بما ينزل، وأعلم بما يصلح لعباده، وينتهي بهم إلى السعادة والخير في

الدارين، قال الله - ﷻ -: ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال سبحانه: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وكثير من آيات الأحكام يختمها الله - ﷻ - بقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٣٦ ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١ ﴾ [النساء: ١١]، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٩٢ ﴾ [النساء: ٩٢] ليخبرنا الله - ﷻ - أنه إنما يشرع بعلم وحكمة. يقول الله - ﷻ -: ﴿ لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

عاشراً: هذا العلم الذي يعلمه الإنسان المحدود من علوم الدين والدنيا إنما هو من تعليم الله تعالى له واختصاصه له بالعقل، وقابليته التعلم، وإلا فالإنسان كما قال عنه خالقه - ﷻ -: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، وهذا العلم الذي عند الإنسان مهما كثر وتفرع، فإنه لا يساوي شيئاً البتة عند علم الله تعالى. وما أحسن ما وصف به الخضر - عليه السلام - علم الإنسان بالنسبة إلى علم خالقه ﷻ، حينما قال لموسى - عليه السلام - وهو يرى طائراً ينقر في البحر ليأخذ من مائه فقال ﷻ: [يَا مُوسَى: إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ - وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا

أَعْلَمُهُ..... يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا
نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ]. (١)

يقول الخطابي رحمه الله: «والأدميون - وإن كانوا يوصفون بالعلم - فإن
ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم
في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب
ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالماً بالفقه غير عالم بالنحو، وعالماً
بهما غير عالم بالحساب والطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله سبحانه علم
حقيقة وكمال: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [١٢]، ﴿وَأَخَصَّ كُلَّ شَيْءٍ
عَدَدًا﴾ [٢٨] [الجن: ٢٨]

حادى عشر: اختص الله ﷻ نفسه سبحانه بعلوم الغيب، قال سبحانه:
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وذكر منها خمسة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ
الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال الألوسي رحمه الله: «وما في الإخبار يحمل على بيان البعض المهم
لا على دعوى الحصر، إذ لا شبهة في أن ما عدا الخمس من المغيبات لا

(١) رواه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

يعلمه إلا الله تعالى». (١) فعلم الغيب لا شك أنه أعظم وأوسع من أن يحصر في هذه الخمس فقط.

ومن زعم أن أحدًا يعلم الغيب غير الله سبحانه فقد كفر بالآيات السابقة.
عن عائشة رضي الله عنها قالت: ومن زعم أنه - تعني النبي صلى الله عليه وسلم - يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. (٢)

ثاني عشر: إن الله سبحانه لكمال علمه، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، لو كان كيف يكون، أي: أنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمر المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لن تقع لو فرض أنها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى وهو يوصي من يخاصم القدرية بقوله: حجّوهم بالعلم؛ أي: أسألوهم: هل الله - عز وجل - علم بالأشياء

(١) روح المعاني ٧/ ١٧١.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم (١٧٧).

قبل وقوعها؟ فإن أقروا خصموا، وإن نفوا العلم كفروا.

وأشنع من القدرية أولئك الفلاسفة الذين نفوا علم الله تعالى بالجزئيات وقالوا: أنه يعلم الأشياء على وجه كلي لا جزئي. وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» فليرجع إليه وممن رد عليهم بالقرآن تلميذه ابن القيم - رحمه الله تعالى - حيث قال: «إن (الحمد لله) - يعني الفاتحة - تتضمن الرد على منكري علمه تعالى بالجزئيات وذلك من وجوه:

أحدها: كمال حمده وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئاً من العالم وأحواله وتفصيله...

الثاني: أن هذا مستحيل أن يكون إلهاً وأن يكون رباً، فلا بد للإله المعبود المدبر من أن يعلم عابده ويعلم حاله.

الثالث: من إثبات رحمته، فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم.

الرابع: إثبات ملكه، فإن ملكاً لا يعرف أحداً من رعيته البتة ولا شيئاً من أحوال مملكته البتة ليس بملك بوجه من الوجوه.

الخامس: كونه مستعاناً.

السادس: كونه مسؤولاً أن يهدي سائله ويحييه.

السابع: كونه هادياً.

الثامن: كونه منعماً.

التاسع: كونه غضباناً على من خالفه.

العاشر: كونه مجازياً يدين الناس بأعمالهم يوم الدين ففي نفي علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله. (١)

• من آثار الإيمان باسمه سبحانه (العليم):

أولاً: الخوف من الله - ﷻ - وخشيته، ومراقبته في السر والعلن، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله - ﷻ - ظاهراً وباطناً، فتزكوا أعمال قلبه وجوارحه ويصل إلى مرتبة الإحسان الذي قال عنه النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (٢). (٣)

ثانياً: اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض، وللبواطن والظواهر، يشمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله - ﷻ - كافة الرياء، والحسد، والغل، والعجب، والكبر، وآفات الخواطر الرديئة والوساوس الشيطانية حتى يصبح القلب سليماً من كل شبهة تعارض خبر الله تعالى وخبر رسول الله ﷺ، ومن كل شهوة تعارض أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وسليماً من كل غش أو إرادة سوء بأحد من المسلمين.

(١) مدارج السالكين ١/ ٦٧.

(٢) صحيح مسلم: (٨).

(٣) طريق الهجرتين ١/ ٢٧٥.

﴿يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإن قلت: فما السبيل إلى حفظ الخواطر قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إثارك له أن تساكُن قلبك غير محبته...» (١).

ويعرف القلب السليم بقوله: «وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به، فيسلم من الشبه المعارضة لخبره، والإرادات المعارضة لأمره، بل ينقاد للخبر تصديقاً واستيقاناً وللطلب إذعاناً وامثالاً» (٢).

ثالثاً: إن اليقين بعلم الله تعالى للأمور قبل وقوعها وكتابتها عنده سبحانه في اللوح المحفوظ قبل خلقها، يثمر في قلب العبد طمأنينة إزاء ما يقضيه الله تعالى من الأحكام القدريّة كالمصائب، والمكروهات التي لم تحدث إلا بعلم الله تعالى وحكمته وأنها ليست عبثاً ولعباً.

(١) طريق الهجرتين ١/ ٢٧٥.

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٤٨٧.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، ولذا نجد أنبياء الله - ﷺ - يذكرون هذا الاسم مع اسمه الحكيم كعزاء لهم في ما يواجههم من مصائب وآلام، فهذا يعقوب - عليه السلام - يقول عند فقد أبنائه الثلاثة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، وعندما عاتب الله - ﷻ - نبيه نوحًا - عليه السلام - بسؤاله لابنه قال نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وفي الآيات التي يذكر الله تعالى فيها تفاوت أرزاق الناس بين فقر وغنى، نجد أن بعضها يختم بعلم الله تعالى قال الله - ﷻ -: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

كما يلاحظ أيضًا ذكر هذا الاسم الكريم فيما يقضيه سبحانه من الهدى، والضلال، والتوفيق، والخذلان، وأن ذلك كله كان ويكون بعلم الله تعالى الذي لا تحيط بعلمه العقول فيحصل حينئذ التسليم، والانقياد، والراحة، والاطمئنان، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال

سبحانه عن خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

رابعاً: التسليم لأحكام الله الشرعية، والرضى بها، والفرح والاعتباط بها حيث إنها من لدن عليم حكيم، عليم بما يصلح لعباده ويجلب لهم الخير والسعادة في الدارين فيأمرهم به، وعليم بما يجلب لعباده الشر والشقاء في الدارين فينهاهم عنه، ويحذرهم منه، فهو سبحانه أعلم بخلقه وما يصلح لهم من أنفسهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ولذا نجد كثيراً من آيات الأحكام تختم باسميه سبحانه (العليم، الحكيم). كقوله تعالى بعد أن ذكر أحكام المهاجرات من مكة إلى المدينة: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْحَكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَالِمُ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله تعالى بعد أن ذكر المحرمات من النساء في سورة النساء: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذا التسليم لأحكام الله الشرعية يقتضي الحكم بها، والتحاكم إليها،

وسلامة القلوب من الحرج منها، ورفض ما سواها من السياسات الجائرة، والأقيسة الفاسدة، والأذواق والمواجيد السامجة، والسعي بالدعوة والجهاد في سبيل الله تعالى لإقامتها حتى يكون الدين كله لله، وينعم الناس بشريعة الله - ﷻ - المبرأة من الجهل، والظلم، والهوى، والنقص لأنها من لدن حكيم عليم.

خامساً: إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله تعالى ويدفع اليأس والقنوط من القلب، لأن العبد إذا أيقن أن ربه سبحانه يعلم حاله ولا تخفى منه خافية في ليل أو نهار في بر أو بحر أو سماء، فإن ذلك يثمر في قلب المؤمن تعلقه بربه تعالى العالم بأحوال عبادته، فيتضرع بين يديه، ويوجه شكواه إليه، ويلقي بحاجته عند بابه. فإذا وافق هذا الانطراح والانكسار حسن ظن بالله تعالى وقوة اضطرار، لم تتخلف الإجابة، وجاءه الفرج من ربه العليم الحكيم، البر الرحيم.

سادساً: تثبيت المؤمنين في ميدان الصراع والنزال مع الباطل وأهله. فإذا قصر علم البشر عن العلم والإحاطة بكيد الكافرين ومكرهم فإن الله - ﷻ - لا تخفى عليه من أمورهم خافية، وهو من ورائهم محيط وعليهم قدير. وهذا الإيمان يجعل المؤمن في مواجهة الخصوم وكيدهم يطمئن قلبه، ويقوى ضعفه، ويقبل على مقارعة عدوه غير هباب ولا وجل.

قال الله - ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾

[النساء: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
 نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقوله
 سبحانه: ﴿ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس: ٧٦]،
 وقوله - ﷻ - عن المنافقين: ﴿ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾
 [الأنفال: ٦٠]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنآ لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ
 وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

سابعًا: الحرص على التزود من العلم النافع، والتواضع لله تعالى
 وللخلق بهذا العلم، وعدم التكبر والفخر به، وهذا إنما يتأتى باليقين بأنه لا
 علم من علوم الدين والدنيا إلا من الله - ﷻ -: ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا
 مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
 [النحل: ٧٨]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾
 [البقرة: ٢٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥]، واسمه
 سبحانه (العليم) يقتضي محبة الله تعالى للعلم والعلماء، كما قال الإمام ابن
 القيم رحمه الله تعالى: «إن الله سبحانه (عليم) يحب كل عليم، وإنما يضع علمه
 عند من يحبه فمن أحب العلم وأهله فقد أحب الله وذلك مما يبدان به» (١)،
 وقال أيضًا: «أحب الخلق إليه: من اتصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريم

يحب الكريم من عباده، عالم يحب العلماء» (١) والعلماء المقصودون هنا هم العلماء العاملون بعلمهم، الداعون إليه، الخائفون من الله، المتواضعون للحق وللخلق، أما من أدى به علمه إلى التكبر والفخر والمباهاة دون العمل والخشية، فليس بعالم ولا محبوب لله ﷻ.

ومما يعين العالم على التواضع يقينه أن ما أوتي من العلم إن هو إلا قطرة من بحر علم الله تعالى قال الله - ﷻ -: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ومر بنا قول الخضر لموسى - ﷺ - عندما رأى عصفورًا ينقر بمنقاره في البحر. (٢)



(١) الوابل الصيب ص ٥٣.

(٢) رواه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

المبحث الخامس

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

هذه رسالة ربانية يخاطبنا فيها ربنا بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وفي هذه الرسالة يُعَلِّمُنَا ربنا بأنه بصير بما يعمل به الناس.

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوِّف مع هذه الرسالة الربانية. وهذه الرسالة سنتكلم فيها حول اسم الله البصير.

البصير

ورد اسمه سبحانه (البصير) في القرآن الكريم اثنتين وأربعين مرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَعْبُدُ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

ورود اسم البصير في السنة الشريفة:

هذا الاسم أيضاً ورد في السنة الصحيحة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْجِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ

اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ». (١)

❁ المعنى اللغوي:

﴿ قال في اللسان: «البصر في الخلق: حاسة الرؤية، أو حس العين، والجمع أبصار، ورجل بصير: مُبْصِر، خلاف الضير وهو فاعل بمعنى مُفْعِل، أو هو فاعل بمعنى فاعل، وهو من أبنية المبالغة، ورجل بصير بالعلم: عالم به، والبصيرة: العلم والفتنة». (٢)

❁ المعنى في حق الله تعالى:

﴿ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٌ يَمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، والله ذو إِبْصَار بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاك، حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها. وأصل بصير: مبصر، من قول القائل: أبصرت فأنا مبصر، ولكن صرف إلى فاعل، كما صرف مسمع إلى سميع، وعذاب مؤلم إلى أليم، ومبدع السماوات إلى بديع وما أشبه ذلك». (٣)

﴿ وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«وهو البصير يرى ديب النملة... سوداء تحت الصخر والصوان

(١) صحيح البخاري: (٢٩٩٢).

(٢) لسان العرب ١/ ٢٩٠.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٣٤١.

ويرى مجاري القوت في أعضائها... ويرى عروق بياضها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها... ويرى كذلك تقلب الأجفان» (١)
ويقول أيضاً:

«وكذا بصير وهو ذو بصر وب... صر كل مرئي وذو الأكوان» (٢)
وفي ضوء الأقوال السابقة يظهر أن لاسمه سبحانه (البصير) معنيين:
الأول: أن له سبحانه بصراً يليق بعظمته يحيط بأقطار السماوات
والأرض ويرى به سبحانه جميع مخلوقاته دقيقتها وجليلها باطنها وظاهرها،
ولا يخفى عليه منهم شيء.

الثاني: أنه ذو البصيرة بالأشياء الخبير بها المطلع على بواطنها.

❁ من آثار الإيمان باسمه سبحانه (البصير):

أولاً: مراقبة الله (٣) - ﷻ - والخوف منه حيث لا تخفى عليه خافية في
ليل أو نهار، في سر أو إعلان، في خلوة أو اجتماع، في باطن الأرض أو ظاهرها
إن اليقين بهذا يثمر في قلب المؤمن خوفاً من الله - ﷻ - من أن يراه على
حال لا ترضيه، ويستحي من ربه سبحانه أن يراه على معصية.

(١) الكافية الشافية الآيات (٣٢٢٩ - ٣٢٢٣).

(٢) الكافية الشافية البيت رقم (٢٧٤٨) ص ٢١٠.

(٣) سيأتي التفصيل في هذا عند هذه الرسالة الربانية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ثانيًا: الإخلاص لله تعالى في جميع الأعمال، لأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهو سبحانه يرى عبده إذا قام لعبادته كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ ﴿٢١٨﴾ [الشعراء: ٢١٨]، وكما قال ﷺ في الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١)، ومن علم أن الله - ﷻ - يراه أحسن عمله وعبادته، وأخلص فيها لربه.

ثالثًا: الله تبارك وتعالى بصير بأحوال عباده، خير بها، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، ويقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿١٥﴾ [آل عمران: ١٥]: «أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الله لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وما ذلك إلا لحكمته ورحمته» (٢).

بصير بمن يصلح حاله بالغنَى والمال، وبمن يفسد حاله بذلك: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، وهو بصير بالعباد شهيد عليهم، الصالح منهم والطالح، المؤمن والكافر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۗ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦]، بصير خبير بأعمالهم وذنوبهم:

(١) صحيح مسلم: (٨).

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٤.

﴿وَكَفَىٰ رَبِّكَ يُذْنِبُ عِبَادَهُ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وسيجزئهم عليها أتم الجزاء.

رابعاً: إثبات صفة البصر له جل شأنه، إثباتاً يليق بجلاله وعظمته؛ لأنه وصف نفسه بذلك وهو أعلم بنفسه.

وصفة البصر من صفات الكمال كصفة السمع، فالمتصف بهما أكمل ممن لا يتصف بذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

وقد أنكر إبراهيم عليه السلام على أبيه عندما عبَدَ ما لا يُبصر ولا يسمع: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِتَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وقال تعالى موبخاً الكفار ومُسفهاً عقولهم لعبادتهم الأصنام التي هي من الحجارة الجامدة التي لا تتحرك، ولا تملك سمعاً ولا بصرًا: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

أي: أنتم أكمل من هذه الأصنام، لأنكم تسمعون وتبصرون فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها؟! (١)

(١) نقلاً عن النهج الأسْمَى، محمد الحمود النجدي ١/ ٢٣٧، ٢٣٨.

﴿ قَالَ الْأَصْبَهَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا (البصير) فهذا الاسم يقع مشتركا، فيقال: فلان بصير - والله المثل الأعلى - والرجل قد يكون صغيرا لا يُبصر ولا يميز بالبصر بين الأشياء المتشاكلة، فإذا عَقَلَ أَبْصَرَ فَمَيَّزَ بين الرديء والجيد، وبين الحسن والقبيح، يُعْطِيهِ اللَّهُ هَذَا مَدَّةً ثُمَّ يَسْلُبُهُ ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلُبُهُ وَهُوَ حَيٌّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلُبُهُ بِالمَوْتِ.

والله بصير لم يزل ولا يزول، والخلق إذا نظر إلى ما بين يديه عَمِيَ عما خلفه وعما بَعْدَ منه، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في خَفَيَّاتٍ مُظْلَمٍ الأرض، وكل ما ذَكَرَ مخلوقا به وصفه بالنكرة، فإذا وَصَفَ به رَبَّهُ وصفه بالمعرفة».

خامسا: إن الإيمان بأن الله - ﷻ - لا يخفى عن بصره شيء يضيفي على المؤمن الطمأنينة والصبر والاحتساب حين يناله من أعداء الله الأذى والابتلاء، وذلك لعلم العبد بأن الله - ﷻ - يرى ذلك ويعلمه وما حصل إلا بعلمه وحكمته ولو شاء الله - ﷻ - لانتقم من أعداء الله تعالى لأوليائه، ولكنه سبحانه حكيم ورحيم ولطيف بعباده حيث يسوق إليهم الخير والرحمة من حيث لا يشعرون، بل من حيث يكرهون.

قال الله - ﷻ - عن أصحاب الأخدود: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾ [البروج: ٨، ٩]، فهذه لمسة رحمة لقلوب المؤمنين، وتهديد ووعيد للكافرين، حيث لم يخف عليه أمرهم.



الْمَبْحَثُ السَّادِسُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

هذه الرسالة الربانية يُعَلِّمُنَا فِيهَا رَبُّنَا أَنَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوِّف مع هذه الرسالة الربانية، ولنا مع هذه الرسالة الربانية وقفتان:

الوقف الأولى: مع اسم الله الغفور.

والوقف الثانية: مع اسم الله الحليم.

اسم الله الغُفُور

الرسالة التي معنا تحدثنا عن مغفرة الله، ولهذا سأتكلم عن الأسماء الثلاثة المتعلقة بمغفرة الله تعالى وهي: الغفور، الغفار، غافر الذنب.

* ورد اسمه سبحانه (الغفور) في القرآن الكريم في إحدى وتسعين آية

جاء في أكثرها مقترناً باسمه سبحانه (الرحيم)، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ

اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥].

* وجاء مقترناً باسمه سبحانه (العفو) كما في قوله سبحانه: ﴿فَأُولَٰئِكَ

عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

* وجاء مقترناً باسمه سبحانه (العزیز) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿٢٨﴾ [فاطر: ٢٨].

* وجاء مقترناً باسمه سبحانه (الشكور)، كما في قوله سبحانه: ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

* وجاء مقترناً باسمه سبحانه (الودود) كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ﴿١٤﴾ [البروج: ١٤].

* وجاء مقترناً باسمه سبحانه (الحليم) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

* وأما اسمه سبحانه (الغفار) فقد ورد في القرآن الكريم في خمسة مواضع منها، قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

* وجاء (الغافر) مضافاً مرة واحدة في القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، وبعض أهل العلم لم يدرج اسمه (الغافر) من أسمائه سبحانه، لأنه جاء مضافاً ولذلك لم أدرجه هنا.

❁ المعنى اللغوي (للففور) و(الغفار):

«أصل الغفر التغطية والستر... تقول العرب: اصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه أي: أحمل له وأعطي له؛ وكذا غفر الشيب بالخضاب وأغفره أي: ستره؛ والمغفرة: التغطية، والمغفر: هو حلق يتقنع به المتسلح يقيه ويستره». (١)

❁ المعنى في حق الله ﷻ:

❏ قال الخطابي: «فالغفار الستار لذنوب عباده والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم». (٢)

❏ وقال الزجاج: «ومعنى الغفر في حق الله سبحانه هو الذي يستر ذنوب عباده ويغطيهم بستره». (٣)

❏ وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«وهو الغفور فلو أتى بقراها... من غير شرك بل من العصيان
لأتاه بالغفران ملء قراها... سبحانه هو واسع الغفران» (٤)

(١) انظر لسان العرب ٥/ ٣٢٧٣، ٣٢٧٤.

(٢) تفسير الأسماء ٣٨.

(٣) شأن الدعاء ص ٥٢.

(٤) النونية ٢/ ٢٣١ الآيات (٣٣٠٤، ٣٣٠٥).

❁ من أثار الإيمان بأسمائه سبحانه (الغفور، الغفار، غافر الذنب):

أولاً: محبة الله - ﷻ - وحمده وشكره على رحمته لعباده وغفرانه لذنوبهم، وهذا الأثر يثمر في قلب المؤمن توقي معاصي الله تعالى قدر الطاقة، وإذا زلت القدم ووقع المؤمن في الذنب (فإنه يتذكر اسمه سبحانه الغفور والغفار فيسري الرجاء في قلبه ويقطع الطريق على اليأس من رحمة الله تعالى ويحسن الظن بربه الذي يغفر الذنوب جميعاً).

ثانياً: فتح باب الرجاء والمغفرة للشاردين عن الله تعالى والمسرفين على أنفسهم بعظائم الذنوب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. (١)

ثالثاً: الإكثار من الأعمال الصالحة والحسنات لأنها من أسباب الحصول على مغفرة الله تعالى للسيئات السالفة؛ قال الله - ﷻ -: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكِّرِينَ﴾

(١) **وهنا تنبيه:** إن كلمة غفور رحيم لا تعني أن افعل ما تشاء والله غفور رحيم، ولكن تعني أنك إذا أذنبت وأدركت أنك أذنبت وندمت، واستغفرت، وأقلعت، وأصلحت فإن الله غفور رحيم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]. إذا المغفرة تعني أنك إذا طرقت باب الله، وخطبت وده، وتبت إليه، وأقلعت عن الذنب، وأصلحت ما كان مضى، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

[هود: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلِيَّ لَغْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ

﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢]. وقوله ﷺ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا». (١)

رابعاً: إن كونه سبحانه غفوراً وغفاراً للذنوب لا يعني أن يسرف المسلم في الخطايا والذنوب ويتجراً على معصية الله تعالى بحجة أن الله غفور رحيم، لأن المغفرة لا تكون إلا بشروطها وانتفاء موانعها، قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقال ﷺ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل: ١١].

✍ ويرد الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - على المتجربين على معاصي الله تعالى اعتماداً على مغفرة الله ورحمته فيقول مفرقاً بين حسن الظن بالله تعالى والغرة به: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين الفاسقين... فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه». (٢)

خامساً: سؤال الله - ﷻ - بهذا الاسم الكريم مغفرة الذنوب ووقاية شرها، لأنه سبحانه وحده الذي يملك غفران الذنوب، ولا يملك ذلك أحد سواه، وما أكثر الأحاديث التي تحت على أفضلية الاستغفار وما أكثر الأدعية النبوية التي فيها الاستغفار، ومن أشهرها سيد الاستغفار المذكور والذي

(١) سنن الترمذي: (١٩٨٧)، وانظر صحيح الترمذي رقم: (١٦١٨).

(٢) الجواب الكافي ص ١٥ (باختصار).

منه: (... وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) (١)، ولما سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرسول صلّى الله عليه وآله دعاء يدعو به في صلاته قال: قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم). (٢)

سادساً: مجاهدة النفس على التخلص بخلق الصفح عن الناس وستر أخطائهم وعوراتهم والاهتداء بهدي القرآن الكريم الذي يأمر بالعفو عن الناس ومقابلة السيئة بالحسنة.

قال سبحانه في وصف المتقين: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال عليه السلام: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال صلّى الله عليه وآله: (ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) (٣)، وهذا لمن يستحق العفو والستر، أما المجاهر الذي استمرأ الظلم والتعالي على الناس فهذا حقه الانتصار منه ومنعه من الظلم.

يقول ابن القيم رحمه الله - تعالى - في سرده لبعض الحكم في تخلية العبد بينه وبين الذنب «الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به». (٤)



(١) البخاري: (٥٨٣١).

(٢) البخاري: (٧٩٠)، مسلم: (٦٨٣٩).

(٣) البخاري: (٢٤٤٢).

(٤) طريق الهجرتين ص ١٦١.

اسم الله الحليم

ورد اسمه سبحانه (الحليم) في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة من ذلك قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

كما جاء ذكر اسمه سبحانه (الحليم) في دعائه ﷺ عند الكرب ومنه: (لا إله إلا الله العظيم الحليم...) الحديث. (١)

✽ المعنى اللغوي:

«الحلم بالكسر: الأناة والعقل، وجمعه أحلامٌ وحُلُومٌ، وأحلامُ القوم: حُلُمًاؤُهُم، ورجل حليمٌ من قومٍ أحلامٍ وحُلَمَاءَ. وَحَلُمٌ يَحْلُمُ حِلْمًا: صار حليماً، وَحَلُمَ عَنْهُ وَتَحَلَّمَ سَوَاءً، تَحَلَّمَ تَكَلَّفَ الحلم.

✽ معناه في حق الله تعالى:

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «(حليم) يعني أنه ذو أناة، لا يعجل على عباده بعقوبتهم على ذنوبهم». (٢)

وقال في موضع آخر: «حليماً عمّن أشرك وكفر به من خلقه، في تركه

(١) البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٣٢٧.

تعجيل عذابه له. (١)

﴿وقال الخطابى ﷺ تعالى: «هو ذو الصِّفحِ والأناة، الذي لا يَسْتَفْزُهُ غضبٌ، ولا يَسْتَخِفُّه جهلٌ جاهل، ولا عصيانٌ عاصٍ.﴾

ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم هو الصَّفُوحُ مع القدرة والمتأنى الذي لا يعجل بالعقوبة.

﴿وقد أوضح بعض الشعراء بيانَ هذا المعنى في قوله:

لا يدركُ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا

حتى يَذَلُّوا وإن عَزُّوا لأقوامٍ

ويشتموا فترى الألوان مسفرة

لا صفح ذل ولكن صفح أحلام (٢)

﴿ويقول ابن القيم - ﷺ تعالى - في نونيته:

«وهو الحليم فلا يعاجل عبده... بعقوبة ليتوب من عصيان». (٣)

﴿ويقول في موطن آخر:

«شهود حلم الله - سبحانه وتعالى - في إمهال راكب الخطيئة ولو شاء

لعاجله بالعقوبة ولكنه (الحليم) الذي لا يعجل فيحدث له ذلك معرفة ربه

(١) نفس المصدر السابق ٩٥ / ٢٢.

(٢) شأن الدعاء ص ٦٣ - ٦٤.

(٣) النونية ٢ / ٢٢٧.

سبحانه باسمه (الحليم) ومشاهدة صفة الحلم والتعبد بهذا الاسم». (١)

﴿ويقول أيضًا:﴾ «ولما كان اسم (الحليم) أدخل في الأوصاف، واسم (الصبور) في الأفعال، كان الحلم أصل الصبر وموقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور». (٢)

❁ من أثار الإيمان باسمه سبحانه (الحليم):

أولاً: محبة الله - ﷻ - والحياء منه، حيث إن حلمه العظيم اقتضى الصبر على عباده العصاة، وعدم الاستعجال في عقوبتهم لعلهم يستعتبون ويتوبون.

* فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ» (٣)، ومن هذا شأنه يحب الحب كله ويستحي منه حق الحياء، وهذا يثمر في القلب الأنس به سبحانه والمبادرة إلى طاعته وترك معاصيه.

ولو عاجل الله - ﷻ - العصاة بعذابه ولم يحلم عليهم لما بقي على وجه الأرض أحد.

* قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٠٦.

(٢) عدة الصابرين ص ٤٢٥.

(٣) رواه مسلم (٢٨٠٤).

يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ [النحل: ٦١].

* وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ أَلْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

﴿قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ﴾ عصاة بني آدم بمعاصيهم: ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ [النحل: ٦١] يعني: الأرض من دابة تدب عليها ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة، فلا يعاجلهم بالعقوبة: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١] يقول: إلى وقتهم الذي وقَّت لهم: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقَّت لهلاكهم ﴿لَا يَسْتَخْرِجُونَ﴾ عن الهلاك ﴿سَاعَةً﴾ فيمهلون، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قبله حتى يستوفوا آجالهم» اهـ. (١)

ثانياً: فتح باب الرجاء وعدم اليأس من رحمة الله تعالى والمبادرة إلى التوبة والإنابة عن الذنوب مهما عظمت ؛ لأنه سبحانه ما أَّخر العقوبة على الذنب إلا للإنابة والتوبة، ولذلك اقترن اسمه سبحانه (الحليم) باسمه سبحانه (الغفور) في أكثر من آية.

ثالثاً: الحذر من غضبه سبحانه لأن (الحليم) إذا غضب لم يقف لغضبه

شيء. وحلمه سبحانه صادر عن قوة وقدرة، والله - ﷻ - (الحليم) لا يغضب إلا على من لا يستحق الرحمة ولا يصلح في حقه الحلم، وذلك بعد أن يعطي المهلة والوقت الكافي، ليتوب ويهتدي فلم يستجب.

وقد ذكر الله - ﷻ - في كتابه الكريم ما فعله بأعدائه الكفرة عندما تمادوا في طغيانهم بعد أن حلم الله - ﷻ - عنهم وأمهلهم.

قال الله - ﷻ -: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقال: ﴿ كَذَابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال: ﴿ وَقَوْمٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ اَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَاَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا اَلِيمًا ﴾ [٢٧] وَعَادًا وَثُمُودًا وَاَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْاَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ اَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي اَمْطَرْتَ مَطَرًا سَوِيًّا اَفْكَلَمَ يَكُوْنُوْنَ يَكُوْنَهَا بَلْ كَانُوْا لَا يَرْجُوْنَ ذُشُوْرًا ﴿٤٠﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٤٠].

وقد يحلم الله - ﷻ - عن الكفار ويستأني بهم ويرزقهم ولا يأخذهم بعقوبة في الدنيا، لكنه سبحانه لا يتأني بهم في الآخرة ولا يصفح عنهم، بل تسوقهم ملائكة الرحمن إلى النار، فتحيط بهم، فلا يقبل رجاؤهم، ولا يخفف عذابهم: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [٦٨] ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ اُيُتْمًا اَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ اَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ اَوْلٰى بِهَا صِلٰىً ﴿٧٠﴾ وَاِنْ مِنْكُمْ اِلَّا وَاْرِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِيْنَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِيْنَ فِيْهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٢]،

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

رابعاً: ومن آثار حلمه سبحانه أنه لا يستجيب لاستعجال عباده بإنزال العقوبة بالكافرين، سواء كان ذلك من قبل المؤمنين في استعجالهم الفتح بينهم وبين القوم الكافرين أو كان ذلك من الكافرين الذين يستعجلون العذاب والله - ﷻ - يحلم عنهم ويؤخره عنهم.

قال الله - ﷻ - لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّى الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٨].

وقال له أيضاً: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال عن الكافرين: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

ومع ذلك فالله - ﷻ - يحلم عنهم ويتأنى بهم فتبارك الله العظيم الحليم الذي له الحمد في السماوات والأرض، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير.

خامساً: مجاهدة النفس بالتخلق بهذا الخلق الكريم ألا وهو صفة

(الحلم) ^(١)، فهو سبحانه (حليم) يحب من عباده العلماء، كريم يحب الكرماء.

وقد أثنى الله - ﷻ - على خليله ونبيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾ [٧٥] [هود: ٧٥].

وجعل من صفات نبيه إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - الحلم، وذلك بقوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [١٠١] [الصافات: ١٠١]، وكان لرسولنا ﷺ النصيب الأوفر من هذا الخلق العظيم وسيرته العطرة تشهد بذلك.

كما جاء في الأثر مدح صفة الحلم وأنه من الأخلاق التي يحبها الله - ﷻ - - حيث ثبت عنه ﷺ أنه قال لأشج عبد قيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاءُ». (٢)

والحلم الممدوح المحبوب لله - ﷻ - هو الحلم الناشئ عن القدرة، أما حلم العاجزين فليس بممدوح، وكذلك ينبغي أن لا يتكلف في الحلم حتى يصير ذلة ومهانة واستخفافاً من قبل السفهاء، ولا يفرط فيه حتى يصير طيشاً وجهلاً، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «والفرق بين العفو

(١) لقد كفكف الرسول ﷺ بمواقفه في الحلم وهي كثيرة من نزوات الجاهلية، وأقام أركان المجتمع على الفضل وحسن التخلق، ونبذ الجهل والغضب، وكثير من النصائح التي أسداها للناس كافة كانت تتجه إلى هذا الهدف، قال رسول الله ﷺ: سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ.

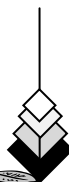
(٢) مسلم في الإيمان (١٨).

والذل أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل، فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالًا منه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ

﴿٣٩﴾ [الشورى: ٣٩]. (١)



الْمَبْحَثُ السَّابِعُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ



هذه رسالة ربانية يخاطبنا فيها ربنا بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وفي هذه الرسالة يُعَلِّمُنَا ربنا أنه سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوِّف مع هذه الرسالة الربانية، ولنا مع هذه الرسالة الربانية وقفتان:

الوقف الأولى: مع اسم الله السميع.

والوقف الثانية: مع اسم الله العليم. (١)

اسم الله السميع

ورد اسمه سبحانه (السميع) في القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة من ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) سبق الحديث عن اسم الله العليم عند هذه الرسالة الربانية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]. ولهذا سأكتفي بالحديث هنا عن اسم الله السميع.

❁ المعنى اللغوي:

﴿ قال في اللسان: «السمع للإنسان وغيره: حِسُّ الأذن أو ما وقر في الأذن من شيء تسمعه، ورجل سميع أي: سامع ورجل سَماع إذا كان كثير الاستماع لما يقال، وينطق كقوله تعالى: ﴿سَمْعُوتَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١].

والسميع على وزن فعيل من أبنية المبالغة» (١).

وتفسير صاحب «اللسان» هنا السمع بحس الأذن مختص بسمع أغلب المخلوقات. ولو فسّره بإدراك الصوت لكان أولى؛ لأنه لا يشترط في السمع الأذن، حتى في سمع المخلوق - كسمع الملائكة - وإثبات السمع لهم لا يستلزم إثبات الآذان.

﴿ وقال الزجاج: «ويجيء في كلامهم: سمع بمعنى أجاب» (٢).

❁ المعنى في حق الله تعالى:

لله تعالى سمع يليق بعظمته وجلاله من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تمثيل، ولا تكيف، يسمع به أقوال عباده وما ينطق به خلقه، سواء عند الجهر أو الخفوت.

﴿ يقول الطبري - رحمه الله تعالى - عند قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ

(١) اللسان ٣/ ٢٠٩٦، وانظر النهاية ٢/ ٤٠١.

(٢) تفسير الأسماء ص ٤٢.

أَلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ : «يقول جل ثناؤه واصفًا نفسه بما هو به (وهو) يعني نفسه: السميع لما تنطق به خلقه من قول». (١)

وقال الخطابي رحمه الله تعالى: «(السميع) بمعنى السامع إلا أنه أبلغ في الصفة وبنائه فعيل بناء المبالغة كقولهم: عليم من عالم، وقدير من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى سواء عند الجهر والخفوت والنطق والسكوت.

وقد يكون السماع بمعنى: القبول والإجابة؛ كقول النبي ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَوْلٍ لَا يَسْمَعُ) (٢)، أي: من دعاء لا يستجاب، ومن ذلك قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» معناه: قبل الله حمد من حمده». (٣)

فيكون من معاني السميع: المستجيب لعباده إذا توجهوا إليه بالدعاء وتضرعوا.

ومن ذلك قول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

«وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان

(١) تفسير الطبري ٩/٢٥.

(٢) أحمد ٣/١٩٢، وصححه الألباني.

(٣) شأن الدعاء ص ٩.

والسمع منه واسع الأصوات ... لا يخفى عليه بعيدها والداني» (١)
 ﴿وقال أيضًا:

«والحمد لله السميع لسائر ال... أصوات من سر ومن إعلان» (٢)
 ﴿ويقول أيضًا: ((السميع): الذي قد استوى في سمعه سر القول
 وجهره، وسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق، ولا تشبه
 عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع ولا تغلظه المسائل ولا يبرمه كثرة
 السائلين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت
 المجادلة تشكو إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وإني ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله
 - عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا
 إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]». (٣)

﴿ويقول الشيخ السعدي رحمته الله تعالى: «ومن أسمائه الحسنی السميع
 الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحالات، فالسر
 عنده علانية، والبعيد عنده قريب»». (٤)

(١) النونية ٢/ ٢١٥.

(٢) النونية البيت رقم (٤٩٨٣).

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٣٤، والحديث رواه البخاري تعليقاً ١٣/ ٢٧٣ وأحمد
 ٤٦/ ٦، والنسائي (٣٤٦٠).

(٤) توضيح الكافية الشافية ص ١١٨.

وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية وإحاطته التامة بها. (١)

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويشبهم (٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) [إبراهيم: ٣٩]، وقول المصلي: «سمع الله لمن حمده، أي: استجاب». (٣)

❁ من آثار الإيمان باسمه سبحانه (السميع):

أولاً: إثبات صفة السمع لله تعالى كما يليق بعظمته سبحانه وجلاله من غير تمثيل ولا تحريف ولا تكييف، خلافاً للمعطلة والنفاة، سواء منهم من نفى هذا الاسم لفظه ومعناه، أو من أثبت اللفظ ولم يثبت المعنى كالمفوضة

(١) الله ﷻ لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، ولقد كان يونس عليه السلام في بطن حوت، وفي ظلمة البحر، وظلمة الليل: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

(٢) نحن كبشر، أو كمؤمنين، يعيننا من اسم «السميع» أننا إذا دعوناه يسمعنا قال الله على لسان سيدنا زكريا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] فهذا الذي يعيننا من اسم «السميع». ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) [آل عمران: ٣٨]، وأهل التفسير يقولون: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) أي مجيب الدعاء.

(٣) الحق الواضح المبين ص ٣٥.

وأشباههم.

﴿ قال الأزهري رحمه الله: «والعجب من قوم فسّروا (السميع) بمعنى المُسمِع فرارًا من وصف الله بأن له سمعًا، وقد ذكر الله الفعل في غير موضع من كتابه، فهو سميع ذو سمع، بلا تكيف ولا تشبيه بالسميع من خلقه، ولا سمعه كسمع خلقه ونحن نصف الله بما وصف به نفسه بلا تحديد ولا تكيف». (١)﴾

﴿ وقد بَوَّب البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه في كتاب التوحيد: باب ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ١٣٤.﴾

﴿ قال ابن بطلال: «غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال إن معنى «سميع بصير»: عليم، قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتًا ولا يسمعها.﴾

ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر، فصح أن كونه سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم ولا فرق بين إثبات كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر. قال: وهذا قول أهل السُّنَّة قاطبة». اهـ. (٢)

(١) تهذيب اللغة ٢/ ١٢٤.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٧٢، ٣٧٣.

واشتراك المخلوق مع الخالق سبحانه في هذا الاسم لا يعني المشابهة، فإن صفات المخلوق تناسب ضعفه وعجزه وخلقه، وصفات الخالق - ﷻ - تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى.

ﷺ يقول أبو القاسم الأصبهاني - رحمه الله تعالى - موضحاً بعض الفروق بين سمع الله - ﷻ - وسمع المخلوق: «خلق الإنسان صغيراً لا يسمع، فإن سمع لا يعقل ما يسمع، فإذا عقل ميز بين المسموعات فأجاب عن الألفاظ بما يستحق، وميز الكلام المستحسن من المستقبح، ثم كان لسمعه مدى إذا جاوزه لم يسمع، ثم إن كلمه جماعة في وقت واحد عجز عن استماع كلامهم، وعن إدراك جوابهم.

والله - ﷻ - السميع لدعاء الخلق وألفاظهم عند تفرقهم واجتماعهم مع اختلاف ألسنتهم ولغاتهم، يعلم ما في قلب القائل قبل أن يقول، ويعجز القائل عن التعبير عن مراده فيعلم الله فيعطيه الذي في قلبه، والمخلوق يزول عنه السمع بالموت، والله تعالى لم يزل ولا يزال، يُفني الخلق ويرثهم فإذا لم يبق أحد قال: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، فلا يكون من يرد! فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. (١)

ثانياً: مراقبة الله - ﷻ - فيما يقوله اللسان، سواء أسر القول أو جهر به، وسواء كان ذلك في جماعة أو في خلوة، قال الله - ﷻ -: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]،

(١) نقلاً عن النهج الأسْمَى: ١/ ٢٣١.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وهذا الإيمان يثمر في القلب الخوف من الله - ﷻ - والمحافظة على اللسان من أن ينطق بما يسخط الله تعالى، فالله تعالى يسمع ذلك والملائكة تكتبه، ومن تعبد لله تعالى بهذا الاسم الكريم جنب لسانه الفحش من القول من سب، وسخرية، وغيبة، ونميمة، وبهتان، ولهو باطل أو نشر لباطل يضل به الناس.

* فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكَلَّمْتُ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ». (١)

* وعن ابن مسعود، قَالَ: «اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ، أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ، قَلِيلٌ فَقَهُ قُلُوبِهِمْ، كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ وَقَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ، إِنْ جَهَرْنَا، وَلَا يَسْمَعُ، إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ، إِذَا جَهَرْنَا، فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] الآية. (٢)

(١) الترمذي: (٢٦١٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢١١٠).

(٢) البخاري (٤٨١٧)، مسلم (٢٧٧٥).

ثالثاً: اللجوء إلى الله - ﷻ - وسؤاله (١) سبحانه من حاجات الدنيا والآخرة، فهو السميع لدعاء عباده سرهم ونجواهم، وهو السميع بمعنى (المجيب) لدعائهم والمفرج لكرباتهم، وهذا المعنى من معاني السميع يسكب في القلب الطمأنينة والأنس بالله تعالى وحسن الظن به سبحانه، والرجاء فيما عنده، وعدم الملل من دعائه، وعدم اليأس من كشف الشدائد وقضاء الحاجات، فهو سبحانه السميع لدعاء عباده، المجيب القريب منهم، وهذا يثمر صدق التوكل على الله سبحانه، والتعلق به وحده والرجاء فيما عنده.

وقد دعا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم أو ليستجيب دعاءهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

(١) دعاء الإنسان بينه وبين ربه من أقوى أنواع الأدعية فمن تذلل لله رفعه، ولكن أحياناً تكون في ظرف صعب، ولا تحتاج إلى أن تحرك شفيتك. بإمكانك أن تدعو الله وأنت مطبق شفيتك، وأنت ساكت، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] بل إن الله سبحانه وتعالى يحبك أن تدعوه سراً. ودعاء السر من أقوى أنواع الأدعية. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: ٥٥] يعني تذلاً، المؤمن عنده عزة، لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، ولكنه بين يدي الله ذليل، وكلما تذلل لله أعزه الله، كلما مرغ جبهته في أعتاب الله أعزه الله ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: ٥٥] يعني تذلاً. ﴿وَحُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. لأن الدعاء لا يحتاج إلى صوت عريض، ولا منمق، ولا موزون، ولا على القوافي، قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ». صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٦).

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿البقرة: ١٨٦﴾.

- فإبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - قالوا: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مَنَّا

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿البقرة: ١٢٧﴾، وهما يرفعان قواعد البيت الحرام.

- وقال سبحانه عن ثناء خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ

﴿إبراهيم: ٣٩﴾.

- وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصاً لله، لعبادته ولخدمة

بيت المقدس قالت: ﴿فَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿آل عمران: ٣٥﴾، ثم

أخبر تعالى أنه قبل منها ذلك: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا

حَسَنًا ﴿آل عمران: ٣٧﴾.

- ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

[آل عمران: ٣٨]، فاستجاب الله دعاءه.

- ودعا يوسف - عليه الصلاة والسلام - ربه أن يصرف عنه كيد

النسوة: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿يوسف: ٣٤﴾.

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن.

- قال تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ

عَلَيْهِمْ ﴿[الأعراف: ٢٠٠].

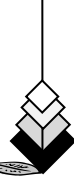
رابعاً: الصبر على ما يلاقه العبد من أذى الخلق وخاصة من الكافرين والمنافقين والفاسقين، سواء ما يقولونه من السب، والشتم، والبهتان، والظلم، والتهم الباطلة، لأن الله - ﷻ - يسمع كلامهم ولا يخفى عليه أمرهم؛ وسينصف سبحانه عباده المؤمنين منهم إن عاجلاً أو آجلاً، قال الله ﷻ لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن الأذى الذي تعرض له الرسول ﷺ وهو يعرض نفسه على القبائل والذي جاء فيه: (إن الله قد سمع قول قومك لك...) الحديث. (١)

والإيمان بهذا يثمر في القلب الصبر والرضى والطمأنينة والاستعانة به سبحانه، وانتظار فرجه ونصره، وعدم استبطاء ذلك، لأن الله سبحانه يسمع ويعلم، ولكنه يمهّل ولا يهمل.



(١) البخاري (٣٢٣١)، مسلم (١٧٩٥).

المبحث الثامن وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ



هذه رسالة ربانية يخاطبنا فيها ربنا بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وفي هذه الرسالة يُعَلِّمُنَا ربنا أنه غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوِّف مع هذه الرسالة الربانية.

- ولنا مع هذه الرسالة الربانية وقفتان:

الوقف الأولى: مع اسم الله الغني.

والوقف الثانية: مع اسم الله الحميد.

اسم الله الغني

ورد اسمه سبحانه (الغني) ثماني عشرة مرة في القرآن الكريم تارة مفردًا كما في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨]، وتارة مقرونًا باسمه سبحانه (الحميد) وهو أكثرها كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، ومرة مقرونًا باسمه سبحانه (الكريم) كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ

كريم ﴿٤٠﴾ [النمل: ٤٠]، ومرة مقروناً باسمه سبحانه (الحليم) كما في قوله سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

✽ المعنى اللغوي:

قال في اللسان: «في أسماء الله ﷻ: الغني، قال ابن الأثير: هو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء وكل أحد محتاج إليه، وهذا هو الغني المطلق...».

✽ المعنى في حق الله تعالى:

مضى قول ابن الأثير: «أن الغني من أسماء الله - ﷻ - وهو الذي لا يحتاج إلى أحد في شيء وكل أحد محتاج إليه». (١)

وقال الخطابي رحمه الله تعالى: «(الغني) هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون كما وصف نفسه تعالى فقال عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]». (٢)

وقال الطبري - رحمه الله تعالى - في قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، واعلموا أيها الناس أن الله - ﷻ - غني عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم

(١) لسان العرب ٥/ ٣٣٠٨، ٣٣٠٩.

(٢) شأن الدعاء ص ٩٢ - ٩٣.

ليغني بها عائلكم، ويقوي بها ضعيفكم ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم
لا من حاجة به منها إليكم». (١)

وقال ابن القيم رحمه الله في نونته:

«هو الغني بذاته فغناه ذا... تي له كالجود والإحسان» (٢)
وقال أيضًا: «هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه، وليس به
حاجة إلى أحد». (٣)

✽ من أثار الإيمان باسمه سبحانه (الغني):

أولاً: أفراد الله - ﷻ - بالعبادة لأنه سبحانه هو الغني المطلق، والغني
وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه، فالأمر كله له
والملك كله له، وجميع الخلق مربوبون مملوكون، فكيف يتخذ منهم معبودًا
مع الله تعالى؟ وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «الأمر كله لله
وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم
عنده: هم الرسل والملائكة المقربون - وهم عبيد محض: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ﴾
بِالْقَوْلِ ﴿[الأنبياء: ٢٧]، ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه
لهم وأمرهم؛ ولا سيمًا: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الأنفطار: ١٩]، فهم
مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه، فإذا أشرك بهم المشرك

(١) تفسير الطبري ٥٨/٣.

(٢) النونية ص ٢٣٩ البيت رقم ٣٢٠١.

(٣) شفاء العليل ٣٨٧/١.

واتخذهم شفعاء من دونه - ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدّموا وشفعوا له عند الله: فهو من أجهل الناس بحقّ الربّ سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محالٌ ممتنعٌ؛ شبيه قياس الربّ تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصّهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عبّدت الأصنام؛ واتّخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي.

والفرق بينهما: هو الفرق بين المخلوق والخالق؛ والربّ والمربوب؛ والسيد والعبد؛ والمالك والمملوك؛ والغنيّ والفقير؛ والذي لا حاجة به إلى أحدٍ قطّ، والمحتاج من كلّ وجهٍ إلى غيره...

فأما الغنيّ الذي غناه من لوازم ذاته؛ وكلّ ما سواه فقيرٌ إليه بذاته؛ وكلّ من في السماوات والأرض عبيدٌ له؛ مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعاً: لم ينقص من عزّه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]، وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ

مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [الزمر: ٤٤] . (١)

ثانيًا: الافتقار التام إلى الله - ﷻ - لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة له إلا بالله تعالى، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحد محتاج إليه.

والشعور بالافتقار إلى الله - ﷻ - يجعل العبد خائفًا راجيًا متوكلاً على ربه سبحانه في دفع الضرر، وجلب النفع، متبرئًا من الحول والقوة، متضرعًا إلى ربه سبحانه، وداعيًا له في كل حين بالهداية والحفظ والتوفيق، وأن لا يكله سبحانه إلى نفسه طرفة عين فيضيع ويهلك، وعن هذه المعاني يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «قال الله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿ [فاطر: ١٥]، بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتي له، فغنائه وحمده ثابت له لذاته لا لأمرٍ أوجبه، وفقره من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمرٍ أوجبه، فلا يُعَلَّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلّة أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمرٍ أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

وَالْفَقْرُ وَصْفٌ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَدًا... كَمَا الْغَنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
فَالْمَخْلُوقُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ إِلَى رَبِّهِ بِالذَّاتِ لَا بَعْلَةً، وَكُلُّ مَا يُذَكَّرُ وَيُتَرَكُّ مِنْ

أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا عِلْلٌ لذلك، إذ ما بالذات لا يُعلل، فالفقر بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يُذكر من إمكان وُحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له...

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غَنِيٌّ حَمِيدٌ فالفقر المطلق من كُلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابتٌ لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الربُّ سبحانه إلا غنيًا، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والرب إلا ربًا.

إذا عرف هذا فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروجَ لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًا، ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني: فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفيين:

أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عَرَفَ ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقُدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ولا يقدر على شيء،

ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوداً محسوساً لكل أحد، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئه وفاطره.

فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكّنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء والتَّحْيِلِ على مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظنّ المسكين أن له نصيباً من الملك! وادعى لنفسه مُلْكاً مع الله سبحانه! ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة! حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره.

كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قَالَ اللَّهُ: ابْنِ آدَمَ أَنِّي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي،

قُلْتُ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنْتَى أَوَّانُ الصَّدَقَةِ». (١)

ومن ها هنا خَذَلَ من خَذَلَ ووفَّق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وعَتَا فحَقَّت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». (٢)

وكان يدعو: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». (٣)، يَعْلَمُ ﷺ أن قلبه بيد الرحمن - عَزَّوَجَلَّ - لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَيْنَاكَ لَفَدِّدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته ﷺ إلى ربه، وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

- (١) مسند أحمد ٤/ ٢١٠، وابن ماجه ٢/ ٢٧٠٧، وانظر السلسلة الصحيحة (١١٤٣).
 (٢) البخاري في الأدب المفرد (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨).
 (٣) أحمد ٣/ ١١٢، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٧٩٢).

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه، وكان يقول لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ». (١)

وكان يقول: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطَرْتُ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ». (٢)، وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وفي حديث الشفاعة: إِنَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنْ أَتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ» (٣)، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته، وبكمال مغفرة الله له.

فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ (٤) وَاللَّهُ هُوَ

(١) مسند أحمد: (٢٠ / ٢٣) وقال محقق المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم.

(٢) البخاري: (٣٤٤٥).

(٣) البخاري (٧٤٤٠).

(٤) ولقد وضحت - بفضل من الله - وتوفيق قضية افتقارنا إلى الله تعالى وحاجتنا إليه تعالى في كتابي «بصائر قرآنية».

الْغِنَى الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ [فاطر: ١٥] باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته، وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه، ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام، وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له، كلٌّ أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير». (١)

ثالثاً: إن اسمه سبحانه (الغني) يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما جاء في الحديث: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» (٢)، وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس (٣)، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم، وإعانتهم، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفتنى خزائنه، فما أسعد من تعفف عن الناس واستغنى بربه سبحانه، قال ﷺ: «وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ». (٤)

(١) طريق الهجرتين ص ١٠ - ١٣.

(٢) البخاري (٦٤٤٦).

(٣) الاستغناء عن الناس يولد راحة نفسية وصدق القائل: احتج إلى الرجل تكن أسيره، واستغن عنه تكن نظيره، وأحسن إليه تكن أميره.

(٤) البخاري (٦٤٧٠).

اسم الله الحميد

ورد اسمه سبحانه (الحميد) في القرآن الكريم في سبع عشرة آية، جاء في بعضها مفردًا، كقوله تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، وجاء في أكثرها مقترنًا بأسماء أخرى من أسمائه سبحانه الحسنی كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

❖ المعنى اللغوي لـ (الحميد):

«الحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمده حمدًا ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، والمحمد الذي كثرت خصاله المحمودة. (١)»

❖ معناه في حق الله سبحانه وتعالى:

قال ابن جرير الطبري عند قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] «يعني بقوله: (حميد) أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله». (٢)

(١) انظر الصحاح ٢/ ٤٦٦، واللسان ٢/ ٩٨٧ مادة «حمد».

(٢) الطبري ٣/ ٥٨.

﴿وقال الزجاج:﴾ (الحميد) هو فعيل بمعنى مفعول. والله تعالى هو المحمود بكل لسان، وعلى كل حال كما يقال في الدعاء: الحمد لله الذي لا يحمد على الأحوال كلها سواه». (١)

﴿ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:﴾

«وهو الحميد فكل حمد واقع... أو كان مفروضاً مدى الأزمان ملاً الوجود جميعه ونظيره... من غير ما عد ولا حسابان هو أهله سبحانه وبحمده كل... المحامد وصف ذي الإحسان» (٢)

﴿ويبين ابن القيم - رحمه الله تعالى - أنه وإن كان (الحميد) فعيل من الحمد، وهو بمعنى المحمود إلا أن (الحميد) أبلغ من (المحمود).

﴿يقول رحمه الله تعالى:﴾ «وأما (الحميد) فلم يأت إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود، فإن فعلاً إذا عدل به عن مفعول: دل على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية والغريزة والخلق اللازم، كما إذا قلت: فلان ظريف وشريف وكريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فعل بوزن شرف، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجاي اللازمة، ككبر وصغر، وحسن ولطف ونحو ذلك.

ولهذا كان حبيباً أبلغ من محبوب، لأن الحبيب الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يحب لأجلها، فهو حبيب في نفسه؛ وإن قدر أن غيره

(١) تفسير الأسماء ص ٥٥.

(٢) نونية ابن القيم الأبيات (٣٢٣٨ - ٣٢٤٠)، ٢ / ٢١٥.

لا يحبه؛ لعدم شعوره به، أو لمانع منعه من حبه، وأما المحبوب فهو الذي تعلق به حبُّ المُحِبِّ؛ فصار محبوباً بحبِّ الغير له، وأما الحبيب فهو حبيبٌ بذاته وصفاته، تعلق به حبُّ الغير أو لم يتعلَّق.

وهكذا الحميد والمحمود، فالحميد: هو الذي له من الصفات، وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً؛ وإن لم يحمده غيره، فهو حميدٌ في نفسه، والمحمود من تعلَّق به حمد الحامدين». (١)

❖ الفرق بين الحمد والشكر:

فرق أهل العلم بينهما فقالوا: إن الشكر أعم من جهة أنواعه، فهو يكون باللسان والقلب والجوارح، وأخص من جهة متعلقاته فيكون على نعم قريبة تجد أو نقمة تندفع.

أما الحمد فهو أعم من جهة متعلقاته، فهو تناول النعم السابقة وغيرها، ويتضمن حمد الله تعالى على أسمائه وصفاته وأفعاله، كما أنه أخص من جهة أنواعه، فهو يقع بالقلب واللسان، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس». (٢)

والعبد يحمد الله - ﷻ - في السراء والضراء، لأن فعله سبحانه كله حكمة، وخير للعبد.

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ص ٤٤٧.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/ ٢٤٦.

* عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمَرَةَ فَوَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ». (١)

❁ فضل ذكر الله - ﷻ - (بالحمد) له سبحانه :

قول (الحمد لله) من أفضل الذكر لله تعالى وقد جاء في كثير من الأذكار والأدعية الصحيحة هذا الذكر العظيم الذي يحبه الله - ﷻ - ويثيب عليه الأجر الجزيل، بل جاء في القرآن الكريم الحث على اللهج بهذا الذكر الكريم كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال - ﷻ - : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥].

أما الأحاديث التي وردت في فضل هذا الذكر والإتيان به في أعمال اليوم والليلة فكثيرة منها:

* قوله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ

(١) سنن الترمذي: (١٠٢١)، صحيح الجامع: (٧٩٥).

اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ،
وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو
فَبَايِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا». (١)

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال: «أَمْسَيْنَا
وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»... وَإِذَا
أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ». (٢)

* وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي». (٣)

* وعن أبي ذرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى
اللَّهِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ
الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، وفي رواية: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ أَيُّ
الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ
وَبِحَمْدِهِ». (٤)

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «...وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ
اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ». (٥)

(١) مسلم ٢٢٣.

(٢) رواه مسلم ٢٧٢٣.

(٣) رواه مسلم ٢٧١٥.

(٤) صحيح مسلم: (٢٧٣١).

(٥) جزء من حديث رواه مسلم برقم: (٥٩٦).

❁ المواطن التي يتأكد فيها الحمد :

الحمد مطلوب من المسلم في كل وقت وحين؛ إذ إنَّ العبد في كل أوقاته متقلِّبٌ في نعمة الله، وهو سبحانه خالقُ الخلق ورازقهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، دينية ودنيوية، ودفع عنهم النقم والمكاره، فليس بالعباد من نعمة إلا وهو مولِّيها، ولا يدفع الشرَّ عنهم سواه، فهو سبحانه يستحقُّ منهم الحمد والثناء في كلِّ وقتٍ وحين، كما أنَّه سبحانه يستحقُّ الحمدَ لكمال صفاته، ولما له من الأسماء الحسنی والنعوت العظيمة التي لا تنبغي إلاَّ له، فكلُّ اسم من أسمائه، وكلُّ صفةٍ من صفاته يستحقُّ عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع أسمائه الحسنی وصفاته العظيمة.

وكما أنَّ الحمدَ مطلوبٌ من المسلم في كلِّ وقتٍ، إلاَّ أنَّ هناك أوقاتاً معيَّنة وأحوالاً مخصوصةً تمرُّ بالعبد يكون فيها الحمدُ أكثرَ تأكيداً.

ومن هذه الأوقات والأحوال حمدُ الله في الخطبة وفي استفتاح الأمور، وفي الصلاة، وعقب الطعام والشراب واللباس، وعند العطاس، ونحو ذلك من المواطن التي ورد في السنة تخصيصها بتأكيد الحمد فيها.

❁ من أثار الإيمان باسمه سبحانه (الحميد) :

سبق القول بأن (الحميد) يأتي بمعنى (المحمود)، أي: أن الله - ﷻ - هو المحمود في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله، وله الحمد كله وله الثناء الحسن كله، وله الحمد في الأولى والآخرة، وفي السماوات والأرض، وذلك لما يتصف به سبحانه من صفات الكمال والجلال والجمال، ولأنَّ أسمائه

كلها حسنى، وأفعاله كلها حسنى تتراوح بين الفضل والرحمة والإحسان، وبين الحكمة والعدل.

وهذه الآثار والمعاني العظيمة لا بد أن تثمر في قلب المؤمن آثاراً وعبوديات لله تعالى من أهمها:

أولاً: محبة الله - ﷻ - محبة عظيمة صادقة لا يشاركه فيها أحد من الخلق، وهذه المحبة بدورها تثمر عبوديات أخرى في القلب، كالإخلاص لله تعالى والحياء والأدب مع الله - ﷻ - وعبوديات اللسان والجوارح بالقيام بأوامره، واجتناب نواهيه، والتقرب إليه بطاعته.

ثانياً: كثرة ذكره سبحانه (١) وشكره، وبخاصة بالأذكار التي تتضمن حمده سبحانه والثناء عليه بالثناء الحسن الذي هو أهل له آناء الليل وأطراف النهار، وعمل اليوم والليلة.

(١) إن ذكر الله جلّ وعلا هو أزكى الأعمال وخيرها وأفضلها عند الله تبارك وتعالى، ففي المسند للإمام أحمد، وسنن ابن ماجه، ومستدرک الحاكم، وغيرها من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله ﷻ».

فهذا الحديث العظيم أفاد فضيلة الذكر، وأنه يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله ﷻ، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله ﷻ. قال ابن رجب رحمته الله: «وقد تكاثرت النصوص بتفضيل الذكر على الصدقة بالمال وغيره من الأعمال».

ثالثاً: اليقين بأن الله - ﷻ - هو المستحق للحمد كله على الإطلاق كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] واللام في (الحمد) للاستغراق، أي: هو الذي له جميع المحامد بأسرها، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى ولا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، فهو الحميد في ذاته وصفاته وفي أسمائه وفي أفعاله، فله الحمد على كل حال، في كل زمان ومكان، في الشدة والرخاء، والعسر واليسر، وفيما نحب ونكره، كيف لا! وهو العليم الحكيم، الفعّال لما يريد، المختار لما يشاء، فمهما يقضي ويقدر فهو الموافق للحكمة البالغة، والعلم التام، وأما ما ينسب إلى المخلوق من الحمد فهو جزئي، وحقيقته أنه داخل في حمد الله - ﷻ - فما من محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال، فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق، والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد، فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة، وهو أحق من كل محمود بالحمد، والكمال من كل كامل وهو المطلوب». (١)

وهذا اليقين يثمر في قلب المسلم القبول التام، والاستسلام المطلق لأحكام الله الشرعية.

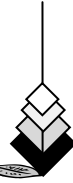
واليقين أنها كلها خير ومصلحة وحكمة، ولو لم ندرك حكمة بعضها،

لكن الله تعالى يحمد عليها لما يعلمه سبحانه من الحكمة والخير فيها لعباده، وكذلك أحكامه سبحانه القدريّة فما كنا فيها مأمورين بمدافعتها بالأسباب الشرعية دافعنا، وما كان منها أمر مقضي فإن الواجب حينها الاستسلام والرضا واليقين بأن له سبحانه الحكمة البالغة التي يحمد عليها ولو غابت عن عقولنا، وكذلك له الحمد في كل ما خلق في هذا الكون من ناطقه وجامده، وله الحمد على ذلك كله ولو لم ندرك حكمته سبحانه في خلق كثير منها.

كما أن له الحمد في أحكامه الجزائية في الدنيا ويوم القيامة؛ لأنها كلها فضل ورحمة أو عدل وحكمة، وهذه مما يحمد الله -عز وجل- عليها.



الْمَبْحَثُ التَّاسِعُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ



هذه الرسالة الربانية يُعَلِّمُنَا فيها ربنا أنه غَفُورٌ رَحِيمٌ. ولقد تكررت هذه الرسالة في القرآن مرتين: قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]

- والآن نستمد من الله العون، ونسأله سبحانه التوفيق، ونطوِّف مع هذه الرسالة الربانية.

- ولنا مع هذه الرسالة الربانية وقفتان:

الوقف الأولى: مع اسم الله الغفور. (١)

والوقف الثانية: مع اسم الله الرحيم.

اسم الله الرحيم

إن صفة الرحمة من أجل الصفات وسأتكلم عن الاسمين المتعلقين

(١) سبق الحديث عن اسم الله الغفور عند هذه الرسالة الربانية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. ولهذا سأكتفي بالحديث في هذا المبحث عن اسم الله الرحيم.

بصفة الرحمة وهما: (الرحمن، الرحيم) مجتمعين إتماماً للفائدة.

* قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١، ٢].

* وقال - ﷺ -: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾ [طه: ٥].

* وقال سبحانه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: ٤٥].

والآيات في ذكر اسم (الرحمن) كثيرة جاءت في (٥٧) موضعاً من القرآن.

أما اسمه (الرحيم) فقد جاء في (١٢٣) موضعاً من القرآن الكريم أكثرها كان مقترناً باسمه سبحانه (الغفور) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

* وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

* وقوله تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣].

* وقوله - ﷺ -: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٨].

❁ المعاني الكريمة لهذين الاسمين الجليلين:

هذان الاسمان الكريمان مشتقان من (الرحمة) على وجه المبالغة وهي الرقة والتعطف وإن كان اسم (الرحمن) أشد مبالغة من اسم (الرحيم)، لأن بناء فعلا ن أشد مبالغة من فعيل وبناء فعلا ن: للسعة والشمول، واتفق أهل

العلم على أن اسم (الرحمن) عربي لفظه، وفي الحديث القدسي: «أَنَا الرَّحْمَنُ، وَهِيَ الرَّحْمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي، مَنْ يَصِلُهَا أَصْلُهُ، وَمَنْ يَقْطَعُهَا أَقْطَعُهُ، فَأَبَتْهُ». (١)

فقد دل هذا الحديث على الاشتقاق. وكانت العرب تعرف هذا الاسم في لغتها.

* قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].
وجاء في أشعارهم قول الشاعر:
وعجلتم علينا إذ عجلنا عليكم... وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق (٢)

❖ الفرق بين الاسمين:

فرق بعض أهل العلم بين هذين الاسمين الكريمين بالفروق التالية:
أولاً: أن اسم (الرحمن): هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة.

وأما اسم (الرحيم): فهو ذو الرحمة للمؤمنين كما في قوله تعالى:
﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [٤٣] ﴿[الأحزاب: ٤٣]. ولكن يشكل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله

(١) أحمد في المسند (١٦٨٦)، وأبو داود في سننه (١٦٩٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٢٠).

(٢) انظر النهج الأسمى ١/ ٧٥، ٧٦.

تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

ثانيًا: أن اسم (الرحمن) دال على الرحمة الذاتية، و(الرحيم) دال على الرحمة الفعلية؛ يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن (الرحمن) دال على الصفة القائمة به سبحانه و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم. فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [٤٣] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

ولم يجيء قط (رحمن بهم) فعلم أن (الرحمن) هو الموصوف بالرحمة، و(الرحيم) هو الرحيم برحمته». (١)

ويقول في موطن آخر: «ولم يجيء رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين؛ مع ما في اسم (الرحمن) - الذي هو على وزن فعلان - من سعة هذا الوصف؛ وثبوت جميع معناه للموصوف به. ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للممتلى غضبًا؛ وندمان، وحيران، وسكران، ولهفان، لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيطٌ بالمخلوقات؛ قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق؛ واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضَعُ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». (١)، وفي لفظ: «فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ». (٢)

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة؛ ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩].

يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب - تبارك وتعالى - إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم». (٣)

(١) البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم: (٢٧٥١).

(٢) مسند أحمد: (٥١٩ / ١٤).

(٣) مدارج السالكين ١ / ٣٤.

ثالثاً: اسم (الرحمن) من الأسماء التي لا يجوز للمخلوق أن يتسمى بها؛ قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره وهو (الله) - جل جلاله - وأما (الرحيم) فإنه تعالى وصف به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

رحم قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم (الله)، (الرحمن)، (الخالق)، (الرازق) ونحو ذلك؛ ولهذا بدأ باسم الله الموصوف (بالرحمن) لأنه أخص وأعرف من (الرحيم)؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء؛ فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص». (١)

❁ الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

الأول: رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه كسائر صفاته، يجب إثباتها لله - ﷻ - من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

الثاني: رحمة مخلوقة أنزل الله - ﷻ - منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة

كما جاء في قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحُمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحُشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

* ومن ذلك أيضًا ما جاء في قوله ﷺ: «اِخْتَجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتْ: هَذِهِ يَدْخُلُنِي الْجَبَّارُونَ، وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتْ: هَذِهِ يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ، وَالْمَسَاكِينُ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِهَذِهِ: أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَرُبَّمَا قَالَ: أُصِيبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لِهَذِهِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا» (٢)؛ وهذه الرحمة من باب إضافة المفعول إلى فاعله، وهذه الرحمة ليست صفة لله تعالى، بل هي من أثر رحمته التي هي صفته الذاتية الفعلية.

❁ ورحمة الله ﷻ لعباده نوعان :

• الأولى - رحمة عامة :

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم، وتربيتهم، ورزقهم، وإمدادهم بالنعيم والعطايا، وتصحيح أبدانهم، وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم، ومسكنهم، ولباسهم، ونومهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

(١) مسلم (٢٧٥٢).

(٢) مسلم (٢٨٤٦).

قال الله - ﷻ -: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - عند هذه الآية: «وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات، حتى الكفار؛ لأن الله قرن الرحمة هذه مع العلم؛ فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء؛ فقد بلغته رحمته؛ فكما يعلم الكافر؛ يرحم الكافر أيضًا.

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية مختصة بالدنيا؛ فالذي يرزق الكافر هو الله الذي؛ يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك» (١).

• الثانية - رحمة خاصة:

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله - ﷻ - في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم، ويثيبهم عليه، ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيما أعطاهم، ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب ويغفر لهم ذنوبهم ويكفرها بالمصائب ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخولهم الجنة ونجاتهم من عذابه - ﷻ - ونقمته. وهذه الرحمة هي التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - عن هذه الرحمة الخاصة

(١) شرح العقيدة الواسطية (بتصرف يسير) ٢٤٩/١.

بعد حديثه عن الرحمة العامة: «أما المؤمنون؛ فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم؛ لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية.

ولهذا تجد المؤمن أحسن حالاً من الكافر، حتى في أمور الدنيا؛ لأن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار، حياتهم كحياة البهائم.. لكن المؤمن إن أصابته ضراء صبر واحتسب الأجر على الله - ﷻ - وإن أصابته سراء شكر فهو في خير في هذا، وفي هذا وقلبه منشراح مطمئن». (١)

وقال عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

(قوله: بِالْمُؤْمِنِينَ: متعلق بـ (رحيم)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] نقول: الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك. هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار؛ بخلاف الأولى. هذا هو الجمع بينهما، وإلا فكل مرحوم، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة). (٢)

(١) شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢٤٩.

(٢) شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢٥١.

❁ ذكر بعض آثار رحمة الله - ﷻ - في خلقه وأمره: (١)

آثار رحمة الله - ﷻ - لا تعد ولا تحصى إذ إن رحمة الله - ﷻ - قد وسعت كل شيء فكما أن علم الله - ﷻ - قد وسع كل شيء ولم يخف عليه أي شيء فكذلك رحمته سبحانه قد بلغت كل شيء بلغه علمه سبحانه قال الله - ﷻ -: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

رحم يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه». (٢)

وقال سبحانه عن نعمه التي هي من آثار رحمته: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأسوق فيما يلي بعضاً من آثار رحمة الله تعالى في خلقه وشرعه، وإلا فإن رحمة الله - ﷻ - قد وسعت كل شيء ولا يحيطها عقل ولا حصر ولا عد. إذ كل ما يقع عليه السمع والبصر فرحمة الله - ﷻ - فيه بادية، وما يخفى على السمع والبصر من آثار رحمة الله تعالى أعظم وأكثر.

أولاً: تظهر آثار رحمة الله - ﷻ - في كل ما خلق الله - ﷻ - سواء في هذا

(١) انظر النهج الأسمى ١/ ٧٥، ٧٦.

(٢) الصلاة وحكم تاركها ص ١٧٣.

الكون العريض وما فيه من المخلوقات العظيمة المسخرة بأمره سبحانه وما فيها من المنافع والرحمة لعباده، أو ما في خلق الإنسان من الآيات الدالة على عظمته سبحانه ورحمته - ﷻ - بهذا الإنسان، حيث خلقه في أحسن تقويم وأقام جسمه وروحه، وأعطاه العقل وقواه، وأمدّه وأعدّه ورزقه وأنعم عليه بنعمه الظاهرة والباطنة. ولو ذهبنا نستعرض آثار رحمة الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس لفنيت الأعمار ولم تنته من حصرها وعدّها مع أنها جزء من مائة جزء من رحمته.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في وصفه لشمول رحمة الله تعالى: «وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيت ممتلئاً بهذه الرحمة الواحدة كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه.. فسبحان من أعمى بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز». (١)

* قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

* وقال سبحانه: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

* وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

* وقال - ﷻ -: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الذي خلقك

(١) مختصر الصواعق المرسلّة ٢/ ٣٥٠ «باختصار».

فَسَوِّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ

﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وتأمل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ

﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ [الرحمن: ١ -

٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة متعلقاً باسم

(الرحمن)، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم وختمها بقوله: ﴿نَبِّرَكَ

أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسم الذي تبارك هو الاسم

الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل

مبارك فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة.

... وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض

وجعلها مهاداً وفراشاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات، وبرحمته أنشأ

السحاب وأمطر المطر، وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى، ومن رحمته

سخر لنا الخيل والإبل والأنعام وذلّلها منقاداً للركوب والحمل والأكل...

ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه وألقى بينهما المحبة

والرحمة، ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل وانتفاع الزوجين،

ويمتع كل واحد منهما بصاحبه.

ومن رحمته أحوج الخلق بعضهم إلى بعض لتتم مصالحهم، ولو أغنى

بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وانحل نظامهم، وكان من تمام

رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعزیز والذليل، والعاجز والقادر، والمراعي والمرعي، ثم أفقر الجميع إليه ثم عم الجميع برحمته». (١)

ثانيًا: وأعظم آثار رحمته سبحانه إرساله الرسل وإنزاله الكتب هداية للناس وإخراجًا لهم من الظلمات إلى النور. فالرسل رحمة من عند الله - ﷻ - لعباده قال الله - ﷻ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

فبرحمته أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية البشر، ولتعريفهم برهم سبحانه وأسمائه وصفاته، وكيفية عبادته لينقلهم برحمته من الجهالة إلى العلم ومن الغي إلى الرشد، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة فسبحان أرحم الراحمين وخير الرازقين.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «برحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ، وأنزل علينا كتابه وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصّرنا من العمى، وأرشدنا من الغي.

وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا،

(١) مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ١٢٢ - ١٢٤ «بتصرف يسير».

وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا...

... وكان عن صفة الرحمة الجنة وسكانها وأعمالهم، وبرحمته خلقت، وبرحمته عُمِرت بأهلها، وبرحمته وصلوا إليها، وبرحمته طاب عيشهم فيها. وبرحمته احتجب عن خلقه بالنور ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه...» (١)

ويقول أيضًا: «من أعطى اسم (الرحمن) حقه: عرف أنه متضمنٌ لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمُّنه إنزال الغيث وإنبات الكلاء وإخراج الحبّ.

فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح: أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدوابّ، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك». (٢)

ثالثًا: ومن رحمته سبحانه مغفرته لذنوب عباده والصفح عنهم، وتكفير سيئاتهم، وفتح باب التوبة لهم.

* قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) مختصر الصواعق المرسلّة ٢/ ١٢٣.

(٢) مدارج السالكين ٨/ ١.

ﷺ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن رحمته أنه يعيد من سخطه برضاه، ومن عقوبته بعفوه، ومن نفسه بنفسه... وأوسع المخلوقات عرشه، وأوسع الصفات رحمته، فاستوى على عرشه الذي هو أوسع المخلوقات بصفة رحمته التي وسعت كل شيء».

ولما استوى على عرشه بهذا الاسم الذي اشتقه من صفته وتسمى به دون خلقه، كتب مقتضاه على نفسه يوم استوائه على عرشه حين قضى الخلق كتاباً فهو عنده وضعه على عرشه «إن رحمته سبقت غضبه» وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه سبحانه للخلقة كلها بالرحمة لهم، والعفو عنهم، والصفح عنهم، والمغفرة، والتجاوز، والستر، والإمهال، والحلم، والأناة. فكان قيام العالم العلوي والسفلي بمضمون هذا الكتاب، الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر» (١).

وتتجلى رحمة الله - ﷻ - بعباده التائبين في أجلى صورها فيما أخبر به الرسول ﷺ بفرح الله - ﷻ - بتوبة عبده وقبوله لتوبة التائبين.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ

(١) مختصر الصواعق المرسلة ٢/ ١٢١ - ١٢٢. وانظر إلى مزيد من تفاصيل آثار - رحمة الله تعالى - وحكمته في خلقه في الكتاب النفيس (مفتاح دار السعادة) لابن القيم رحمه الله تعالى.

تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرْحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَتْ شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» (١).

ولا يهلك على الله إلا هالك ولا يخرج عن رحمة الله تعالى إلا من يعلم الله تعالى أنه لا يستحق الرحمة البتة، وهم القوم الكافرون؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [يوسف: ٨٧] ويمكن أن نجد هذا المعنى في قول إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه الكافر: ﴿يَتَأَبَّتْ إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿٤٥﴾ [مريم: ٤٥]، فاختيار إبراهيم عليه السلام: اسم (الرحمن) في تحذير أبيه من العذاب فيه سر لطيف لأن المتبادر للعقل أن يربط العذاب باسم من أسمائه سبحانه يناسب العقاب أما أن يربط العذاب باسمه (الرحمن) فلا شك أن في ذلك سرًا لطيفًا ألا وهو - والله أعلم - أن إبراهيم أراد أن يفتح لأبيه باب الرجاء والتوبة فإن الله - تعالى - رحيم يقبل توبة التائبين مهما عملوا. وكذلك ربما أراد إبراهيم عليه السلام أن يعلم أباه أنه إن أصابك العذاب ممن اسمه (الرحمن) الذي وسعت رحمته كل شيء، فإن هذا يدل على أنه ليس فيمن عذبه الرحمن ذرة تستحق

(١) البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

الرحمة؛ إذ لو كان فيه موجب الرحمة لرحمه.

رابعاً: ومن آثار رحمته سبحانه ما يضعه في قلوب الأمهات من رحمة نحو أولادهن سواء كان ذلك عند الإنسان أو الحيوان من وحش وطيور وهوام. وأن رحمة الله - سبحانه وتعالى - أعظم وأوسع من رحمة الأمهات بأولادهن.

* فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيِي، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا». (١)

يقول ابن القيم رحمته الله تعالى: «وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم (الرحمن الرحيم)». (٢)

خامساً: وتتجلى رحمة الله - تعالى - في شرعه المطهر وأحكامه التي كلها خير ورحمة للخلق سواء ما يتعلق بهدايتهم وحفظ أديانهم، أو ما يتعلق بحفظ نفوسهم وأبدانهم، أو ما يتعلق بحفظ عقولهم وأفكارهم، أو ما يتعلق

(١) البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) مختصر الصواعق المرسله ٣/ ١٢٢.

بحفظ أعراضهم وأنسابهم وأولادهم، أو ما يتعلق بحفظ أموالهم وممتلكاتهم.

فكل ما يتعلق بهذه الضروريات الخمس من أحكام إنما جاءت رحمة بالناس بالمحافظة عليها وحمايتها من الفساد والعدوان حتى يعيش الناس في أمن وسعادة قد رفع عنهم الحرج والعنت وحفظ لكل ذي حق حقه. كما تظهر رحمة الله - ﷻ - في يسر الشريعة، ورفع الحرج عن العباد فيها، وشرع الرخص التي ترفع المشقة عنهم.

سادسًا: كما تتجلى رحمة الله - ﷻ - في المصائب والمكروهات التي يقدرها على عباده المؤمنين فهي وإن كانت مؤذية ومكروهة إلا أن في أعطافها الرحمة والخير بالمصاب، لأن الله - ﷻ - كتب على نفسه الرحمة ورحمته سبقت غضبه.

وقد تظهر هذه الرحمة للمصاب عيانًا ويتبين ما في المكروه من الرحمة واللفظ وقد لا يتبين ذلك في الدنيا ولكن يظهر آثار رحمة الله فيها في الآخرة بتكفير السيئات، وغفران الذنوب بفعل هذه المصائب.

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا،

إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». (١)

أما ما يصاب به الكفار من المصائب والعقوبات فهي رحمة بالمؤمنين من شر الكفار وتسلبهم، وإفسادهم في الأرض، وهي عدل مع الكفار.

وأذكر بهذه المناسبة آية من كتاب الله - ﷻ - ظهر لي فيها معنى خفي يدل على أن ما يصيب المؤمن من ضرر ومكروه إنما هو من آثار رحمة الله تعالى وموجب اسمه سبحانه (الرحمن الرحيم).

* قال الله تعالى عن مؤمن آل ياسين أنه قال لقومه المشركين: ﴿إِنْ يَرَوْنَ الرَّحْمَنُ بَصِيرًا لَا تَغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فلماذا اختار هذا الرجل الصالح اسم (الرحمن) من بين أسماء الله تعالى؟ وهل (الرحمن) يريد الضر بعباده المؤمنين؟

إن المعنى اللطيف في هذه الآية - والله أعلم - أن الضر إذا أتى من (الرحمن) فإن هذا موجب رحمته ولطفه ويصير الأمر الذي ظاهره الضر في حقيقته رحمة، وخيرًا للمؤمن لأن الرحمن لا يصدر عنه إلا الرحمة واللطف والبر: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

سابعًا: وتتجلى رحمة الله - ﷻ - في رحمته الخاصة بأوليائه، وتوفيقهم، وتسديدهم، وحفظهم، وتيسير أمورهم، وإجابة دعائهم، ونصرهم على

(١) البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

أعدائهم الكافرين، وتمكينه لهم في الأرض، وإعانتهم وإغاثتهم في قضاء حوائجهم كما في جلب الرزق والمطر وكشف الكروب، وخرق السنن الكونية لهم، وإظهار الكرامات على أيديهم.

❁ من آثار الإيمان باسميه سبحانه : (الرحمن الرحيم) :

• أولاً: محبة الله - ﷻ - المحبة العظيمة وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله - ﷻ - في الآفاق، وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى. وهذا يشمر تجريد المحبة لله تعالى والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته - ﷻ - على النفس، والأهل، والمال، والناس جميعاً، والمسارة إلى مرضاته، والدعوة إلى توحيده، والجهد في سبيله، وفعل كل ما يحبه ويرضاه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

• ثانياً: عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله تعالى وعدم اليأس من رحمة الله تعالى فإن الله - ﷻ - قد وسعت رحمته كل شيء. وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً كما أن الرجاء والنظر إلى رحمة الله الواسعة وآثارها يشمر الأمل في النفوس المكروبة، ويمسح عليها الروح وحسن الظن بالله تعالى وانتظار الفرج بعد الشدة ومغفرة الذنوب.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

❁ (٥٣) ❁ [الزمر: ٥٣].

وقال - ﷺ -: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ ﴾ [الشرح: ٥، ٦]،

وقال - ﷺ -: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

ﷺ يتحدث الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى - عن الأمل العظيم في رحمة الله تعالى فيقول: «والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار. ويتطلع لرحمته إذ ذاك، جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به وبرسله، بالرحمة.

فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا ومن النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في يوم القيامة، فإن قوله: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [طه: ١٠٨] مع قوله ﴿ أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦] مع قوله ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ [طه: ١٠٩] مع قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ [النبا: ٣٨]، مع قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَجَعَلَ مِنْهَا رَحْمَةً فِي الدُّنْيَا تَرَحُّمُونَ بِهَا، وَعِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ رَحْمَةً، ثُمَّ عَادَ بِهِنَّ عَلَى خَلْقِهِ». (١)؛ مع قوله: «لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ

(١) مسند أحمد: (١٠٨١٠).

مِنْ هَذِهِ بَوْلَدَهَا». (١) وفي لفظ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْمَرْأَةِ بَوْلَدَهَا» (٢)

فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور فوق ما شئت، فإنها فوق ذلك.

فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته. وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غني عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه، طرفة عين». (٣)

● ثالثاً: اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى:

وقد حض الله - ﷻ - عباده على التخلق بها، ومدح بها أشرف رسله فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه ﷺ أنه (نبي الرحمة) (٤). ومدح الصحابة - رضوان الله عليهم - بقوله: ﴿رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وخص أبو بكر رضي الله عنه من بينهم بالكمال

(١) صحيح مسلم: (٢٧٥٤).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٣/ ٢٢٨).

(٣) تفسير السعدي ٣/ ٢٥٢، ٢٥٣.

(٤) مسلم (٢٣٥٥). ولفظه: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، الرَّحْمَةُ»

البشري في الرحمة بعد الرسل، حيث قال فيه ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ.....» (١).

وَيَبِّنُ ﷺ أَنَّ الرِّحْمَةَ تَنَالُ عِبَادَهُ الرِّحْمَاءُ فَقَالَ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءُ» (٢)، وأعظم الرحمة بالناس هدايتهم إلى التوحيد، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم - ﷻ - ثم الرحمة بهم في أنفسهم، وأعراضهم، وعقولهم، وأموالهم، ودفع الظلم عنهم، وتفريج كربهم، والإحسان إليهم، وتعزية مصابهم، وقضاء حوائجهم. وأولى الناس بهذه الرحمة الوالدان والأقربون.

* قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

* وكذلك رحمة الأولاد والزوجات. فهذا رسول الله ﷺ قال له الأقرع ابن حابس: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ». (٣)

(١) أحمد ٣ / ٢٨١، والترمذي في المناقب وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٨١).

(٢) البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

(٣) البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

* وَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ». (١)

ومن الرحمة التي تغيب عن كثير من الأذهان رحمة عموم الخلق مسلمهم وكافرهم، قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في أهل البدع: «ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر - والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم - رحمتهم ورفقت عليهم، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهو ما أعطوا علوماً، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَّتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجَحِدُونَ بِثَايَتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾» [الأحقاف: ٢٦]. (٢)

ويقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

وانظر بعين الحكم وارحمهم بها... إذ لا ترد مشيئة الديان
وانظر بعين الأمر واحملهم على... أحكامه فهم إذا نظروا
واجعل لقلبك مقلتين كلاهما... من خشية الرحمن باكيان

(١) البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٣٠) واللفظ له.

(٢) الفتوى الحموية ص ٥٥٣.

لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهم ... فالقلب بين أصابع الرحمن (١)

• رابعاً: التعرض لرحمة الله تعالى بفعل أسبابها:

ومن أعظم ما تستجلب به رحمة الله تعالى فعل ما يرضيه ويأمر به، واجتناب ما يسخطه وينهى عنه باتباع ما جاء به النبي ﷺ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُ، مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

• ومما تستجلب به رحمة الله تعالى ما ذكر سابقاً من الرحمة بالخلق والإحسان إليهم.

• ومن الطرق التي تنال بها رحمة الله - ﷻ - تدبر القرآن والإنصات إليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

• وكذلك الاستغفار من أعظم ما تستجلب به رحمة الله تعالى. قال الله

- ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٦] ﴿النمل: ٤٦﴾.

• وقد أرشدنا الله - ﷻ - إلى سؤاله سبحانه الرحمة لأنفسنا وأقاربنا، وقد أثنى سبحانه على أنبيائه بذلك، وذكرهم للتأسي بهم، قال الله تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٢] ﴿الأنبياء:

٨٣﴾، وقال - ﷻ - عن موسى - عليه السلام - ودعائه لنفسه وأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ

أَغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:

١٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون:

١١٨].

• ومما تستجلب به رحمة الله تعالى الرحمة باليتامى، والخدم،

والإحسان إليهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» (١) وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى «ومالك أحد رجال السند».

* وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِتْيَةً

تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيَلْبَسْهُ مِنْ لِبَاسِهِ، وَلَا يُكَلِّفْهُ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ». (٢)

(١) مسلم (٢٩٨٣)، معنى (وله أو لغيره) أي: قريباً لليتم كالجد والأخ والعم أو قريباً لغيره كبقية الأقارب.

(٢) الترمذي (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٨٧).

• خامسًا: الحياء من الله ﷻ: «إن التأمل في إحسان الله ورحمته يورث العبد حياء منه - سبحانه وتعالى - فيستحي العبد المؤمن من خالقه أن يعصيه، ثم إن وقع في الذنب جهلاً منه استحيا من الله بعد وقوعه في الذنب، ولذا كان الأنبياء يعتذرون عن الشفاعة للناس بذنوبهم خوفاً وخجلاً، وإن هذا الأمر قل من ينتبه له، بل قد يظن كثير من الناس أن التوبة والعفو قد غمر ذنوبه فلا يلتفت إلى الحياء بعد ذلك.

كان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة والصوم حتى يصفر جسده فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟، فقال: مالي لا أجزع، والله لو أتيت بالمغفرة من الله لأهمني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيًا منه». (١)



(١) انظر: التعبد بالأسماء والصفات: ص ٩٨.

الفصل الثالث

رسالةٌ يُحدِّثنا فيها ربُّنا
عن كتابه العزيز

فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤]، وفي هذه الرسالة يتحدى ربنا تبارك وتعالى الكفار، لأن الكفار كانوا يقولون مرارًا إن هذا القرآن مفترى.

فجاء التحدي أن يفتروا عشر سور كسوره، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء.

وهذه الرسالة شهادة من الله واضحة أن القرآن كلامه، كما أن إعجاز القرآن دليل على أنه كلام الله ﷻ، وهناك أدلة كثيرة سأذكر طرفًا منها بعد قليل.

- ولكن قبل المجيء بالأدلة نطرح هذه الأسئلة:

• س: هل شهد الله لرسله أنهم رسله كما شهد للقرآن الكريم؟

والجواب: نعم، وشهادة الله لرسله تكون عن طريق المعجزات، لأن المعجزة بحد ذاتها شهادة الله لرسله أنهم رسله.

• س: ولماذا يحتاج الأنبياء لهذه الشهادة؟

جواب ذلك: أن كل رسول معه منهج افعل ولا تفعل، يحتاج لهذه الشهادة، لأنه أُرسل إلى كُفَّار، وهؤلاء الكفار ألقوا الحركة من دون منهج، من دون قيد أو شرط، من دون حساب لحساب أو جزاء، فلذلك حينما يأتي

إنسان ويقول: أنا رسول الله سيكون موقف هؤلاء المعرضين الشاردين هو التكذيب كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]، ولقد أعطى الله رسله معجزات واضحة كما هو معلوم:

* فإبراهيم عليه السلام: لم تستطع النار أن تحرقه قال الله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِنَّ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ ٦٨ ﴿قُلْنَا نَارُكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٩ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ٧٠ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠]

* وموسى عليه السلام أعطاه الله معجزات منها: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ١٠٧ [الأعراف: ١٠٧]، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِينَ﴾ ١٠٨ [الأعراف: ١٠٨]

* وعيسى عليه السلام أعطاه الله أيضًا معجزات: كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ٣٠ [مريم: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٤٩ [آل عمران: ٤٩].

* وصالح عليه السلام: انشق الجبل فخرجت منه الناقة كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوَهَا تَكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى:

﴿وَيَنْقُومُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوَهَا تَكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿٦٤﴾ [هود: ٦٤]

إذن هذه المعجزات إثبات للناس أن هؤلاء الرجال أنبياءه سبحانه وتعالى، أو شهادة الله للبشر أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم أنبياءه ورسله، إلا أن المشكلة أن الأنبياء السابقين كانوا أنبياء لأقوامهم فقط، كل نبي له قوم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿٧﴾ [الرعد: ٧]، ولذلك المعجزات كانت حسية، أي مادية قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾ ﴿١٠٨﴾ [الأعراف: ١٠٨]، والمعجزات الحسية كعود الثقاب، تألفت مرة واحدة وبعد ذلك انطفأت، وأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه، ويكذبه من يكذبه.

- أما بعثة النبي عليه الصلاة والسلام فجاءت لكل الأمم والشعوب قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولهذا لا يمكن أن تكون معجزته ﷺ حسية منقطعة، لا يمكن أن تكون معجزته خبراً يصدق أو يكذب، إنما يجب أن تكون معجزته مستمرة إلى نهاية الحياة. ولهذا أعطى الله سبحانه للنبي ﷺ معجزة علمية.

❁ وهنا نأتي لشهادة الله للقرآن:

الله جلّ جلاله شهد شهادات بالمئات أن هذا القرآن كلامه، ولكن

سنكتفي بذكر واحدة وهي كالآتي:

إن في القرآن أمراً ونهيًا ووعدًا ووعدًا، فمن طبق الأمر قطف ثمارًا يانعة، ومن وقع في النهي دفع ثمنًا قد يكون باهظًا، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة لبيان الأمر وتوضيحه:

١ - حينما يقول الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، الحياة الطيبة التي يحيها المؤمن شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه.

٢ - وحينما يقول الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤] المعيشة الضنك التي يحيها المعرض عن ربه شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه.

٣ - وحينما يقول الله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وبعدها يأتي المرابي فيخسر ماله كله دفعةً واحدة، هذه الخسارة، وهذا الدمار شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه لأن الله يقول: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦].

٤ - حينما يأتي الْمُتَصَدِّقُ فيدفع الصدقة فيضاعف الله له أمواله أضعافًا كثيرة، مضاعفة المال لهذا الْمُتَصَدِّقِ شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وهذا أكبر دليل على أن هذا القرآن كلامه.

٥ - وحينما يقول الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَّىٰ﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنِّيَرُهُ،

لِّلْإِسْرَى ﴿٧﴾ [الليل: ٥ - ٧] فنجد أن من يحالفه التيسير هو الذي يبني حياته على العطاء ويؤمن بالله ويتقي الله.

- إذن قطاف ثمرة أي أمر تَعَبَّدنا به الله، هي في الحقيقة شهادة الله للمؤمن أن هذا القرآن كلامه.

وحينما يرتكب الإنسان معصيةً فالثمن الذي يدفعه شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه. (١)

٦- وحينما يقول ربنا: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١] هذا الخوف الذي أكل قلب هذا الخائف دليل على أن هذا القرآن كلام الله، وشهادة من الله لنا أن هذا القرآن كلامه.

٧- وحينما يقول ربنا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور: ٥٥]

- إذا ألقينا نظرة على حال المسلمين في البدايات سنجد أنهم عشرات الألوف في الجزيرة، بدو رُحَّل متخلفون بالمقياس الحضاري، ليس عندهم علم، ولا جامعات، ولا أجهزة، ولا تطورات.

(١) يقول الشيخ الغزالي: إننا - نحن المسلمين - نقول في رسوخ وشموخ: ليس في القارات الخمس ما يسمى وحيا محضاً، إلا هذا الكتاب الذي لا ريب فيه.. ولن يعرف الله معرفة صحيحة، إلا من التأمل في معانيه ومغازيه.. انظر: المحاور الخمسة للقرآن الكريم ص ١٢.

- والسؤال هنا: كيف استطاعوا أن يفتحوا المشرقين وأن يصلوا إلى أطراف الدنيا، وأن يصلوا إلى مسافة قريبة من باريس، وإلى مشارف الصين، وأن تدين لهم الدنيا من أطرافها؟

سرّ ذلك أنهم أقاموا الدين (١) في قلوبهم وترجموه عملاً وسلوكاً! قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] معنى ذلك أن هذا القرآن كلامه: ﴿كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور: ٥٥] معنى ذلك أن هذا القرآن كلامه.

(١) قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلَوْا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]. فتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، إقامة الدين مهمة في نصر الله للمؤمنين لأن الله وعد بالنصر من ينصره، فقال جلّ من قائل: ﴿إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم وَيُخْلِفْ أَعْدَاءُكُمْ﴾ [محمد: ٧] فمتى صدقت هذه الأمة مع الله تعالى في إقامة الدين الصحيح الصافي الخالي من كل شائبة، وقامت بأمر الله تعالى، ووحدت المولى جلّ وعلا، وأقامت الصلاة، وأدت الزكاة، وصامت رمضان وأدت فريضة الحج، ونهجت منهج السلف الصالح الذين فتحوا الفتوحات ومصروا الأمصار فستكون العاقبة لها بإذن الله تعالى، وسوف يورثها الله الأرض كما وعد، فإنه لا يخلف الميعاد حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٦].

❁ كلما تقدم العلم تطابق مع القرآن :

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] «لم، ولن»، لم لنفي الماضي، ولن للنفي على التأييد أي المستقبل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] لم تستطيعوا أن تفعلوا في الماضي، ولن تستطيعوا أن تفعلوا بالمستقبل. وهذا التحدي قائم أبداً.

ونحن لم نسمع عن واحد من البشر قال عن نفسه بأنه سيكون أعلم العلماء في هذا الموضوع في المستقبل، ولو قائل واحد من البشر هذا الكلام فكلامه غير علمي، ومثل هذا الإنسان يُضْحَكُ عليه ويسخر منه.

فالإنسان قد يتحدّى من حوله، ولكنه لا يستطيع أن يتحدّى من سيّاتي بعده.

أما الله وحده فهو القادر على أن يتحدّى كل المخلوقات لأنه عليمٌ بكل شيء، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن، فهو وحده يعلم السرّ وأخفى يقول سبحانه متحدّياً بعلمه وعظمته: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] لن تستطيعوا: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤].

- ولقد مضى على إنزال هذا القرآن أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، فهل استطاع العلم كله في الأرض أن يأتي بشيءٍ يُناقض هذا القرآن؟ بالعكس كلما

تقدّم العلم تطابق مع القرآن. (١)

بل نستطيع أن نقول: إنَّ كلَّ التقدم العلمي لم يستطع أن يهز آية واحدة من آيات القرآن (٢) لأن القرآن كلام خالق الأكوان.

إذن نقول بكل ثقة و يقين:

هذا الكتاب الكريم مليء بأنواع متعددة من الإعجاز؛ ولا يعلم أسرار القرآن إلا الله القائل: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

* ومن هذه الأنواع: الإعجاز العلمي، والإعجاز الأدبي، والإعجاز البلاغي، والإعجاز الإخباري، والإعجاز الوصفي، والإعجاز

(١) وسيأتي تفصيل ذلك بذكر أنواع الإعجاز في القرآن بعد قليل.

(٢) إذا قرأنا قوله تعالى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً [سورة النحل: ٨] فلنتخيل إنساناً عاش قبل ألف وأربعمئة عام؛ هناك الخيل، والبغال، والحمير، لو أن هذا القرآن كلام الرسول ﷺ، لكانت الآية: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [سورة النحل: ٨] فقط، لأن النبي ﷺ لم ير إلا هذا. ولكن جاء قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) [سورة النحل: ٨] لتبرهن الآية أن القرآن كلام الله.

وبنظرة لحال إنسان يعيش في هذا العصر الذي نحياه سنجد طائرات، وبواخر، وقطارات، ومراكب فضائية، قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) [سورة النحل: ٨] ولهذا فإن كل التقدم العلمي لم يستطع أن يهز آية واحدة من آيات القرآن لأنه كلام الله ﷻ خالق الأكوان، وخالق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

الأدبي... وغير هذا مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وسأبين مستعيناً بربي سبحانه وتعالى طرفاً من هذا، لأنني لست بصدد الإسهاب في هذه القضية ولو أسهبت فيها وسبرت غورها، لطال الكلام جداً، ونسأل الله العون والإخلاص والتوفيق. والآن نذكر بعض الأنواع من إعجاز القرآن الكريم.



المبحث الأول الإعجاز العلمي



❖ إشارة القرآن الكريم إلى علم الذرة:

- قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال علماء اللغة: إن كلمة (كل) تفيد الإبهام الشمولي، أي كل شيء في الكون داخل في كلمة (كل)، والآن اكتشف علماء الفيزياء أن كل عنصر في الأرض من دون استثناء ذرات، وفي الذرة نواة، وحول النواة مسارات، وعلى المسارات كهارب. (١)

❖ إعجاز القرآن في خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٤٥] ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُنْفَخُ﴾ [٤٦] [النجم: ٤٥ - ٤٦] وقال تعالى: ﴿الزَّيْطُ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُنْفَخُ﴾ [٣٧] [القيامة: ٣٧].

• النطفة هي التي تحدد جنس المولود وليس البويضة:

بعد تطور علم الأجنة إلى أعلى مستوى تبين جنس المولود ذكرًا كان أو

(١) كل شيء في الكون مؤلف من ذرات ونواة ومسارات وكهارب، تدور كما تدور الكواكب حول مجراتها، لأن نظام الذرة كنظام المجرة. وهذا من آيات الله الإعجازية.

أنثى يحدده الحوين لا البويضة، ولا علاقة للبويضة بتحديد جنس المولود، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ ٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ [النجم: ٤٥-٤٦] الآن عرف العلماء أنه في اللقاء الزوجي يخرج من الرجل خمسمئة مليون حوين، وحوين واحد فقط يدخل إلى البويضة فيلقحها، والله يقول: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۚ ٤٦﴾ [سورة النجم: ٤٥-٤٦] من نطفة فقط، كون الجنين ذكر من الزوج، كونه أنثى من الزوج، يوجد بالمورثات كروموزونات Y و X، ال X ذكر و ال Y أنثى.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي كُنُفَةً مِنْ مَنِيَّ يُمْنَىٰ ۚ ٣٧﴾ [القيامة: ٣٧] ألم يكن حويناً منوياً واحداً من بين خمسمئة مليون حوين، ألم يكن حويناً منوياً واحداً خرج من عورة ودخل في عورة وخرج من عورة.

- قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۚ﴾ [يس: ٣٨]، في هذه الآية إعجاز علمي، فمنذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وإلى بضع عشرات من السنين كان يُظن أن الشمس ثابتة، والكواكب تدور من حولها، ثم اكتشف أن الشمس تجري ونجد القرآن وضح وبين هذا فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۚ﴾ [يس: ٣٨].

❁ إشارة القرآن إلى كروية الأرض:

- قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۚ﴾ [الحج: ٢٧] الله لم يقل: بعيد. فلماذا لم يقل بعيد؟ مع أن بعيد أقرب للذهن؟

والجواب فيه حكمة عظيمة: فقلوله تعالى: ﴿عَمِيقٌ﴾ يدل على أن الأرض كرة، والبعد بالنسبة للكرة هو العمق.

ومن المعلوم أنه عندما تكون المسافة بعيدة جداً، وابتعدنا عن إحدى نقاطها صار الخط منحنياً، وصار هناك بُعد، وهذا البعد يكون عمقاً. فسبحان من هذا كلامه.

❁ إشارة القرآن إلى ضيق صدر من يصعد لطبقات الجو:

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥]

حينما يصعد الإنسان إلى أعالي الطبقات يقل الأوكسجين، ولذلك تضخ الطائرات ثمانية أمثال حجمها من الهواء ليكون الضغط فيها كالضغط في الأرض، ولو تلاشى هذا الضغط لسبب أو لآخر لا بد من هبوط الطائرة في أي مكان في الأرض وإلا يموت الركاب جميعاً، فهذا هو الضيق الذي يَحْصُلُ للإنسان إذا ركب طائرة مُخْلَخَلَةً.

- فهل ركب الرسول ﷺ طائرة ليخبرنا بهذا؟

أو هل صعد إنسان واحد في عهد النبي إلى السماء؟

إذن هذا من إعجاز القرآن العلمي، ودليل قاطع على أن الله جلّ جلاله هو الذي أخبرنا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥]

❁ إشارة القرآن إلى وسائل المواصلات الحديثة :

- قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] .

• هذه الآية من إعجاز القرآن العلمي :

لو أن القرآن من كلام النبي عليه الصلاة والسلام لاكتفى بالقول: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وينتهي، لأن هذا ما كان موجوداً في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن لأن القرآن كلام خالق الكون قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ❸ .

فإذا ركب الإنسان سيارة فخمة جداً، أو طائرة من أحدث الطائرات، أو ركب باخرة تُقل مليون طن، يقرأ قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] أين الخيل والبغال والحمير؟ أنا أركب سيارة أو طائرة أو..... والجواب: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ❸ [النحل: ٨]. فدخلت فيها كل المركبات.

- ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ❸ . فقد عَزَى صَنعُ وَخَلَقُ المركبة، والطائرة، والباخرة إلى الله.

وهذا لأن الله هو الذي خلق موادها الأولية، وهو الذي ألهم الإنسان صنع الطائرة، وهو الذي خلق الوقود السائل الذي أودعه الله في الأرض، وألهم الإنسان اكتشاف وقودها، فكلُّ شيء يفعلُه الإنسان هو من إلهام الله

له.

❖ إشارة القرآن إلى حركة الجبال:

حركة الجبال من آيات الله العظيمة قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]

معلوم أن الأرض تدور، ويا سبحان الله تُمُرُّ الجبال مر السحاب ثلاثين كيلو متراً بالثانية، كل ثانية تقطع الأرض في دورتها حول الشمس ثلاثين كيلو متراً، في الدقيقة تقطع ألفاً وثمانمائة كيلو متر، في العشر دقائق ثمانية عشر ألف كيلو متر، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، لكن مع هذه الحركة استقرار، فهل تمكّن الإنسان من صنع مركبة تنطلق بسرعة، والاستقرار مائة بالمائة؟ تضع كأس ماء على الطاولة، وتراه مائة بالمائة مستقرّاً، هذا هو معنى الآية، أي أن الأرض مستقرّة وهي متحرّكة، لو أنها، مستقرّة وهي ساكنة فالقضية سهلة، لكن مع الحركة هي ذات استقرار مائة بالمائة.

وحينما تضطرب الأرض يكون الزلزال، وحينما يكون الزلزال يكون الضحايا، ولو استمر زلزال أكثر من دقيقة ونصف ما بقي في مكان الزلزال شيء سالمًا.

❖ إشارة القرآن إلى وجود برزخ بين البحرين:

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]

١٩، ٢٠] من المعلوم أن هناك عدة بحار تلتقي، فالبحران: الأحمر، والأبيض، يلتقيان في قناة السويس، ويلتقي البحر الأبيض بالمحيط الأطلسي في مضيق جبل طارق، ويلتقي البحر الأحمر بالبحر العربي في مضيق باب المندب.

• فإين هذا البرزخ؟

هذه الآية لم تُفسر إلا بعد اختراع السفن الفضائية، لأنه وجد عن طريق التصوير الفضائي العالي خط بين كل بحر^(١)، فلما بحثوا وجدوه، ووجدوا أن للبحر الأحمر كثافة وله مقومات، وله مكونات، وله درجة ملوحة تختلف عن البحر الأبيض، ووجدوا أن مكونات المحيط الأطلسي وكثافته وملوحته تختلف اختلافًا بينًا عن كثافة وملوحة ومكونات البحر الأبيض، ووجدوا أن مكونات البحر الأحمر تختلف اختلافًا بينًا عن كثافة وملوحة ومكونات البحر العربي.

ولذلك أسلم أحد علماء البحار على ضوء فهمه دلالات هذه الآية، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

❖ إشارة القرآن إلى ظاهرة تنافر الضوء:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَحَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

(١) خط وهمي: هو فرق كثافة، وفرق لون.

قبل عدّة أعوام صعد الإنسان إلى القمر وفي أثناء الصعود تجاوز طبقة الهواء، وهي تزيد عن ٦٥ ألف كم، فلما تجاوز رواد الفضاء طبقة الهواء صاح أحدهم بأعلى صوته: لقد أصبحنا عمياً.

• والتفسير العلمي لأنهم أصبحوا عمياناً:

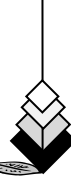
أن الهواء مع الشمس يشكل ظاهرة ضوئية اسمها التناثر، أي أن أشعة الشمس إذا سلطت على طبقات الهواء عكست هذه الذرات أشعة الشمس على ذرات أخرى لم تصلها أشعة الشمس، فصار في الأرض مكان فيه أشعة شمس ومكان فيه ضياء الشمس، وجود الضياء من دون أشعة هذه ظاهرة اسمها تناثر الضوء، فلما تجاوزنا طبقة الهواء ألغى التناثر، فصار الفضاء ظلاماً دامساً كالليل الأليل، فصاح رائد الفضاء: لقد أصبحنا عمياً، افتح القرآن: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥) ﴿[الحجر: ١٤، ١٥].

ولهذا نكرر لا يمكن أن يكون هذا الكلام كلام بشر، لأن الحقيقة التي كشفت بعد ١٤٠٠ عام ذكرها القرآن قبل ١٤٠٠ عام.

- وأكتفي بهذا القدر في هذه النقطة لأن الآيات كثيرة جداً في بيان الإعجاز العلمي.



المبحث الثاني الإعجاز الإخباري



❖ إعجاز القرآن الإخباري يتناول الماضي والحاضر والمستقبل:

• الإعجاز في الأخبار عن الماضي:

* قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾
[آل عمران: ٤٤]

* وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٤٤] ❖ [القصص: ٤٤]

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٤٥] ❖ [القصص: ٤٥]

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَ مِنْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٤٦] ❖ [القصص: ٤٦]

- ولقد جاء القرآن الكريم بآيات تبين، وتوضح التاريخ البشري بدقة

متناهية ؛ ففي مصر مثلاً كان هناك فراعة، وفي حقبة قصيرة جداً حكم مصر ملوك، الحاكم الذي عاصر سيدنا يوسف جاء ذكره في القرآن ملك فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟﴾ [يوسف: ٥٠] أما الذي عاصر سيدنا موسى كان فرعوناً: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُوا آلِئْسَ لِي مَلِكٌ وَمِصْرَ وَهَٰذِهِ﴾ [الزخرف: ٥١] هناك دقة بالغة لأن القصص من إعجاز القرآن الإخباري. (١)

- والإعجاز في الإخبار كثير في كتاب الله مثال: قصة فرعون مع سيدنا موسى، وقصة سيدنا يوسف مع ملك مصر، وقصة أقوام عادٍ وحمود جاءت بتفصيلٍ شديد ودقةٍ شديدة.

- وكل هذا ليعلم الناس أن هذا القرآن وحي الله، كما أنه تأكيد لنبوة النبي ﷺ.

• ومن الإعجاز الإخباري أيضاً:

قوله تعالى: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿[الروم: ٢ - ٤] وفعلاً في بضع سنين تزيد عن الثلاثة وتقلُّ عن التسعة غلب الرومُ الفرسُ في أدنى الأرض (٢)، قال

(١) وهناك من يقول: إن فرعون علم على شخص بعينه. وفي هذه المسألة تفصيل ليس هنا مجال التفصيل فيها.

(٢) في الآية إعجازان: إعجاز إخباري كما ذكرت، وكذلك فيها إعجاز علمي، فبعد اختراع أشعة الليزر - أمكن قياس الأبعاد بدقة متناهية، فاكشفت أن أعماق نقطة في الأرض اليابسة غور فلسطين، وقد جاءت الروايات التاريخية تشير إلى أن المعركة الشهيرة التي جرت بين الروم والفرس كانت في غور فلسطين، وقد قال الله ﷻ:

تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۚ (٢) فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

(٢) فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿[الروم: ٢ - ٤]

وفي هذا إخبارٌ عن الحاضر البعيد مكانياً عن رسول الله ﷺ.

• ومن الإعجاز الإخباري أيضاً:

قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [المائدة: ٥٤]،
ومسيلمة الكذاب ارتد عن الدين، وكتب إلى محمد ﷺ: من مسيلمة رسول
الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها
لك.

فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: من محمد رسول الله إلى مسيلمة
الكذاب، سلام على من اتبع الهدى.....

• ومن الإعجاز الإخباري أيضاً:

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي
جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد: ١ - ٥].

لو أن أبا لهب - فُكِّرَ في هذه السورة، وانطلق إلى النبي ﷺ يعلن إسلامه

=

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۚ (٢) فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ
سِنِينَ ﴿[الروم: ٢ - ٤]، ولم يكن أحدٌ يعلم قبل عشرات السنين أن غور
فلسطين أخفض نقطة في الأرض.

ظاهراً، فإنه بهذا يكون نقض الآية لو فعل، لكن إرادة الله طليقة، وعلم الله سابق والأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله ﷻ.

• ومن الإعجاز الإخباري أيضاً:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٢]

فالله وصفهم بأنهم سفهاء، وسوف يقولون كذا وكذا، فلو أنهم صمتوا لأبطلوا الآية، لكن إرادة الله طليقة، والأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله ﷻ.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ [الفتح: ١١]. وغير ذلك من الآيات.



المبحث الثالث

الإعجاز البلاغي

قبل ذكر أمثلة على الإعجاز البلاغي أقول: والله لو أمضينا حياتنا وأوقاتنا، وأعمارنا من أجل أن نقف على دقائق نظم القرآن، فلا ينتهي الأمر، لأن الله قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِدَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

❖ والآن أذكر بعض النماذج على الإعجاز البلاغي:

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]

احذف (من) الكلام ليس قرآنًا، لأن من تفيد استغراق أفراد النوع، احذف (ما) و (إلا) ليس قرآنًا، لأن أسلوب النفي والاستثناء يفيد الحصر والقصر، لو ألغينا النفي والاستثناء فقد ألغينا القصر، احذف (على) .. ما من دابة إلا الله يرزقها.. ليست قرآنًا، لأن حذف (على) ألغى الإلزام الذاتي لله ﷻ، قل: الدواب صار محدودًا (أل) العهد، بعض الدواب، الدواب الأهلية، أما جاءت دابة منكّرة، مُنكّرة تنكير شمول؛ قد تقف أمام آية ترى فيها إعجازًا بلاغيًا، هنا استثناء، هنا حصر، هنا قصر، هنا تقديم، هنا تأخير.

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]. إذا قال: نعبد إياك.. هل يختلف

المعنى؟ والجواب: نعم يختلف اختلافًا كبيرًا، إذا قلت: نعبد إياك يا رب، لا

يمنع أن نعبد غيرك، أما إذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاحة: ٥]، وسبق المفعول به الفعل فهذا أسلوب الحصر؛ أي نعبدك ولا نعبد أحدًا معك.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] لو قال: مفاتيح الغيب عنده، فهي عنده، وعند غيره، أما حينما جاءت عنده قبل مفاتيح الغيب، أصبح المعنى حصرًا؛ وهذا هو الإعجاز.

- قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]

قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ معناه الظاهر: ﴿خِفَافًا﴾، نشيطين، أو ﴿ثِقَالًا﴾، متباطئين.

ولكن ليس هذا هو المراد، لأن المراد أوسع من هذا، ولأنه ينضوي تحتها مئات المعاني. وهذا من إعجاز القرآن الكريم، وبيان ذلك كالآتي:

- شاب في أول حياته، وإنسان متقدم بالسن، هذا خفيف، وهذا ثقل.

- من لا يوجد عنده أولاد: ﴿خِفَافًا﴾، ومن عنده أولاد: ﴿ثِقَالًا﴾.

- انفروا راكبين ﴿خِفَافًا﴾، انفروا مشاة: ﴿ثِقَالًا﴾.

- انفروا بسلاح ﴿خِفَافًا﴾ أو من دون سلاح: ﴿ثِقَالًا﴾.

- انفروا في مستقبل العمر ﴿خِفَافًا﴾ أو في مؤخرة العمر: ﴿ثِقَالًا﴾.

إذن قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، جامع مانع، وهذا من إعجاز القرآن الكريم. والمعنى المراد: انفروا في كل حال.

- قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] الله
ﷻ حينما ذكر العنكبوت استعمل تاء التأنيث، معنى هذا أن من ينسج بيت
العنكبوت هي الأنثى وهذا الذي اكتشفه العلم الحديث أن أنثى العنكبوت
هي التي تبني البيت.

فهل درس النبي الكريم علم الحيوان، وعرف أن العنكبوت ذكر وأنثى،
والأنثى هي التي تنسج البيت؟ الله ﷻ هو الذي عنده علم ما خلق فقال:
﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]

- قوله تعالى: ﴿فَالنَّقَمَةُ الْخَوْثُ﴾ [الصافات: ١٤٢] لم يقل: فابتلعه، أي
بقي سيدنا يونس لقمة في فمه، ولم يصل إلى جوفه، لأن المريء في الحوت
على عظم الحوت لا يتسع لمرور الإنسان لأنه ضيق، فهل النبي الكريم شرّح
الحوت ورأى الجهاز الهضمي للحوت؟ هل عرف ضيق المريء؟

والجواب على هذا، أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَمَا
كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧].

❁ من الإعجاز البلاغي التقديم والتأخير لبعض اللفاظ:

وإليك بعض الأمثلة:

قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٣٣] لماذا بدأ الله هنا بالجن؟

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

أَلْقُرْآنِ ﴿ [الإسراء: ٨٨] لماذا بدأ هنا بالإنس؟

والجواب قيل فيه: لأن الإنس أقدر على البيان من الجن، والجن أقدر على خرق السماوات من الإنس.

قوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾ [المائدة: ٣٨]

لماذا بدأ في موضع بالزانية؟ ولماذا بدأ في آخر بالسارق؟

والجواب: قدم السارق لأن الرجل أقدر على السرقة من السارقة، بينما قدم الزانية في الزنا لأن الزنا لا يكون إلا برضا المرأة، ولهذا هي أقدر عليه من الرجل..

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ عِبَادُ اللَّهِ مُتَّفِقِينَ لَيُنَادِيَ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَكِنَّهُ بَدَأَهَا بِالْأَبِ. وَعَشِيرَتِكُمْ ﴾ [التوبة: ٢٤] ربنا ﷻ ذكر الأقرباء في هذه الآية لكنه بدأها بالأب.

وفي موطن آخر قال: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤] بدأ بالنساء.

وفي موطن ثالث: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۖ ﴾ [عبس: ٣٤]، [٣٥] بدأ بالأخ.

وفي موطن رابع بدأ بالابن: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ ﴾ [المعارج: ١١] بدأ بالابن.

وهنا نقول: إن في كل موطن قدّم الله سبحانه وتعالى الشيء المهم:

- ففي موطن اعتزاز الإنسان الاجتماعي قدّم الأب.. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤].

- وفي موطن الشهوة قدّم المرأة.. ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤].

- وفي موطن الاستنجاد قدّم الأخ، لأن الأب كبير والابن صغير، وأقرب إنسان إليك أخوك.

- وفي موطن الفدية قدّم الابن لأنه أغلى شيء.

❁ التقديم والتأخير بين السمع والبصر:

- في ثمانية عشر آية قدّم الله سبحانه وتعالى السمع على البصر، لأن العلم اكتشف أن استجابة السمع قبل استجابة البصر، أي أن الجنين يستجيب للصوت وهو في بطن أمّه، لكن الطفل المولود حديثاً لا يستجيب للضوء إلا بعد أيامٍ ثلاثة. ﴿أَفْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [المؤمنون: ٧٨] إلا في آية واحدة عبّرت عن أن سرعة الضوء أكثر من سرعة الصوت.. ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] هنا قدّم البصر على السمع.

❁ التقديم والتأخير بين النفس والمال:

* في أكثر من موطن قدّم الله بذل المال على بذل النفس كما قال تعالى: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى

أَلْقَعِيدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴿ [النساء: ٩٥].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

* وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٢٠].

* وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤].

* وقال تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٨١].

* وقال تعالى: ﴿ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

* وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَى تَحْرِيقِ نُجُوحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١٠-١١]، لأن بذل المال أهون من بذل النفس.

- وفي آية واحدة قدّم الله بذل النفس على بذل المال فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، والسرُّ هنا لأن الموطن موطن البيع القطعي فقدّم الأهمّ على المهم.

❖ ومن الإعجاز البلاغي دقة اختيار الألفاظ:

وإليك بعض الأمثلة:

- يقول ابن القيم: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] وقال: ذهب الله بنورهم ولم يقل بنارهم لأن النار فيها الاحراق. وكذلك حال المنافقين: ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم، قلوبهم قد صليت بحرّها وأذاها وسمومها ووهجها في الدنيا فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة نارًا موقدة تطلع على الأفتدة. (١)

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]

إنما قال: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ولم يقل (أنفسهم)؛ لأن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد انقضاء برهة من دهره، ويعرف ولده من حين وجوده، ثم في ذكر الابن ما ليس في ذكر النفس؛ فإن ابن الإنسان عصارة ذاته ونسخة

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٥٤)

صورته. (١)

﴿يَقُولُ فَهْدُ الْعِيَانِ: تَدَبَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾﴾
[البقرة: ١٦٨]، فتسمية استدراج الشيطان «خطوات» فيه إشارتان:

١ - الخطوة مسافة يسيرة، وهكذا الشيطان يبدأ بالشيء اليسير من البدعة أو المعصية؛ حتى تألفها النفس.

٢ - قوله: «خطوات» دليل على أن الشيطان لن يقف عند أول خطوة في المعصية. (٢)

﴿قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾﴾
[البقرة: ٢٨٢] إِنَّمَا قَالَ: «بَيْنَكُمْ» وَلَمْ يَقُلْ أَحَدُكُمْ، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الَّذِي لَهُ الدِّينُ يَتَّهِمُ فِي الْكِتَابَةِ الَّذِي عَلَيْهِ الدِّينُ وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ شَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ كَاتِبًا غَيْرَهُمَا يَكْتُبُ بِالْعَدْلِ لَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ وَلَا قَلَمِهِ مَوَادَّةٌ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ. (٣)

﴿قَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾﴾ [آل عمران: ٥٢] إِنَّمَا قَالَ: فَلَمَّا أَحَسَّ دُونَ (عِلْمٍ) وَغَيْرَهَا؛ تَنْبِيْهُاً أَنَّهُ ظَهَرَ مِنْهُمْ الْكُفْرَ ظَهْورًا بَادِيًا لِذِي الْحَاسَةِ، فَضْلًا لِذِي الْعَقْلِ. (٤)

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: (١/ ٣٣٨).

(٢) نقلًا عن حصاد التدبر.

(٣) تفسير القرطبي (٣/ ٣٨٣).

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/ ٥٨٢).

﴿يقول ابن عجيبة الفاسي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾﴾ [النساء: ٦] إنما قال: «حسيباً» ولم يقل: «شهيذاً»، مع مناسبته، تهديداً للأوصياء لئلا يكتموا شيئاً من مال اليتامى، فإذا علموا أن الله يحاسبهم على النقيير والقطمير، ويعاقبهم عليه، انزجروا عن الكتمان. والله تعالى أعلم. (١)

﴿يقول ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾﴾ [النساء: ١٢] تأمل تعليقه سبحانه التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة؛ إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجة المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين. (٢)

٨- يقول ابن عثيمين: تأمل: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] لم يقل سجدوا، كأن شيئاً اضطربهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار؛ لقوة ما رأوا من الآية العظيمة. (٣)

٩- يقول صاحب اللمسات البانية في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٤٦٦).

(٢) جلاء الأفهام: (٢٦٢).

(٣) انظر: تفسير سورة ق لابن عثيمين. بتصرف يسير.

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١]، لو تدبرت التقابل البديع في هذه الآية لو قفت خاشعاً لله!

انظر كيف عبر في جانب الحسنه بالمجيء! في حين عبر في جانب السيئه بالإصابة! لأنها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقب.

وفي التعبير عن السيئه بـ (تُصِيبُهُمْ) دقة؛ فالإصابة وحدها توحى بالسوء، فكيف إذا عدّى الإصابة بالسيئه فهو ألم فوق ألم! (١)

يقول ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ فعدل سبحانه عن قوله سكن إلى قوله «سكت» تنزيلاً للغضب منزلة السلطان الأمر الناهي الذي يقول لصاحبه: افعَل لا تفعل فهو مستجيب لداعي الغضب الناطق فيه المتكلم على لسانه فهو أولى بان يعذر من المكره الذي لم يتسلط عليه غضب يأمره وينهاه كما سيأتي تقريره بعد هذا إن شاء الله وإذا كان الغضب هو الناطق على لسانه. (٢)

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦]، إِنَّمَا قَالَ: (يَنْقُضُونَ) بِفِعْلِ الْإِسْتِقْبَالِ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ نَقَضُوهُ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ، لِإِفَادَةِ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هَفْوَةً رَجَعُوا عَنْهَا، وَنَدِمُوا عَلَيْهَا كَمَا سَيَأْتِي عَنْ بَعْضِهِمْ، بَلْ أَنَّهُمْ

(١) انظر: لمسات بيانية لفاضل السامرائي.

(٢) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (ص: ٣٤)

يَنْقُضُونَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَإِنْ تَكَرَّرَ، وَهُوَ يَصْدُقُ عَلَى عُهُودِ طَوَائِفِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الْمَدِينَةِ فِي جُمْلَتِهِمْ. (١)

- قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]

﴿قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلَفَا أَيْهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبْلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّىٰ قَضَىٰ اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِفْنَا تَخَلُّفًا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِزْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. (٢)

﴿يقول ابن القيم معلقاً: قَدْ فَسَّرَهَا كَعْبٌ بِالصَّوَابِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خُلِفُوا مِنْ بَيْنِ مَنْ حَلَفَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاعْتَذَرَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَخَلَفَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ عَنْهُمْ، وَأَرْجَأَ أَمْرَهُمْ دُونَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ تَخَلُّفَهُمْ عَنِ الْغَزْوِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَقَالَ: تَخَلَّفُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ تَخَلَّفُوا بِأَنْفُسِهِمْ، بِخِلَافِ تَخْلِيفِهِمْ عَنْ أَمْرِ الْمُتَخَلِّفِينَ سِوَاهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ

(١) تفسير المنار (١٠ / ٤٣).

(٢) تفسير القرطبي (٨ / ٢٨٢).

الَّذِي خَلَقَهُمْ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُ بِأَنْفُسِهِمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١)

﴿يقول الدكتور عبد العزيز الجليل في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾﴾ [هود: ٤٢] قال نوح لابنه ﴿أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل مع الغارقين أو مع الهالكين لأن المصيبة العظمى هي في الكفر وليست في الموت غرقا والله أعلم.

- قال تعالى: ﴿وَأَسْبَقَ الْأَبَ﴾ [يوسف: ٢٥] ولم يقل: واستبقا (إلى) الباب:

١- لأن الاستباق ليس مقصوداً لذاته، بل هو وسيلة، والمقصود هو الباب، ولو قيل: استبقا إلى الباب؛ لكان الباب منتهى السباق؛ لأنه يتجاوز الباب يتغير المكان والموقف كله، لذا كانت حريصة على منعه من ذلك.

٢- وليشير إلى سرعة الوصول، حتى لكانهما في لحظة قد وصلا الباب. (٢)

﴿يقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾﴾ [إبراهيم: ٢١] إِنَّمَا قَالَ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ مَعَ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ عَالِمًا بِهِمْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَحْوَالِهِمْ بَرَزُوا أَوْ لَمْ يَبْرَزُوا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَتِرُونَ عَنِ الْعُيُونِ عِنْدَ فِعْلِهِمْ

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٥١٨)

(٢) جماليات النظم القرآني.

لِلْمَعَاصِي، وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَالْكَلَامُ خَارِجٌ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ. (١)

✎ يقول الدكتور ناصر العمر: تدبر قول إبراهيم: ﴿فَجَعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فلم يقل: فاجعل بعض الناس يأتي إليهم، لأن مجرد المجيء قد لا يتحقق معه المراد والغاية، بل ربما حدث الضد. لكن إذا هوت الأفئدة، أتت الأبدان تبعاً، وتحقق الحب والتآلف والأنس الذي هم بأمس الحاجة إليه، وقد أجاب الله دعاءه، فتحقق مراده.

✎ يقول الدكتور صالح العايد في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمَرِنَحَّةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا﴾ [الأنبياء: ٤٦] تأمل هذا التهديد والوعيد بأسلوب بديع: (المس) هو الإصابة الخفيفة، و(النفحة): القليل من الشيء، و(من) دالة على التبعض، و(العذاب) أخف من النكال، و(ربك) هذا يدل على الشفقة. إن من سيكون هذا واقعه عند أول نفحة تمسه من بعض عذاب رب رحيم، كيف سيصبر على أنكال لدى الجبار؟! إنه لحري أن يبادر بالنجاة منه. (٢)

- قال تعالى في شأن المرأة التي وهبت نفسها: ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ١٢٣).

(٢) انظر: نظرات لغوية.

ﷺ قال الزجاج: ولم يقل: (إن وهبت نفسها لك)؛ لأنه لو قال: (لك) جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله - ﷺ - كما جاز في بنات العم وبنات العمات - والله أعلم - (١) وغير ذلك كثير.

❖ ومن صور الإعجاز: الإيجاز وجمع المعاني المتعددة:

وإليك بعض الأمثلة:

١ - يؤخذ من سورة الفاتحة إيجاز المقدمة لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود وهو ظاهر في الفاتحة، وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة كي لا ينسبوا إلى العي فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة. (٢)

٢ - يقول دكتور محمد القحطاني في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]: هذا أول نداء في القرآن لأهل الإيمان في ترتيب المصحف.

وقد اشتمل على الآتي:

١ - أصل عقدي: النهي عن التشبه بالكفار، وخاصة اليهود.

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣ / ٤٧٤)

(٢) التحرير والتنوير (١ / ١٥٣).

٢- قاعدة شرعية: قاعدة سد الذرائع.

٣- أدب شريف: انتقاء أنسب الألفاظ والعبارات.

٤- طريقة تربوية: وهي إيجاد البدائل لما نهى عنه قدر الإمكان. (١)

٣- قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، يقول القرطبي في هذه الآية:

﴿قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أُمَمَاتِ الْأَحْكَامِ، لِأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ سِتَّ عَشْرَةَ قَاعِدَةً: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ - وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهَا فِي «الْكِتَابِ الْأَسْنَى» - وَالنَّشْرُ وَالْحَشْرُ وَالْمِيزَانُ وَالصِّرَاطُ وَالْحَوْضُ وَالشَّفَاعَةُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ - وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهَا فِي كِتَابِ «التَّذْكِرَةِ» - وَالْمَلَائِكَةُ وَالْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ وَأَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَالنَّبِيُّنَ وَإِنْفَاقَ الْمَالِ فِيمَا يَحِلُّ مِنَ الْوَاجِبِ وَالْمُنْدُوبِ وَإِصْلَاحَ الْقَرَابَةِ وَتَرْكَ قَطْعِهِمْ وَتَفَقُّدَ الْيَتِيمِ وَعَدَمَ إِهْمَالِهِ وَالْمَسَاكِينَ كَذَلِكَ، وَمُرَاعَاةَ ابْنِ السَّبِيلِ - قِيلَ الْمُنْقَطِعُ بِهِ، وَقِيلَ: الضَّيْفُ - وَالسُّؤَالُ وَفَكَ الرِّقَابِ. وَسَيَأْتِي بَيَانُ هَذَا فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ وَالصَّبْرَ فِي الشَّدَائِدِ. وَكُلُّ قَاعِدَةٍ مِنْ

(١) انظر حصاد سبعة أعوام من التدبر

هَذِهِ الْقَوَاعِدُ تَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ. (١)

٤ - قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

﴿البقرة: ١٧٩﴾

يقول السيوطي: فَإِنَّ مَعْنَاهُ كَثِيرٌ وَلَفْظُهُ قَلِيلٌ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مَتَى قَتَلَ قَتِيلَ كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا إِلَى أَلَّا يُقَدِّمَ عَلَى الْقَتْلِ فَارْتَفَعَ بِالْقَتْلِ الَّذِي هُوَ الْقِصَاصُ كَثِيرٌ مِنْ قَتْلِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَكَانَ ارْتِفَاعُ الْقَتْلِ حَيَاةً لَهُمْ وَقَدْ فَضِّلَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى أَوْجَزِ مَا كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَهُوَ قَوْلُهُمْ «الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ» بِعَشْرِينَ وَجْهًا أَوْ أَكْثَرَ وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ الْأَثِيرِ إِلَى إِنْكَارِ هَذَا التَّفْضِيلِ وَقَالَ: لَا تَشْبِيهِ بَيْنَ كَلَامِ الْخَالِقِ وَكَلَامِ الْمَخْلُوقِ وَإِنَّمَا الْعُلَمَاءُ يَفْدَحُونَ أَذْهَانَهُمْ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. (٢)

٥ - من بلاغة القرآن في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحِجِّ وَسَبْعَةٍ

إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] فحذف المفعول للعموم ليشمل من لم يجد الهدى، أو ثمنه؛ فاستفيد زيادة المعنى مع اختصار اللفظ. (٣)

٦ - وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٤١).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٣/ ١٨٥).

- وللدكتور عمر المقبل كلام طيب حول قوله تعالى: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ [البقرة:

١٧٩] انظره في كتابه خمسون قاعدة قرآنية في النفس والحياة.

(٣) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٢/ ٤٠٩).

بِرَبِّكُمْ فَمَا مَنَّا رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١﴾ [آل

عمران: ١٩٣]

﴿١﴾ يقول ابن القيم: فيها فوائد:

- ١- الإيمان بالمرسل، وبصدق الرسول.
- ٢- تزكية الرسل بأنهم بلغوا عن الله.
- ٣- ربوبية الله سبب عقلي موجب للإيمان به.
- ٤- التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، وأعظمها: الإيمان به، وذلك من أدب الدعاء.
- ٥- أن من أعظم ما يطلب: مغفرة الذنوب. (١)

٧- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨] قال القرطبي: هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أُمّهَاتِ الْأَحْكَامِ تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ. (٢)

٨- وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ

(١) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٨٩) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (٥ / ٢٥٥)

أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ
وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦] دلت آية
الوضوء: على سبعة أصول، كلها مثني:

طهارتان: الوضوء والغسل.

ومطهران: الماء والتراب.

وحكمان: الغسل والمسح.

وموجبان: الحدث والجنابة.

ومبيحان: المرض والسفر.

وكنائتان: الغائط والملاسة.

وكرامتان: تطهير الذنوب وإتمام النعمة. (١)

٩- وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦] يقول ابن القيم: فتأمل
الْفَاطَظَ هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا جَمَعْتَهُ مِنْ عُمُومِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْمَلِكِ وَمِنْ تَمَامِ
الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الرَّدِّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ فَأَنَّهَا مِنْ
كَنُوزِ الْقُرْآنِ وَلَقَدْ كَفَتْ وَشَفَتْ لِمَنْ فَتَحَ عَلَيْهِ بِفَهْمِهَا. (٢)

(١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح، نقلاً عن حصاد التدبر.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (٧٩ / ٢).

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، يقول العز بن عبد السلام: أجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها، والزجر عن المفاسد بأسرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ فلا يبقى من دقيق العدل وجليله إلا اندرج في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ). (١)

ويقول السيوطي فيها: وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعُ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَخْرَجَهُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَهَا يَوْمًا ثُمَّ وَقَفَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمَعَ لَكُمْ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَالشَّرَّ كُلَّهُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَوَاللَّهِ مَا تَرَكَ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا جَمَعَهُ وَلَا تَرَكَ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ وَالْبَغْيَ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا جَمَعَهُ. (٢)

١١- وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ

لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]

(١) المصدر / العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام

(٢) الإيتقان في علوم القرآن (٣ / ١٨٢ / ١٨٣).

﴿يقول ابن عثيمين: ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١. توحيد الربوبية.

٢. توحيد الألوهية.

٣. توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ

وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]. (١)

١٦ - وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَلَّىٰ وَادٍ الثَّمَلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّملُ

أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]،

يقول السيوطي: جَمَعَ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَحَدَ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْكَلَامِ نَادَتْ

وَكُنْتُ وَبَهْتُ وَسَمَّيْتُ وَأَمَرْتُ وَقَصَّيْتُ وَحَذَرْتُ وَخَصَّيْتُ وَعَمَّيْتُ وَأَشَارْتُ

وَعَذَرْتُ فَالنِّدَاءُ «يَا» وَالْكِنَايَةُ «أَيُّ» وَالتَّنْبِيهُ «هَا» وَالتَّسْمِيَةُ «النَّمْلُ» وَالْأَمْرُ

«ادْخُلُوا» وَالْقَصَصُ «مَسَاكِنَكُمْ» وَالتَّحْذِيرُ «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ» وَالتَّخْصِيصُ

«سُلَيْمَانُ» وَالتَّعْميمُ «جُنُودُهُ» وَالْإِشَارَةُ «وَهُمْ» وَالْعَذْرُ «لَا يَشْعُرُونَ» فَأَدَّتْ

خمس حُقُوقَ حَقِّ اللَّهِ وَحَقَّ رُسُولِهِ وَحَقَّهَا وَحَقَّ رَعِيَّتِهَا وَحَقَّ جُنُودِ

سليمان! (٢)

١٧ - وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١ / ١٢).

(٢) الإيتقان في علوم القرآن (٣ / ١٨٤).

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
[القصص: ٧] يقول القرطبي: جمع الله تعالى في هذه الآية بين أمرين، ونهيين،
وخبيرين، وبشارتين؛ فتأملها فتح الله على قلبك. (١)

١٨- وفي قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنَ ۚ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، يقول الباقلاني: وهي خمس كلمات،
متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من
الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع. (٢)

٢٠- سورة العصر على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير
بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء
هادياً إلى كل خير. (٣)

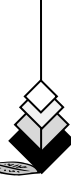


(١) تفسير القرطبي: (١ / ٧٦)

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني: (ص: ١٩٤)

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: (١ / ٥٧).

المبحث الرابع الإعجاز الحسابي



❖ من الإعجاز الحسابي ما يلي:

- ١- كلمة (اليوم) في القرآن الكريم وردت ثلاثمائة وخمسة وستين مرة، حصراً! بعدد أيام السنة.
- ٢- كلمة شهر وردت اثنتا عشرة مرة، بالضبط، عدد شهور العام.
- ٣- آيات النار تكافئ آيات الجنة بالعدد والتمام!
- ٤- آيات الملائكة تكافئ آيات الشياطين!
- ٥- آيات الدنيا تكافئ آيات الآخرة!
- ٦- كلمة البرّ جاءت في القرآن ثلاث عشرة مرّة حصراً؟ وكلمة البحر جاءت ثلاثاً وثلاثين مرّة. فإذا جمّعنا البرّ إلى البحر أصبح الرّقم ستّاً وأربعين، فإذا وَضَعْنَا الثلاث عشرة صورة، والستّة والأربعين مخرجاً، رأينا نسبة البرّ إلى الأرض! نسبة عدد كلمات البرّ إلى البحر كنسبة البرّ إلى البحر بالضبط والتمام!! وهذا شيء فوق طاقة البشر!

- أيها القارئ الكريم:

إن في القرآن بحوثاً في الإحكام الحسابي لا يعلمها إلا الله، ونسأل الله العلم والإيمان والفهم.

• أختتم حديثي حول هذه الرسالة ببعض التنبيهات والتوجيهات:

• أولاً: القرآن الكريم فيه شيء رائع جداً:

وهو أن الآية وهي في سياقها لها معنى، فإذا نزعناها من سياقها وقرأناها وحدها فلها معنى آخر، هذا المعنى تؤدي به معنى شمولياً كبيراً جداً. وهذا من إعجاز القرآن، ولذلك يجب أن نتعاش مع القرآن بالطريقتين.

• ثانياً: هناك ثلاثة ثوابت في الحياة تدل على الله، وهي:

١ - الكون.

٢ - إعجاز القرآن الذي يدل على أن القرآن كلام الله.

٣ - إعجاز القرآن الذي يدل على أن الذي جاء به هو رسول الله ﷺ.

فإذا آمنت بالله خالقاً وموجداً، وواحداً وكاملاً، وآمنت أن هذا القرآن كلامه، وأن الذي جاء بهذا الكلام وفسّره وبينه لك هو رسوله ﷺ، فقد استكملت الإيمان العقلي، وبقي عليك أن تستكمل الإيمان الإخباري، وهو أن تؤمن بكل شيء أخبرك الله به في القرآن، أو أخبرك به النبي عليه الصلاة والسلام في السنة، وهو الجانب الآخر المسموع من الوحي.

• ثالثاً: مهمة كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله:

أيها القارئ الكريم:

إذا قرأت كلام الله وخفت مع آية التحذير، واطمأنت مع آية البشارة، وابتعدت عن كل شيء نهى الله عنه، وبادرت إلى كل شيء أمر الله به، عندئذ تكون على يقين من أن هذا القرآن كلام الله؛ أما إذا لم تعبأ بأمره ونهيه، ولا

بوعده ووعيدة، ولا بما ينتظر المؤمن من جنّة، ولا بما ينتظر الكافر من نار، ولم تعباً بأخباره عندئذٍ لا يرقى إيمانك بهذا الكتاب إلى المستوى المطلوب، فهذه مهمة كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله.

• رابعاً: لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن:

لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن، وهذا ما قاله أحد كبار الوزراء في بريطانيا قال: «مادام هذا الكتاب بين أيديهم لن تستطيعوا أن تنتصروا عليهم»

- إن هذا القرآن منهج للتطبيق، وللعمل به. لكننا للأسف نقرأه على الأموات، نقرأه في المناسبات، نقتنيه كتحفة من المتحف.

رأى سيدنا عمر رجلاً يقرأ القرآن ويبدو أنه لا يعمل به، فقال: «قتلهم الله إنما أنزل هذا القرآن ليُعمل به أفتخذت قراءته عملاً؟ أفتخذت قراءته عملاً؟» يجب أن تعمل به لا أن ترتزق منه، هذا منهجنا وهذا كلام ربنا.

• خامساً: الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ، جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾

[الفرقان: ٥٢]

سمّى ربنا تعلم القرآن وتعليمه جهاداً كبيراً، وهذا الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد.

فمن الجهاد أن تُرَسِّخ معاني هذا الكتاب، وأن تُنفع الناس بأحقية هذا القرآن، وأن تحملهم على تطبيق أحكامه، واتباع أمره ونهيه.

ولنتدبر قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. سنجد أنه توجيه رباني للرسول عليه الصلاة والسلام، وللأمة من بعده، أن تجعل القرآن الكريم أداة ووسيلة تستعين بها في جهاد أعدائها، وتعتبره السلاح الأول والأساسي والفعال في هذا الجهاد.

والقرآن ما زال مستعدًا وجاهزًا وقادرًا بعون الله، فأين المقبلون عليه؟ الحاملون له؟ المتحركون به؟ المواجهون للأعداء من خلاله وعلى هديه؟؟

وليعلم كل مسلم أن من حارب القرآن فقد حارب الله، ومصير كل من حارب الله معروف في التاريخ، وصدق الله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ [الصف: ٨، ٩].

• وما يجب التنبيه عليه في قضية الوعظ:

أن بعض المتحدثين والخطباء يريدون وعظ الناس بعيدًا عن كلام الله سبحانه وتعالى، ولسان حالهم يقول: نريد أن نواكب التطور والحدثة والواقع.

ويستعينون بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى يكون للكلام أثر كما يظنون. وهذا فهم مغلوط، وتحقير لما عظمه الله سبحانه وتعالى.

ومن خلال حياتي وخدمتي لكتاب الله وحديثي على المنابر بفضل الله رب العالمين، لم أجد شيئًا له وقع على الناس والنفوس مثل كلام الله الملك سبحانه وتعالى، وصدق من قال: كلام الملك ملك الكلام، خصوصًا وأن

الله قال: ﴿قُلْ أَى شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ أَنْ لَا تَذَرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧]. وغير ذلك من الآيات التي تؤكد على أن كلام الله خير ما يوعظ به خلق الله.

ولنتأمل جيداً قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] بعدها قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] فالباطل يزهد أمام الحق، والحق الواضح الكامل في كلام الله تعالى.

- ومن هنا أهمس في أذن كل متحدث وخطيب عليك بكلام الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ ففيهما العصمة من الزلل والزيغ ثم بعد ذلك لا مانع من العلوم الأخرى. (١)



(١) نقلا عن كتاب: (فتح المنان في بيان تناسب ومقاصد سور القرآن). للفقير إلى عفو ربه. بتصرف يسير.

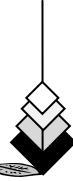
الفصل الرابع

رسالتان يحدثنا فيهما ربنا

عن الرسول ﷺ

المبحث الأول

فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ



هذه رسالة ربانية يُعَلِّمُنَا فِيهَا رَبُّنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] أن البلاغ المبين وظيفة رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهذا أمر يجب الإيمان به بنص هذه الآية وغيرها، والآن نطوِّف حول هذه الرسالة الربانية.

البلاغ المبين:

الرسول سفراء الله إلى عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم الأولى هي إبلاغ هذه الأمانة^(١) التي تحملوها إلى عباد الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم خشية الناس، وهو يبلغهم ما يخالف معتقداتهم، ويأمرهم بما يستنكرونه، وينهاهم عما ألفوه، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا

(١) لا تقف مهمة الرسل عند حدّ بيان الحقّ وإبلاغه بل عليهم وظائف أخرى وهي:

- ١ - الدّعوة إلى الله.
- ٢ - التبشير والإنذار.
- ٣ - إصلاح النفوس وتركيتها.
- ٤ - تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة.
- ٥ - إقامة الحجّة.
- ٦ - سياسة الأمة.

ومن أراد التفصيل في هذه الوظائف فليرجع لكتاب الرسل والرسالات للدكتور الأشقر.

يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴿٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩].

❁ كيف يكون البلاغ:

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ﴿٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿١٥١﴾ [البقرة: ١٥١]، فإذا كان الموحى به ليس نصاً يتلى، فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير.

• ومن البلاغ:

أن يوضح الرسول الوحي الذي أنزله الله لعباده، لأنه أقدر من غيره على التعرف على معانيه ومرامييه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه، وفي ذلك يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُوتَ﴾ [النحل: ٤٤].

❁ طرق البيان للوحي:

١ - البيان بالقول:

البيان من الرسول للوحي يكون بالقول، فقد بين الرسول - ﷺ - أموراً كثيرة استشكلها أصحابه، كما بين المراد من الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ هُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فقد بين الرسول - ﷺ - أن المراد به الشرك، لا ظلم النفس بالذنوب.

وكما بين الرسول - ﷺ - الآيات المجملة في الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك بقوله.

٢ - البيان بالفعل:

كما يكون البيان بالقول يكون بالفعل، فقد كانت أفعال الرسول - ﷺ - في الصلاة والصدقة والحج وغير ذلك بيانا لكثير من النصوص القرآنية.

وعندما يتولى الناس، ويعرضون عن دعوة الرسل، فإن الرسل لا يملكون غير البلاغ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]. (١)

- وقبل أن أفارق هذه النقطة أذكر عدة مسائل متعلقة ببلاغ رسولنا ﷺ وهي كالآتي: (٢)

الأولى: الرُّسُولُ - ﷺ مَبْلُغٌ عَنِ اللَّهِ ﷻ، لَمْ يَقُلْ شَيْئًا مِنْ رَأْيِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّبْلِيغِ، بَلْ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا بَلَاغُ الرِّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ، وَتِلَاوَةُ آيَاتِهِ عَلَى النَّاسِ، وَتَعْلِيمُهُمُ الْحِكْمَةَ وَالتَّبَيَانَ، وَذَلِكَ مَعْنَى كَوْنِهِ ﷺ - رَسُولَ اللَّهِ فَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ تَبْلِيغٌ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَخْبَارُهُ وَقَصَصُهُ تَبْلِيغٌ لِمَا قَصَّهُ اللَّهُ وَأَخْبَرَ بِهِ، وَلِذَا كَانَ طَاعَتُهُ طَاعَةً لِلَّهِ ﷻ، وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَةً لِلَّهِ ﷻ، وَتَكْذِيبُهُ تَكْذِيبًا لِأَخْبَارِ اللَّهِ ﷻ فِي أَنَّهُ رَسُولُهُ.

* قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٨) مَن يُطِيع

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿[النساء: ٧٩-٨٠]

(١) الرسل والرسالات: (ص: ٤٣ / ٤٥).

(٢) انظر معارج القبول بشرح سلم الوصول (٣ / ١١٠٦ / ١١١٤). بتصرف.

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧].

* وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٣-٥] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَيْتَنِي فُرَيْشٌ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ حَتَّى ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ: «اَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا الْحَقُّ» (١).

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا». قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: فَإِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. قَالَ: «إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا» (٢)،

(١) أحمد (٢/ ١٦٢ و ١٩٢) وأبو داود (٣/ ٣١٨ ح ٣٦٤٦) وهو حديث صحيح.

(٢) أحمد (٢/ ٣٤٠ و ٣٦٠) والترمذي (٤/ ٣٥٧ ح ١٩٩٠) وقال: هذا حديث

حسن صحيح. والشمال (٢/ ٣٤) والبغوي في شرح السنة (ح ٣٦٠٣).

وَلِلْبَزَارِ عَنْهُ رحمته الله عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلوات الله عليه قَالَ: «مَا أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ» (١) وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) [الحاقة: ٤٤-٤٦] الْآيَاتِ

المسألة الثانية:

أَنَّهُ - صلوات الله عليه - بَلَغَ جَمِيعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ لَمْ يَكْتُمْ مِنْهُ حَرْفًا وَاحِدًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمَحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاخٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ

(١) البزار (١/ ١١٢ / ح ٢٠٣). وقال الهيثمي: إسناده حسن.

يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ» (١).

الْمَسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي بَلَّغَهُ الرَّسُولُ - ﷺ - عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى هُوَ جَمِيعُ دِينِ الْإِسْلَامِ مُكَمَّلًا مُحْكَمًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ نَقْصٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَكْمِيلٍ وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ إِشْكَالٌ فَيَحْتَاجُ إِلَى حُلٍّ، وَلَا إِجْمَالٌ فَيَقْتَرِ إِلَى تَفْصِيلٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فَكَمَا أَنَّ الْإِمَامَ الْمُبِينَ قَدْ أَحْصَى كُلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ، كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﷻ، فَكَذَلِكَ هَذَا الْقُرْآنُ وَافٍ شَافٍ كَافٍ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَصُولِ الشَّرِيعَةِ وَفُرُوعِهَا وَأَقْوَالِهَا وَأَعْمَالِهَا وَسِرِّهَا وَعَلَانِيَتِهَا، فَمَنْ لَمْ يَكْفِهِ فَلَا كُفْيَ، وَمَنْ لَمْ يَشْفِهِ فَلَا شُفْيَ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] ﴿فَأَيُّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ وَكَمَا وَفَى بِتَقْرِيرِ الدِّينِ وَتَكْمِيلِهِ وَشَرْحِهِ وَتَفْصِيلِهِ كَذَلِكَ هُوَ وَافٍ بِالذَّبِّ عَنْهُ وَبَرَدٌ كُلُّ شُبْهَةٍ تَرُدُّ عَلَيْهِ، وَبَقْمَعٍ كُلُّ مُلْحِدٍ وَمُعَانِدٍ وَمُشَاقٍّ وَمُحَادٍّ، وَبِدَمْعٍ كُلِّ بَاطِلٍ وَإِزْهَاقِهِ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [٣٣] [الفرقان: ٣٣] ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفَظُونَهُ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) البخاري «٦ / ١٨٥» في الجهاد، باب الغلول وقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ومسلم «٣ / ١٤٦١ / ح ١٨٣١» في الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول.

يُحَدِّثُونَ فِيهِ ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْهَا ؕ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ؕ
 أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ
 عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ؕ تَنْزِيلُ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا
 يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ
 جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ ءِئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَرَفُوا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 هُدًى وَشِفَاءٌ ؕ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ؕ أُولَٰئِكَ
 يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ [فصلت: ٤٠-٤٤].

وَكَذَٰلِكَ السُّنَّةُ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِ الرَّسُولِ - ﷺ - الَّتِي اخْتَصَّهَ اللَّهُ بِهَا، هِيَ
 رُوحُ الْمَعَانِي وَالْوَحْيُ الثَّانِي، وَالْحِكْمَةُ وَالْيَبَانُ وَتَبَيُّانُ الْقُرْآنِ، وَالنُّورُ
 وَالْبُرْهَانُ. فَلَمْ يَتَوَفَّ - ﷺ - حَتَّى بَيَّنَّ الشَّرِيعَةَ أَكْمَلَ بَيَانٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَتَوَفَّاهُ
 اللَّهُ تَعَالَى قَبْلَ بَيَانِ مَا بِالنَّاسِ إِلَيْهِ حَاجَةٌ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَاللَّهُ
 تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤] وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
 لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤] ثُمَّ يُخَبِّرُ أَنَّ مَا
 أُنزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِذَٰلِكَ، فَكَيْفَ يَتَوَفَّاهُ قَبْلَ إِنْقَادِ ذَٰلِكَ وَإِنْجَاذِهِ، مَعَ قَوْلِهِ
 تَعَالَى لَهُ - ﷺ - وَلَا مَتَّهِ كُلَّهُمْ: ﴿وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾
 كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ [البقرة: ١٥٠-١٥١]
 فَكَيْفَ يَعِدُنَا تَعَالَى بِإِتْمَامِ النُّعْمَةِ وَإِكْمَالِ الدِّينِ ثُمَّ يَتَوَفَّى رَسُولَهُ قَبْلَ إِنْجَاذِ

ذَلِكَ وَهُوَ ﷻ ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾؟

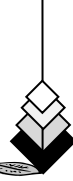
وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا مَا تَوَفَّاهُ اللَّهُ ﷻ حَتَّىٰ بَلَغَ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ أَكْمَلَ بِلَاغٍ وَبَيَّنَّهٗ أَتَمَّ بَيَانٍ وَفَصَّلَهُ أَوْضَحَ تَفْصِيلٍ وَأَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ وَأَتَمَّ عَلَيْنَا النِّعْمَةَ وَلِهَذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي آخِرِ مَا أُنْزِلَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ هُوَ وَأُمَّتُهُ وَهَدَاهُمْ لَهُ فِي أَشْرَفِ مَوْقِفٍ وَأَفْضَلِ عَشِيَّةٍ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ وَهُوَ وَقِفُ بَعْرِفَةٍ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ الْأَعْظَمِ الَّذِي لَمْ يَتَّفِقْ وَقُوعٌ مِثْلُهُ وَلَمْ يَتَّفِقْ أَكْثَرُ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بَعْدَهُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فَأَخْبَرَ فِيهَا بِإِكْمَالِ دِينِهِ الَّذِي وَعَدَنَا إِظْهَارَهُ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وَبِإِتْمَامِهِ النِّعْمَةَ كَمَا وَعَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وَهُوَ الْإِسْلَامُ، أَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ - ﷺ - وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ قَدْ أَكْمَلَ لَهُمْ شَرَائِعَ الْإِيمَانِ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى زِيَادَةٍ أَبَدًا، وَقَدْ أَتَمَّهُ فَلَا يَنْقُصُهُ أَبَدًا، وَقَدْ رَضِيَهُ فَلَا يُسْخِطُهُ أَبَدًا. (١)



(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره «٦ / ٧٩» وابن المنذر كما في الدر المنثور «٣ / ١٧».

المبحث الثاني

وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ



هذه رسالة ربانية يُعَلِّمُنَا فِيهَا رَبُّنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧]. بسمو المقام المحمدي وشرف منزلته ﷺ.

- وهذه الرسالة الربانية فيها دلالات عظيمة وقضايا كبيرة، ومن هذه القضايا:

١- بيان مكانة الرسول وشرف منزلته ﷺ.

٢- بيان أهمية اتباع السنة وعِظَم منزلتها.

ونسأل الله التوفيق لتوضيح هذه القضايا، والآن نطوِّف حول هذه الرسالة الربانية.

إن هذه الرسالة القرآنية تذكر الصحابة بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها ويتبهاوا دائماً لوجودها: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾..

وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت. ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة فتقول السماء للأرض وتخبر أهلها

عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوّم خطاهم أولاً بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة فإذا السماء تطلع، وإذا الله - جل جلاله - ينبيء رسوله بما وقع، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع.. إنه لأمر. وإنه لنبأ عظيم. وإنها لحقيقة هائلة. قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.. اعلموا هذا وقدروه حق قدره، فهو أمر عظيم.

- قلت: (محمد): وإذا كان هذا في حق الصحابة الذين عاشوا مع رسول الله ﷺ ورأوه، فما حالنا نحن الآن، ورسول الله قد مات؟

والجواب على هذا نقول فيه: إن قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فيه خطاب لنا أيضاً لأن الرسول ﷺ فينا... فينا بسنته، وسيرته، وأحاديثه، ومواقفه، وشمائله كلها التي بين أيدينا.

- ومن المناسب هنا أن أوضح قضية خطيرة وهي ربانية المصدر والمنهج الذي جاء به الرسول ﷺ.

﴿فأقول مستعيناً بالله:﴾

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى

والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده.

* كما قال تعالى يخاطبهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ ﴿١٧٤﴾ [النساء: ١٧٤].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

* وقال يخاطب رسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

* وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ [النحل: ٨٩]

* وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿١﴾ [إبراهيم: ١]

❖ موضع الرسول في هذا المنهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج، ولهذا يضاف إليه فيقال: منهج الله، أو «صراط الله» على حد تعبير القرآن العزيز، وإضافته إلى الله تعني أن الله - جل شأنه - هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول ﷺ فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره.

* يقول تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِي نَفْسِي ۚ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ قُلْ لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: ١٥-١٦].

* ويقول الله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ وَمَا يَنْطُوقُ عَنِ الْهَوَىٰ ٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: ١-٤].

ومن تدبر القرآن وجد الرسول ﷺ، فيه مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطنة أعلى منه، محيططة به، قادرة عليه، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور، كما في قصة ابن أم مكتوم، وأسرى بدر، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وزينب بنت جحش، وغيرها. فالحقيقة أن القرآن هو كلام الله وحده قال تعالى: ﴿وَلَنُنَزِّلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١١٥﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فليس لمحمد ﷺ من هذا القرآن إلا التلقي والحفظ قال تعالى: ﴿لَا

تَحْرُكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۖ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ، (١٨) ثُمَّ
إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ، (١٩) ﴿[القيامة: ١٦ - ١٩].

* وقال تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

* وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) ﴿[الأعلى: ٦، ٧].

* وبعد التلقي والحفظ على الرسول ﷺ التبليغ والدعوة قال تعالى:
﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:
٦٧]، ثم التفسير والبيان قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ (٤٤) ﴿[النحل: ٤٤].

والسنة التي قد بينت القرآن، هي نفسها وحي إلهي، ولكنه وحي غير
متلو ولا معجز كالقرآن الكريم.

وما جاء في هذه السنة عن طريق الاجتهاد، فإن الله تعالى لا يقره على
الخطأ فيه، بل ينزل الوحي مصححاً ومصوباً، أو مثبتاً ومؤكداً. (١)

(١) من أراد التوسع في هذه المسألة فليراجع كتابي (ربانية الإسلام) عند حديثي عن
ربانية المصدر والمنهج.

❁ الاستغناء عن السنة بالقرآن مخالف القرآن :

ثم إن الذين يزعمون الاستغناء عن السنة بالقرآن يخالفون - أول ما يخالفون - القرآن ذاته مخالفة صريحة.

فالقرآن يأمر بطاعة الرسول، بجوار طاعة الله تعالى، وذلك في عدد من الآيات الكريمة.

بل اعتبر القرآن الكريم طاعة الله تعالى، كما اعتبر بيعته بيعة لله قال تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].



الفصل الخامس

رسالتان يحدثنا فيهما ربنا
عن القلب

أهمية القلب في الإسلام

إن القلب له مكانة وأهمية خاصة عند الله تبارك وتعالى ثم عند الناس، وإذا كانت أهمية القلب العضوية تتضاعف عند الناس، فإن الأهمية القصوى للقلب عند الله ترجع إلى جانبه المعنوي.

ومن هنا يجب أن نبدأ بتعديل جانب الأهمية بالنسبة إلى القلب ليكون الجانب المعنوي الذي يبقى أولى من الجانب العضوي الذي يفنى، وهو العلامة الأولى على الموت الحقيقي للإنسان، بأن يتوقف القلب عن العمل، بينما القلب في جانبه المعنوي يبقى حياً عند الله تتضاعف آثاره، ويزداد أجره على قدر ما يترك وراءه من بصمات طيبات وآثار رائعات.

والحد الأدنى الذي نريده هو أن يتوازى اهتمام الإنسان بقلبه المعنوي، مع اهتمامه بقلبه العضوي، والحد الأعلى هو أن يكون الجانب المعنوي الأبقى هو موضع الاهتمام الأرقى على الجانب المادي الذي يبلى.

- والسبب الأول الذي يدفعنا لذلك: هو أننا يجب أن نظل دائماً نعظم ما عظم الله، ونقدر ما قدره رسول الله ﷺ، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ». (١)

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

* وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١)، وَلَا يَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]

فإن هذا يدفع تلقائياً كل ذي حس إيماني أن يجعل للقلب وطهارته، ونقاؤه، وصفائه، وقنوته، وإخباته، وتضرعه، وانكساره بين يدي الله، ورحمته بالخلق أجمعين، وعزته أمام الكافرين، اهتماماً أولئ من الاهتمام بشكله الخارجي وبقبله العضوي.

- وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثالا فالناس كل الناس إذا أحس أحدهم بأي مرض عضوي في القلب، فإنهم يسارعون إلى الطبيب ويفرغون أنفسهم من الوظائف، والواجبات الأسرية، والتجارية، والعلمية، والسياسية، ويوقفون كل شيء، ويمكنون في المستشفى أياماً أو شهوراً، ويتبعون تعليمات الأطباء بدقة، حتى يعود القلب العضوي إلى وظائفه الطبيعية.

وإذا خرج أحدهم من المستشفى يحتاج أن يستمر على علاج كل بضع ساعات، وأن يغير من السلوك، والانفعالات، والحركة والنشاط، فلا يملك المريض إلا الاستجابة بكل دقة وثبات.

- فهل نصل في الاهتمام بعلاج أمراض القلوب وقسوتها إلى درجة لا تقل - إن لم تزد - عن مستوى الاهتمام بعلاج أمراض القلوب المعنوية،

(١) صحيح البخاري: (٥٢)، صحيح مسلم: (١٥٩٩).

مثل القسوة، والنفاق، والرياء، والجبن، والخسة، والحقْد، والكبر، والغدر، والدناءة، والكسل، والعجز، والضعف!

❁ النداء العلوي:

وهي أمراض يستدعي بعضها بعضا، فيكون الإنسان عند الناس حياً لبقاء حركة القلب العضوي، وميتاً عند رب الناس لقسوته وبعده عن ربه، فيحتاج إلى هذا النداء العلوي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فإذا ما عاد إلى الله استحق هذا الوصف الرباني: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

لكن هذا المستوى يحتاج بالفعل إلى مثل ما يجري في علاج الأمراض العضوية، من الانتقال إلى مستشفى الإسلام العظيم، واستفتاء طب القلوب ودوائها الرسول ﷺ، وعلماء الأمة الربانيين أطباء القلوب، وينبغي أن يحرم المريض نفسه مما أَلَفَهُ من الذنوب والمعاصي.

❁ ويتفرغ للمعالجة:

كما يحرم مريض القلب العضوي نفسه من طعام يحبه، وانفعال اعتاد عليه، ويتفرغ لهذه المعالجة بالاعتكاف في المسجد، أو الخلوة مع الكتاب المسطور، أو الكون المنظور، بالعقل تدبراً، وبالقلب تأثراً، وبالنفس تغيراً.

ويستروح بين اعتكاف، أو طواف وسعي، وتضرع وبكاء، ودعاء وثناء على الله تعالى، غير مشغول إلا بالإقبال على ربه وتطهير قلبه، وتركيزه نفسه،

ليعود بوجه غير الذي ذهب به، صاحب أوراد وعبادات، وثوابت للإيمان في كل الأوقات، كما يعود مريض القلب العضوي بأدوية وتعليمات لا يتركها حتى يبرأ من الآفات.

وحتى تعلق في النفس أهمية القلب المعنوي، إليك طرفاً من هذه الأهمية القصوى للقلب، كما توضحه النصوص الشرعية بجلاء يزيد عن سطوع الشمس في رابعة النهار.

١. القلب هو وعاء الإيمان أو الكفر:

لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، ولقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

٢. القلب هو وعاء الإخلاص أو النفاق والرياء:

لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى: فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». (١)

والمعروف قطعاً أن النية والإخلاص من أعمال القلوب، كما أن النفاق والرياء من أعمال القلوب، لقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧]

(١) صحيح البخاري: (١)، وصحيح مسلم: (١٩٠٧).

٣. القلب هو وعاء ذكر الله أو الغفلة عنه :

لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨) [الكهف: ٢٨]

٤. القلب هو وعاء السعادة أو الشقاء :

لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٥. القلب هو وعاء التقوى أو الجرأة على حرمان الله :

لما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ». (١)

٦. القلب هو وعاء الرحمة أو القسوة والغلظة :

لقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

مِنْ حَوْلِكَ ﴿[آل عمران: ١٥٩].

٧. القلب هو وعاء العلم أو الجهل:

لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ولقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٥٩] [الروم: ٥٩]، وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ، يَقُولُ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَفَرَّعُوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ». (١)

٨. القلب هو وعاء الشجاعة أو الجبن:

لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢] [الأنفال: ١٢].

ويقول الشاعر:

إن الشجاعة في القلوب كثيرة ... ورأيت شجعان العقول قليلاً

٩. القلب هو وعاء الحب والبغض:

لقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]

(١) صحيح البخاري (٧٢٧٦).

١٠. القلب هو وعاء التواضع أو الكبر:

لحديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ إِلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». (١)

كما أن الكبر في القلب، لقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، ولحديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». (٢)

١١. القلب هو وعاء الاطمئنان أو القلق والاضطراب:

لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

١٢. القلب هو وعاء الفلاح أو الخسران:

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، ولحديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعت رسول الله ﷺ يقول وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه: «..... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». (٣)

(١) صحيح مسلم: (٢٨٦٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، ٧٤ / ٢

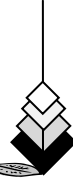
(٣) صحيح البخاري (٥٢)، صحيح مسلم: (١٥٩٩).

وفي الحق لو استرسلنا وراء النصوص المحكمة قرآنًا وسنةً حول أهمية القلب فسيطول بنا الكلام، وإنني أدعو نفسي، وكلَّ من يريد السير إلى الله ممتطيًا سفينة قلبه أن يختم القرآن مرةً باحثًا عن أهمية القلب وأنواعه في القرآن الكريم فسيجدُ فيوضاتٍ ربانيةً، ودقائقَ إيمانيةً، تحمله على أن يسعى بجد نحو إصلاح قلبه.



المبحث الأول

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ



هذه رسالة ربانية يُعَلِّمُنَا فيها ربنا بمكانة القلب وخطره، وكما لا يخفى، فإن قضية القلوب قضية عليها مدار كل شيء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. (١) والآن نطوِّف حول هذه الرسالة الربانية فأقول مستعيناً بالله:

إن صلاح العالم وفساده يكون بحسب حركة الإنسان في الحياة، إذ هو قلب العالم ولبه، وصلاح بدن الإنسان وفساده قائم على صلاح القلب وفساده كما قال النبي - ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمًى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». (٢)

والقلب هو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه

(١) سأتناول هنا بأمر الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٢٤] ﴿[الأنفال: ٢٤] وبقية الرسالة: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [٢٤] ﴿[الأنفال: ٢٤] سأفرد لها موضوعاً عند رسالة أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فانظرها هناك بأمر الله تعالى.

(٢) شعب الإيمان: (٧٤٢)، صحيح.

عرف ربّه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، ومن جهل نفسه فقد جهل ربّه، ومن عرف ربه فقد عرف كل شيء، ومن جهل ربه فقد جهل كل شيء، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وربهم. (١)

❁ قلب الإنسان بيد الله يقبله كيف يشاء:

إن القلوب بيد الله، والإنسان لا يدري مصيره وخاتمته، ولا يدري هل يستطيع أن يحقق آماله وأهدافه في هذه الحياة أم لا يستطيع؟! هل يطول به العمر أو لا يطول؟!

والله تعالى يبين أن هذا الإنسان عليه أن يبادر، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

• ما معنى قوله: يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ؟

قال سعيد بن جبير: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال: يحول بين المؤمن والكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر والإيمان وطاعة الله. (٢)

وقيل: يحول بين العبد وبين الاستجابة لله تعالى والرسول ﷺ.

وقيل: يحول بين المؤمن وبين سوء الخاتمة وبين الكافر وبين حسن

(١) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ١٢٨١).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين: (ص: ٦٧).

الخاتمة.

وقيل: يحول بين المؤمن وبين أن يلقيه في كبيرة يهلك فيها، وبين المنافق وبين أن يوفقه لطاعة فينجو بها، ويحول بين الموحد وبين الخاتمة بالتوحيد، وهذه مخاوف للمؤمنين بتحقيق الوعيد. (١)

ويمكن أن نقول: قد تكون هناك آمال طوال عراض لإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى يقطع هذه الآمال على هذا الإنسان، فلا يحقق شيئاً منها، لأن الأجل قد قرب.

ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة.. ﴿يَحُولُ بَيْنَ
أَمْرٍ وَقَلْبِهِ﴾ فيفصل بينه وبين قلبه ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه،
ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه
الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقاً تمثلها القلب في النص القرآني، ولكن
التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع
في العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم،
والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفقاته والحذر من كل
هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقاً والاحتياط الدائم للمزلق
والهواتف والهواجس. والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا
القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته..

ولقد كان رسول الله - ﷺ - وهو رسول الله المعصوم يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ:

(١) قوت القلوب: (١/ ٢١٨).

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ أَوْ أَصْحَابُهُ: اتَّخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ قَالَ: «إِنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ يُقَلِّبُهَا».. (١)، فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟! إنها صورة تهز القلب حقًا ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظرًا إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار وهو لا يملك منه شيئًا، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير! (٢)

وإذا كان الأمر كذلك فالحذر واجب من مكر الله سبحانه قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِذَا كَانَتْ الْهِدَايَةُ مَصْرُوفَةً، وَالْإِسْتِقَامَةُ عَلَى مَشِيئَتِهِ مَوْقُوفَةً، وَالْعَاقِبَةُ مُعْيِيَةً، وَالْإِرَادَةُ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ وَلَا مُغَالَبَةٍ، فَلَا تُعْجَبُ بِإِيمَانِكَ، وَصَلَاتِكَ وَجَمِيعِ قُرْبِكَ فَإِنَّهَا مِنْ مَحْضِ فَضْلِ رَبِّكَ وَجُودِهِ فَرَبَّمَا سَلَبَهَا عَنْكَ فَوَقَعَتْ فِي هُوَّةِ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ. (٣)

يقول الهيثمي: وَمِمَّا يُحَذِّرُكُ أَيْضًا مِنْ أَمْنِ الْمَكْرِ اسْتِحْضَارُكَ قَوْلَهُ - ﷺ - فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا». (٤)، وَفِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ الرَّجُلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا

(١) شعب الإيمان: (٧٤٢)، صحيح.

(٢) في ظلال القرآن: (٨ / ٣٧٢).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١ / ١٤٧).

(٤) صحيح مسلم: (٢٦٤٣).

الأعمال بالخواتيم» (١).

ثم ذكر الإمام الهيثمي مواقف لتوضيح الأمر وأخذ العبرة فقال رحمه الله:

- وَتَأَمَّلْ أَيْضًا مَا فَصَّهَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ قِصَّةِ بَلْعَامِ عَالِمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ
أَمِنَ الْمَكْرَ فَقَنِعَ بِالْفَانِي مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا عَنْ الْبَاقِي مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَأَطَاعَ
هَوَاهُ، وَقِيلَ: مَا بُذِلَ لَهُ عَلَى أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيَّ نَبِينَا وَعَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - فَأَذْلَعَ لِسَانَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَصَارَ يَلْهَثُ كَالْكَلْبِ وَسَلَبَهُ اللَّهُ الْإِيمَانَ
وَالْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ، وَكَذَلِكَ بَرِّصِيصَا الْعَابِدِ مَاتَ بَعْدَ عِبَادَتِهِ الَّتِي لَا تُطَاقُ عَلَى
الْكُفْرِ.

- وَكَانَ ابْنُ السَّقَاءِ بِبَغْدَادَ مِنْ مَشَاهِيرِهَا فَضْلًا وَذِكَاءً وَقَعَ لَهُ مَعَ بَعْضِ
الْأَوْلِيَاءِ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِ فَدَعَا عَلَيْهِ فَانْتَقَلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَهَوَى
امْرَأَةً فَتَنَصَّرَ لِأَجْلِهَا ثُمَّ مَرِضَ فَأُلْقِيَ عَلَى الطَّرِيقِ يَسْأَلُ، فَمَرَّ بِهِ بَعْضُ مَنْ
يَعْرِفُهُ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَحَكَى لَهُ فِتْنَتَهُ، وَأَنَّهُ تَنَصَّرَ وَالْآنَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ
حَرْفًا وَاحِدًا مِنَ الْقُرْآنِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَا يَمُرُّ بِخَاطِرِهِ، قَالَ ذَلِكَ الرَّائِي لَهُ:
فَمَرَزْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ قَلِيلٍ فَرَأَيْتُهُ مُحْتَضِرًا، وَوَجْهُهُ إِلَى الشَّرْقِ فَصُرْتُ كُلَّمَا
أَدْرَتْ وَجْهَهُ إِلَى الْقِبْلَةِ أَلْتَفَتَ لِلشَّرْقِ، وَلَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى خَرَجَتْ رُوحُهُ.

- وَكَانَ بِمِصْرَ مُؤَذِّنٌ عَلَيْهِ سِيمَا الصَّلَاحِ فَرَأَى نَصْرَانِيَّةً مِنَ الْمَنَارَةِ فَافْتَتَنَ
بِهَا فَذَهَبَ إِلَيْهَا فَامْتَنَعَتْ أَنْ تُجِيبَهُ لِرَبِيبَةٍ، فَقَالَ: النِّكَاحُ، فَقَالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ
وَلَا يَرْضَى أَبِي، فَقَالَ إِنَّهُ يَتَنَصَّرُ، فَقَالَتْ: الْآنَ يُجِيبُكَ، فَتَنَصَّرَ وَوَعَدُوهُ أَنْ

يُدْخِلُوهُ عَلَيْهَا، فَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ رَقِيَ سَطْحًا لِحَاجَةٍ فَرَلَتْ قَدَمُهُ، فَوَقَعَ مَيِّتًا؛ فَلَا هُوَ بِدِينِهِ وَلَا هُوَ بِهَا. فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْهُ وَبِمُعَافَاتِهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ وَبِرِضَاهُ مِنْ سَخَطِهِ. (١)

﴿وبعد هذه المواقف نقول: إن الإنسان حريٌّ به أن يخاف مكر الله تعالى، ولكن المشكلة أن هناك أناسًا يبغضون الله تعالى إلى خلقه، ولهذا نقف هذه الوقفة.﴾

﴿كلام رائع لابن القيم حول من يستخدمون مثل قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، في تبغض الله إلى خلقه.﴾

﴿قال رحمه الله: الْجَهَّالُ بِاللَّهِ وَأَسْمَاءُ وَصِفَاتِهِ الْمَعْطَلُونَ لِحَقَائِقِهَا يَبْغِضُونَ اللَّهَ إِلَى خَلْقِهِ وَيَقْطَعُونَ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ مَحَبَّتِهِ وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَنَحْنُ نَذَكِّرُ مِنْ ذَلِكَ أَمْثَلَةً تَحْتَذِي عَلَيْهَا فَمِنْهَا:﴾

﴿أنهم يقررون في نفوس الضُّعَفَاءِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا تَنْفَعُ مَعَهُ طَاعَةٌ وَإِنْ طَالَ زَمَانُهَا وَبَالَغَ الْعَبْدُ وَأَتَى بِهَا ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ عَلَى ثِقَةٍ وَلَا أَمْنٍ مِنْ مَكْرِهِ بَلْ شَأْنُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمُطِيعُ الْمُتَّقِي مِنَ الْمَحْرَابِ إِلَى الْمَاخُورِ وَمِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمُسَبِّحَةِ إِلَى الشَّرْكِ وَالْمَزْمَارِ وَيَقْلِبُ قَلْبَهُ مِنَ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ إِلَى الْكُفْرِ وَيَرَوْنَ فِي ذَلِكَ أَثَارَ صَحِيحَةٍ لَمْ يَفْهَمُوهَا وَبَاطِلَةٌ لَمْ يَقْلُهَا الْمَعْصُومُ وَيَزْعَمُونَ أَنَّ هَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ وَيَتْلُونَ عَلَى ذَلِكَ﴾

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾^١ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف: ٩٩] وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقيمون إنليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة وأنه لم يترك في السماء رفعة ولا في الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة لكن جنى عليه جاني القدر وسطا عليه الحكم فقلب عينه الطيبة وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم: أنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يشب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيت إليه ويحتجون بقول النبي: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا.....» (١).

* وذكر الإمام أحمد عن عون بن عبد الله أو غيره أنه سمع رجلا يدعو اللهم لا تؤمني مكرك فأنكر ذلك وقال: قل: اللهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك، وبنوا ذلك على أصلهم الباطل، وهو إنكار الحكمة والتعليل والأسباب، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا سبب وإنما يفعل بمشيئة مجردة من الحكم والتعليل والسبب فلا يفعل لشيء ولا بشيء، وأنه لا يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء ولا يعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله فحينئذ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون لا لأنه في نفسه باطل وظلم فإن الظلم في نفسه مستحيل فإنه غير ممكن بل هو بمنزلة جعل

(١) صحيح مسلم: (٢٦٤٣).

الْجِسْمُ الْوَاحِدُ فِي مَكَانَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ الشَّيْءَ مَوْجُودًا وَمَعْدُومًا مَعًا فِي آنٍ وَاحِدٍ، فَهَذَا حَقِيقَةُ الظُّلْمِ عِنْدَهُمْ فَإِذَا رَجَعَ الْعَامِلُ إِلَى نَفْسِهِ قَالَ: مَنْ لَا يَسْتَقَرُّ لَهُ أَمْرٌ وَلَا يُؤْمِنُ لَهُ مَكْرٌ كَيْفَ يُوَثِّقُ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ؟ وَكَيْفَ يَعُولُ عَلَى طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَوْامِرِهِ؟ وَلَيْسَ لَنَا سِوَى هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ؟ فَإِذَا هَجَرْنَا فِيهَا اللَّذَاتِ وَتَرَكْنَا الشَّهَوَاتِ وَتَكَلَّفْنَا أَثْقَالَ الْعِبَادَاتِ وَكُنَّا مَعَ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ ثِقَةٍ مِنْهُ أَنْ يَقْلِبَ عَلَيْنَا الْإِيمَانَ كَفْرًا، وَالتَّوْحِيدَ شُرْكًَا وَالطَّاعَةَ مَعْصِيَّةً وَالْبِرَّ فَجُورًا، وَيَدِيمَ عَلَيْنَا الْعُقُوبَاتِ، كُنَّا خَاسِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِذَا اسْتَحْكَمَ هَذَا الْإِعْتِقَادُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَتَخَمَّرَ فِي نَفْسِهِمْ صَارُوا إِذَا أَمَرُوا بِالطَّاعَاتِ وَهَجَرُوا اللَّذَاتِ بِمَنْزِلَةِ إِنْسَانٍ جَعَلَ يَقُولُ لَوْلَاكَ: مَعْلَمُكَ إِنْ كَتَبْتَ وَأَحْسَنْتَ وَتَأَدَّبْتَ وَلَمْ تَعْصِهِ رُبَّمَا أَقَامَ لَكَ حُجَّةً وَعَاقِبَكَ وَإِنْ كَسَلْتَ وَبَطَلْتَ وَتَعَطَّلْتَ وَتَرَكْتَ مَا أَمَرَكَ بِهِ رُبَّمَا قَرَبَكَ وَأَكْرَمَكَ، فَيُودِعُ بِهَذَا الْقَوْلِ قَلْبَ الصَّبِيِّ مَا لَا يَثِيقُ بَعْدَهُ إِلَى وَعِيدِ الْمَعْلَمِ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَلَا وَعْدَهُ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَإِنْ كَبُرَ الصَّبِيُّ وَصَلَحَ لِلْمَعَامَلَاتِ وَالْمَنَاصِبِ قَالَ لَهُ هَذَا سُلْطَانُ بَلَدِنَا يَأْخُذُ اللَّصَّ مِنَ الْحَبْسِ فَيَجْعَلُهُ وَزِيرًا أَمِيرًا وَيَأْخُذُ الْكَيْسَ الْمُحْسِنَ لَشُغْلِهِ فَيَخْلُدُهُ الْحَبْسَ وَيَقْتُلُهُ وَيَصْلِبُهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ أَوْ حَشَهُ سُلْطَانُهُ، وَجَعَلَهُ عَلَى غَيْرِ ثِقَةٍ مِنْ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَأَزَالَ مُحِبَّتَهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَجَعَلَهُ يَخَافُهُ مَخَافَةَ الظَّالِمِ الَّذِي يَأْخُذُ الْمُحْسِنَ بِالْعُقُوبَةِ وَالْبَرِيءَ بِالْعَذَابِ فَأَفْلَسَ هَذَا الْمُسْكِينُ مِنْ اعْتِقَادِ كَوْنِ الْأَعْمَالِ نَافِعَةً أَوْ ضَارَةً فَلَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ يَسْتَأْنِسُ وَلَا يَفْعَلُ الشَّرَّ يَسْتَوْحِشُ، وَهَلْ فِي التَّنْفِيرِ عَنِ اللَّهِ وَتَبْغِيضِهِ إِلَى عِبَادِهِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا؟ وَلَوْ اجْتَهِدَ الْمَلَاحِدَةُ عَلَى تَبْغِيضِ الدِّينِ وَالتَّنْفِيرِ عَنِ اللَّهِ لَمَا أَتَوْا بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا.

وَصَاحِبُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَظُنُّ أَنَّهُ يُقَرِّرُ التَّوْحِيدَ وَالْقَدْرَ وَيَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ

وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل، وكتب الله المنزلة كلها ورُسِّله كلهم شهادةً بضد ذلك، ولا سيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورُسِّوله به الناس إليه لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ولا يخاف المحسن ليده ظلماً ولا هضمًا ولا يخاف بخساً ولا رهقاً ولا يضيع عمل محسن أبداً ولا يضيع على العبد مثقال ذرة لا يظلمها ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠ ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ جازاه بها ولا يضيعها عليه، وأنه يجزي بالسَّيِّئَةِ مثلها، ويحبطها بالتَّوبَةِ والندم والإِسْتِغْفَارِ والحسنات والمصائب، ويجزي بالحَسَنَةِ عشر أمثالها ويضاعفها إلى سَبْعِمِائَةٍ ضعف إلى أضعاف كثيرة، وهو الذي أصلح الفاسدين، وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضَّالِّين، وأنقذ الهالكين، وعلم الجاهلين، وبصر المتحيزين وذكر الغافلين، وآوى الشاردين، وإذا أوقع عقاباً أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه ودعوة العبد إلى الرجوع إلى إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا يئس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته، أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه وأنه هو الظالم لنفسه كما قال تعالى

عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١ ﴾ [الملك: ١١]، وَقَالَ عَمَّنْ أَهْلُكُم فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا آيَاتِهِ وَأَحْسَوْا عَذَابَهُ ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ١٤ ﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِدِينَ ١٥ ﴿ [الأنبياء: ١٤ - ١٥]، وَقَالَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّتِي أَفْسَدَهَا عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْهَا ﴿ قَالُوا

سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ [القلم: ٢٩].

﴿ قَالَ الْحَسَنُ لَقَدْ دَخَلُوا النَّارَ وَإِنَّ حَمْدَهُ لَفِي قُلُوبِهِمْ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ حِجَّةَ وَلَا سَبِيلًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥]، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ قَطَعَ دَابِرَهُمْ حَالِ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ مَحْمُودًا عَلَى ذَلِكَ فَقُطِعَ دَابِرُهُمْ قَطْعًا مَصَاحِبًا لِحَمْدِهِ فَهُوَ قَطَعَ وَإِهْلَاكَ يَحْمَدُ عَلَيْهِ الرَّبُّ تَعَالَى.

فحكمته وعدله وَوَضَعَهُ الْعُقُوبَةَ فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي لَا يَلِيقُ بِهِ غَيْرَهَا، فَوَضَعَهَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَقُولُ مَنْ عِلْمُ الْحَالِ لَا تَلِيقُ الْعُقُوبَةُ إِلَّا بِهِذَا الْمَحَلِّ وَلَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا الْعُقُوبَةُ، وَلِهَذَا قَالَ عَقِيبَ إِخْبَارِهِ عَنِ الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَمَصِيرِ أَهْلِ السَّعَادَةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلِ الشَّقَاءِ إِلَى النَّارِ ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥]، فَحَذَفَ فَاعِلَ الْقَوْلِ إِشْعَارًا بِالْعُمُومِ وَأَنَّ الْكُونَ كُلَّهُ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَمَّا شَاهَدُوا مَنْ حِكْمَةِ الْحَقِّ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ وَلِهَذَا قَالَ فِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر: ٧٢]، كَأَنَّ الْكُونَ كُلَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى تَقُولَهُ أَعْضَاؤُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ وَأَرْضُهُمْ وَسَمَاؤُهُمْ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَخْبِرُ أَنَّهُ إِذَا هَلَكَ أَعْدَاؤُهُ أُنْجِيَ أَوْلِيَائِهِ وَلَا يَعْمَهُمُ بِالْهَلَاكِ بِمَحْضِ الْمَشِئَةِ، وَلَمَّا سَأَلَهُ نُوحٌ نَجَاةَ ابْنِهِ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْرُقُهُ بِسُوءِ عَمَلِهِ وَكُفْرِهِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي أَغْرُقُهُ بِمَحْضِ مَشِئَتِي وَإِرَادَتِي بَلَا سَبَبٍ وَلَا ذَنْبٍ، وَقَدْ ضَمَّنَ سُبْحَانَهُ زِيَادَةَ الْهِدَايَةِ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَلَمْ يَخْبِرْ أَنَّهُ يَضِلُّهُمْ وَيَبْطِلُ سَعْيَهُمْ، وَكَذَلِكَ ضَمَّنَ زِيَادَةَ الْهِدَايَةِ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِضْوَانَهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَضِلُّ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُ مِنْ بَعْدِ

ميثاقه، وأنه إنَّما يضل من أثر الضلال واختارَه على الهدى، فيطبع حينئذٍ على سمعه وقلبه وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه ورده فيقلب فؤاده وبصره عُقُوبَةً لَهُ على رده ودفعه لما تحقَّقه وعرفه، وأنه سُبْحَانَهُ لَوْ علم فِي تِلْكَ الْمَحَالِّ الَّتِي حَكَمَ عَلَيْهَا بِالضَّلَالِ وَالشَّقَاءِ خَيْرًا لَأَفْهَمَهَا وَهَدَاهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تَصْلِحُ لِنِعْمَتِهِ وَلَا تَلِيقُ بِهَا كِرَامَتِهِ، وَقَدْ أَزَاحَ سُبْحَانَهُ الْعِلَلَ وَأَقَامَ الْحُجَجَ، وَمَكَّنَ مِنْ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ وَأَنَّهُ لَا يَضِلُّ إِلَّا الْفَاسِقِينَ وَالظَّالِمِينَ، وَلَا يَطْبَعُ إِلَّا عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ، وَلَا يَرْكُسُ فِي الْفِتْنَةِ إِلَّا الْمُنَافِقِينَ بِكُسْبِهِمْ، وَأَنَّ الرِّينَ الَّذِي غَطَّى بِهِ قُلُوبَ الْكُفَّارِ هُوَ عَيْنُ كُسْبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ كَمَا قَالَ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) [المطففين: ١٤]، وَقَالَ عَنْ أَعْدَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَضِلُّ مِنْ هِدَايَةِ حَتَّى يَبِينَ لَهُ مَا يَتَّقِي فِيخْتَارُ لَشَقْوَتِهِ وَسُوءَ طَبِيعَتِهِ الضَّلَالِ عَلَى الْهُدَى وَالْغِيِّ عَلَى الرِّشَادِ وَيَكُونُ مَعَ نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ وَعَدُوِّ رَبِّهِ عَلَيْهِ وَأَمَّا الْمَكْرُ الَّذِي وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَهُوَ مَجَازَاتُهُ لِلْمَاكِرِينَ بِأَوْلِيَائِهِ وَرُسُلِهِ فَيَقَابِلُ مَكْرَهُمُ السَّيِّئَ بِمَكْرِهِ الْحَسَنِ، فَيَكُونُ الْمَكْرُ مِنْهُمْ أَقْبَحَ شَيْءٍ وَمِنْهُ أَحْسَنُ شَيْءٍ لِأَنَّهُ عَدَلَ وَمَجَازَاةً، وَكَذَلِكَ الْمَخَادَعَةُ مِنْهُ جَزَاءٌ عَلَى مَخَادَعَةِ رُسُلِهِ أَوْلِيَائِهِ فَلَا أَحْسَنَ مِنْ تِلْكَ الْمَخَادَعَةِ وَالْمَكْرِ.

وَأَمَّا كَوْنُ الرَّجُلِ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَإِنْ هَذَا عَمَلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمَّا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ، وَلَوْ كَانَ عَمَلًا صَالِحًا مَقْبُولًا لِلْجَنَّةِ قَدْ أَحَبَهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ لَمْ يُبْطَلْ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ يَشْكَلُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ.

فَيُقَالُ: لَمَا كَانَ الْعَمَلُ بِآخِرِهِ وَخَاتَمَتِهِ لَمْ يَصْبِرْ هَذَا الْعَامِلُ عَلَى عَمَلِهِ حَتَّى يَتِمَّ لَهُ بَلْ كَانَ فِيهِ آفَةٌ كَامِنَةٌ وَنَكْتَةٌ خِذْلٌ بِهَا فِي آخِرِ عَمَرِهِ فَخَانَتْهُ تِلْكَ الْآفَةُ وَالِدَاهِيَةُ وَالْبَاطِنَةُ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ فَرَجَعَ إِلَى مُوجِبِهَا وَعَمِلَتْ عَمَلُهَا وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غِشٌّ وَآفَةٌ لَمْ يَقْلِبِ اللَّهُ إِيْمَانَهُ لَقَدْ أُوْرِدُهُ مَعَ صَدَقِهِ فِيهِ وَإِخْلَاصِهِ بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْهُ يَقْتَضِي إِفْسَادَهُ عَلَيْهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ سَائِرِ الْعِبَادِ مَا لَا يُعْلَمُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

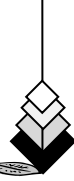
- وَأَمَّا شَأْنُ إِبْلِيسَ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فَالرَّبُّ تَعَالَى كَانَ يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكِبَرِ وَالْحَسَدِ مَا لَا يُعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَلَمَّا أَمَرُوا بِالسُّجُودِ ظَهَرَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْخَشْيَةِ وَالْانْقِيَادِ، فَبَادَرُوا إِلَى الْإِمْتِثَالِ وَظَهَرَ مَا فِي قَلْبِ عَدُوِّهِ مِنَ الْكِبَرِ وَالْغِشِّ وَالْحَسَدِ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

- وَأَمَّا خَوْفُ أَوْلِيَائِهِ مِنْ مَكْرِهِ فَحَقٌّ فَإِنَّهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يَخْذِلَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ فَيَصِيرُونَ إِلَى الشَّقَاءِ فَخَوْفُهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَرَجَاؤُهُمْ لِرَحْمَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ الْفَجَارِ وَالْكَفَّارِ. (١)



المبحث الثاني

اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها



رسالة ربانية يُعلمنا فيها ربنا بقوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ [الحديد: ١٧] أنه سبحانه يحيي القلوب بعد موتها، كما أنه يحيي الأرض بعد موتها.

من أين جئنا بهذا الفهم لهذه الآية؟

أقول مستعيناً بالله: من الملاحظ أن هذه الآية ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ [الحديد: ١٧] جاءت بعد الآية التي عاتب الله فيها عباده المؤمنين على عدم خشوع قلوبهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وهذا يشير إلى أن القلوب مهما بلغ مرضها، واشتدت قسوتها تظل تحمل في طياتها إمكانية عودتها إلى الصحة والحياة مرة أخرى.

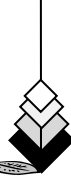
يقول ابن كثير معلقاً: ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي.

وقال ابن كثير أيضا: وَقَوْلُهُ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ، تَعَالَى، يُلْهِئُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَوْتِهَا، وَيَهْدِي الْحَيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيَفْرِجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ الْوَابِلِ كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِرَاهِنِ الْقُرْآنِ وَالِدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا

- والآن نطوِّف حول هذه الرسالة الربانية، ونعيش مع حياة القلب، ومع الأمور التي تُحْيِي القلبَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وهي: الوحي، والمحن، قصر الأمل.. وتدبر القرآن.. وتجنب مفسدات القلب.



حياة القلب بالوحي



معلوم أن الوحي هو الكتاب والسنة، وتكون حياة القلب باتباعهما والاعتصام بهما، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فأخبر سبحانه وتعالى أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان.

وعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك، فحياتك في الوحي قرآنًا وسنة، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ٦٩ ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠].

وأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]. وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم.

فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. (١)

ولقد أحسن القائل:

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١ / ٢٣).

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتُ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورٌ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَخْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورٌ
ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحا، كما قال تعالى:
﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من
كتابه^(١)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن حياة
الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قبل
وحيه، وعمل به فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:
٩٧]. (٢)

❁ ولنا مع الوحي وقفات سريعة:

• التأثر بالوحي:

التأثر القلبي الوجداني بالوحي، ولذلك ذكر النبي ﷺ في الحديث
الصحيح المروي عن أبي الدرداء، قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَخَصَ
بِصَرِّهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا
مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ» فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا

(١) الموضع الأول ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢].
والموضع الثاني: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥].
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١ / ٢٢).

الْقُرْآنَ فَوَاللَّهِ لَنُفَرِّتَنَّهُ وَلَنُفَرِّتَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأُعَذِّدَكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟» (١)

يقول جبير بن نفير أحد رواة الحديث يقول: فَلَقِيتُ عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رحمته الله قَالَ: قُلْتُ أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ. قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِنْ شِئْتَ لِأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ الْجَمَاعَةِ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا. (٢)

وها هنا أشار عبادة رحمته الله وأشار من قبله أبو الدرداء فيما يرويّه عن النبي صلّى الله عليه وآله إلى أن المهم في العلم ليس هو العلم الذي يقال باللسان، وإنما هو العلم الذي يصل إلى القلب، فتكون ثمرته الخشوع والخوف من الله تبارك وتعالى.

(١) سنن الترمذي (٢٦٥٣). وانظر صحيح الجامع: (٢٣٢٨).

(٢) سنن الدارمي (٢٩٦).

أصناف الناس بالنسبة لانتفاعهم بالوحي بعد جيل الصحابة



❖ أولاً: عدم الانتفاع بالوحي بالكلية:

أول صنف هم الذين لم ينتفعوا بالكلية وهم الكفار الذين ردوا وحي السماء جملة وتفصيلاً، وقد ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩] فهم لا يستفيدون من الآيات الشرعية ولا من الآيات الكونية، فأما الآيات الكونية، فمثل ما يرون في الكون وفي الأنفس من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، وأنه هو المستحق للعبادة، فلا ينتفعون بذلك، بل ينظرون إليها، ويقولون: إنها خلقت باطلاً أو لهواً وعبثاً، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝﴾ [ص: ٢٧] فهم لا يستفيدون من الآيات الكونية ومن رؤيتهم للأرض أو للشمس أو للقمر أو للسماء أو للإنسان وما فيه من بديع الصنع.

وكذلك لا يستفيدون من الآيات الشرعية، والمقصود بالآيات الشرعية، القرآن الكريم، فهم لا ينتفعون به، ولا يزيدهم إلا خساراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢] فهم لا يزيدهم نزول القرآن إلا بعداً؛ لأنهم يكذبون به، وكلما كذبوا بوحى جديد زاد كفرهم،

ولجوا في العناد، ولأنهم يجهدون في الرد عليه وصد الناس عنه وتحذير الناس منه، فيزدادون كفرًا إلى كفرهم، وهؤلاء هم الصنف الأول، وهم الذين حرموا هداية الوحي ونفعه، وهم الكفار، وحرمانهم منه حرمان كلي مطلق، والعياذ بالله.

❖ ثانيًا: الانتفاع الجزئي بالوحي:

الصنف الثاني: هم من حرموا من هداية الوحي من بعض الوجوه دون بعض، بمعنى أنهم مسلمون في الجملة، لكن عندهم مانع حال بينهم وبين الانتفاع بنصوص الوحي كما ينبغي، ولو في جانب من الجوانب، وهؤلاء أنواع من الناس.

١ - أهل الأهواء والبدع الذين استقرت في نفوسهم البدعة والهوى، وصاروا يقرءون في القرآن والحديث ليجثوا عما يؤيد بدعتهم، ويلتمسوا منها ما يناسبهم في ذلك، وهؤلاء فيهم شبه كبير من الصنف الأول في عدم استفادتهم من الوحي.

ولذلك قرن الله تعالى بين هذين الصنفين في كتابه، ولو التفتنا إلى الآية لوجدنا هذا ظاهرًا، فبعد أن ذكر الله ﷻ في الآية السابقة الكفار من أصحاب النار الذين ذرأهم لجهم من الجن والإنس، والذين لم يستفيدوا من عقولهم، لا بالآيات الشرعية ولا بالآيات الكونية، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩) [الأعراف] عقب بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠) [الأعراف]:

١٨٠] فجمع بين الذين يلحدون في أسماء الله ﷻ وبين الكافرين، سواء كان هذا الإلحاد في أسماء الله كأن يسمى غير الله بها، أو بصرفها عن معانيها الظاهرة إلى معانٍ غير صحيحة، أو بتسمية الله ﷻ بأسماء ليست صحيحة لم يسم بها نفسه ولا سماه بها رسوله، أو غير ذلك من ألوان الإلحاد، فهذا نوع من الهوى.

٢- الذين حرموا من هداية القرآن والسنة في كثير من جوانب حياتهم:

وهؤلاء هم الذين انصرفوا عن تعلم الدين واشتغلوا بالدنيا عن الآخرة، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة من سيما الكفار، قال الله ﷻ في وصف الكافرين: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿[إبراهيم: ٢-٣] وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿[الأعلى: ١٦-١٧] وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) [هود: ١٥-١٦] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

فالذي يُؤثِّرُ الدنيا ويتعب من أجلها، ويغفل عن تعلم علم الشرع الذي لا بد له منه، قد حرم من كثير من هداية الوحي ونصوصه، وهو عبد لهذا الشيء الذي شغل نفسه في طلبه؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدَّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ». وفي لفظ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِصَةِ،

إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا
اُنْتَقَشَ. (١)

٣- النوع الثالث: أهل التقليد:

الذين حرموا من الانتفاع بالوحي، الذين يقدمون آراء الرجال وأقوالهم
على كلام الباري جل وعلا وعلى كلام المصطفى المختار ﷺ، وهم بذلك
يخالفون قول الله وقول رسوله ﷺ، وقول الأئمة الذين قلدهم.

فأما مخالفتهم لقول الله فإن الله تبارك وتعالى أمر بطاعته، وطاعة رسوله:
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا
تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] ونعى سبحانه على أهل الكتاب طاعتهم
للأحبار والرهبان في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، فقال: ﴿اتَّخَذُوا
أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وتفسيرها الذي لا إشكال فيه ؛ هو ما فسرنا به
النبي ﷺ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ
ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثْنَ مِنْ عُنُقِكَ»، فَطَرَحْتُهُ فَاَنْتَهَيْتُ إِلَيْهِ
وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةِ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ،

فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» (١).

وأما قول الرسول ﷺ فإنه أيضًا أمر باتباع الكتاب والسنة عن المقدم ابن معدي كرب الكندي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْشِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، أَلَا وَلَا لُقْطَةٌ مِنْ مَالٍ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرَءُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرَءُوهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قَرَاهُمْ» (٢).

وفي هذا الحديث ينكر الرسول ﷺ على من رد سنته، فيقول: «أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْشِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ.....». فأمر بطاعة الله، وجعل طاعته ﷺ من طاعة الله، وكذلك العلماء الذين يقلدونهم كانوا مجمعين على أنه لا يجوز لأحد عرف السنة أن يخالفها لقول أي عالم من

(١) المعجم الكبير للطبراني (٢١٨). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٢٩٣).
وقد عُقِدَ في كتاب التوحيد بابًا عنوانه: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله، فارجع إلى هذا الباب، وارجع إلى شرحه فإن فيه كلامًا مفيدًا.
(٢) مسند أحمد: (١٧١٧٣).

العلماء.

﴿ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ: «أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنْ مِنْ اسْتِبَانَتِ لَهُ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدْعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ. قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: «أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ الْمُقْلَدَ لَيْسَ مَعْدُودًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ». (١)﴾

﴿ وَلَقَدْ أَحْسَنَ مِنْ نَظْمِ أَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ فِي النَّهْيِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ حَيْثُ قَالَ: وَقَوْلُ أَعْلَامِ الْهُدَى لَا يُعْمَلُ ... بِقَوْلِنَا بِدُونِ نَصٍّ يُقْبَلُ فِيهِ دَلِيلُ الْأَخْذِ بِالْحَدِيثِ ... وَذَلِكَ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الْإِمَامُ ... لَا يَنْبَغِي لِمَنْ لَهُ إِسْلَامٌ أَخْذًا بِأَقْوَالِي حَتَّى تُعْرَضَا ... عَلَى الْحَدِيثِ وَالْكِتَابِ الْمُرْتَضَى وَمَالِكُ إِمَامِ دَارِ الْهِجْرَةِ ... قَالَ وَقَدْ أَشَارَ نَحْوُ الْحُجْرَةِ كُلُّ كَلَامٍ مِنْهُ ذُو قَبُولٍ ... وَمِنْهُ مَرْدُودٌ سِوَى الرَّسُولِ وَالشَّافِعِيِّ قَالَ إِنْ رَأَيْتُمْ ... قَوْلِي مُخَالَفًا لِمَا رَوَيْتُمْ مِنْ الْحَدِيثِ فَاضْرِبُوا الْجِدَارَ ... بِقَوْلِي الْمُخَالَفِ الْأَخْبَارَ وَأَحْمَدُ قَالَ لَهُمْ لَا تَكْتُبُوا ... مَا قُلْتُهُ بَلْ أَصْلُ ذَاكَ فَاطْلُبُوا فَاسْمَعْ مَقَالَاتِ الْهُدَاةِ الْأَرْبَعَةِ ... وَاعْمَلْ بِهَا فَإِنَّ فِيهَا مَنْفَعَةً

(١) ولاية الله والطريق إليها (ص: ٢٩٦). وانظر: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (١ / ٥٢).

لِقَمْعِهَا لِكُلِّ ذِي تَعَصُّبٍ ... وَالْمُنْصِفُونَ يَكْتَفُونَ بِالنَّبِيِّ (١)



(١) هذه الأبيات يقال: قالها العلامة محمد بن سعيد صقر المدني الحنفي في منظومته رسالة الهدى. ويقال: إنها لصالح الفلاني في (الصوارم والأسنة)، ويقال: إنها لعمر الفلاني. وكل هذا يحتاج إلى بحث وتحقيق.

حياة القلب بالمحن والبلاء

❁ الحكمة من الابتلاء:

بالمحن يشتد القلب ويزداد الإيمان، والإنسان الممتحن المبتلى من أقوى الناس قلباً، وأضعف الناس قلوباً هم أهل الترف، وبهذا يحصل إشكال يواجهه كثير من الناس وهو: لماذا جعل الله البلاء قرين الأنبياء وأتباع الأنبياء؟

لماذا لا يمكن الله لأنبيائه، ويترك السوقة والرعاع من الناس يتناولون عليهم ويعذبونهم؟

لماذا يخرج موسى خائفاً يترقب؟ (١) لماذا لا يؤمن الله ﷻ وليه وكليمه؟.

وكذلك الرسول عليه الصلاة والسلام يتناول عليه أبو جهل وأبو لهب، وسفهاء قريش، لماذا لا يمكن له؟

والجواب: لأن العبد يوزن عند الله بقلبه، فلأن يبتليكَ في بدنك حتى يستقيم لك قلبك أفضل من أن يعافيك في بدنك ويضعف قلبك.

(١) موسى ﷺ أكثر الأنبياء تعرضاً للخوف، من حين ولادته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ [طه: ٦٧] ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

ونجلى الإجابة عن هذا السؤال لتقوي القلب المتقاعس المتردد.

❖ صور الابتلاء:

في هذه الحياة الدنيا الكل مبتلى بالآخر، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢) [الزخرف: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٢٠]، فالكل مبتلى في هذه الحياة الدنيا، لا يكاد المرء ينجو من ابتلاء إلا وقع في ابتلاء آخر، مؤمناً كان أو غير مؤمن.

ورب العزة يبين لنا أنه يختبرنا ويبتلينا، ونجد البيان أحياناً بالإجمال وأحياناً بالتصريح في الشيء الذي يُقدم المرء عليه.

- يقدم الحجاج على الحج في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول الله لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٩٤] أي: يا من أحرمتم بالحج ﴿لِيَبْلُوَكُمْ اللَّهُ شَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤].

- ولما مرّ طالوت بالجنود قال لهم صراحة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: مختبركم بنهر.

- وأحياناً يأتي التنبيه بالابتلاء إجمالاً: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَن يَتَذَكَّرُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]، فيكون الشخص في فتنة كفتنة

الفقر - والعياذ بالله من الفقر - فيكافح ويكافح إلى أن ينجو من فتنة الفقر، فيبتلى بفتنة أخرى في ولده، يأتيه ولد يكدر عليه حياته، فيسلم من فتنة الولد فيبتلى بفتنة في الزوجة، فيسلم من فتنة الزوجة فيبتلى بحادث في طريقه يدمر عليه سيارته، ويكون سبباً في خراب بيته، وفي تحطيم جسمه وإصابته، يعافى من ذلك، فيبتلى بجار من جيران السوء ينكد عليه معيشتة، فيبتلى بالسراء ويبتلى بالغنّى، وهذا من شر أنواع البلاء؛ لأنها تطغي ولأنها تنسي، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَافٍ ۖ إِنَّ رَأْيَهُ لَسَفَى ۖ﴾ [العلق: ٦ - ٧]، وكما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣]، فيبدأ بالطغيان واحتقار العباد إلا من رحم الله سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْشَرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فهذه الحياة الدنيا كلها ابتلاء واختبار، ولا تظن أبداً أنك ما دمت معافى في البدن، معافى في المال، وسيمًا في منظر، في أهبة من الأبهات، لك منصب، ولك جاه، لا تظن أن هذا إكرام من الله سبحانه وتعالى لك، فلو كان هذا إكرامًا من الله لك لما قال سليمان النبي الكريم الذي سخرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وجاءه عرش ملكة سبأ واستقر عنده قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۖ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

تبتلى بالفقر ليعلم الله هل تمتد يدك إلى الحرام أم تقنع بالحلال؟

تبتلى بالصحة والعافية ليُعلم هل تواسي أهل البلاء أم لا؟

وليُعلم كذلك هل تستعمل صحتك في طاعة الله ومرضاته أم أنك من الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة: ٢٠٥ - ٢٠٦]؟

كل هذا اختبار وابتلاء من الله سبحانه، ومن الناس من يعرف الحكمة من وراء ذلك فيقول كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧]، وآخرون يقولون متحسرين متأسفين: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١٥٦﴾ [آل عمران: ١٥٦].

فلا بد أن نفقه الحكمة من خلقنا، والحكمة ليست كي نأكل ونشرب، ونتلذذ بالمطاعم وبالنساء على الفرش، إنما الحكمة وضحتها ربنا فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ۝٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وقد أحسن القرطبي عند تفسير قول الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ

﴿٤﴾ [البلد: ٤]

فقال رحمه الله: لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ خَلْقًا يُكَابِدُ مَا يُكَابِدُ ابْنُ آدَمَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ

أَضْعَفُ الْخَلْقِ. قَالَ عَلَمَاؤُنَا: أَوَّلُ مَا يُكَابِدُ قَطْعَ سُرَّتِهِ، ثُمَّ إِذَا قُطِعَ قِمَاطًا، وَشُدَّ رِبَاطًا، يُكَابِدُ الضِّيقَ وَالتَّعَبَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْإِرْتِضَاعَ، وَلَوْ فَاتَهُ لَضَاعَ، ثُمَّ يُكَابِدُ نَبْتَ أَسْنَانِهِ، وَتَحَرُّكَ لِسَانِهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْفِطَامَ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنَ اللَّطَامِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْخِتَانَ، وَالْأَوْجَاعَ وَالْأَحْزَانَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْمُعْلَمَ وَصَوْلَتَهُ، وَالْمُؤَدَّبَ وَسِيَاسَتَهُ، وَالْأُسْتَاذَ وَهَيْبَتَهُ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ التَّزْوِيجِ وَالتَّعْجِيلِ فِيهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الْأَوْلَادِ، وَالْخَدَمِ وَالْأَجْنَادِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الدُّورِ، وَبِنَاءِ الْقُصُورِ، ثُمَّ الْكِبَرِ وَالْهَرَمِ، وَضَعْفَ الرُّكْبَةِ وَالْقَدَمِ، فِي مَصَائِبَ يَكْثُرُ تَعْدَادُهَا، وَنَوَائِبَ يَطُولُ إِيرَادُهَا، مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ، وَوَجَعِ الْأَضْرَاسِ، وَرَمَدِ الْعَيْنِ، وَغَمِّ الدِّينِ، وَوَجَعِ السِّنِّ، وَآلَمِ الْأُذُنِ.

وَيُكَابِدُ مِحْنًا فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ، مِثْلَ الضَّرْبِ وَالْحَبْسِ، وَلَا يَمْضِي عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلَّا يُقَاسِي فِيهِ شِدَّةً، وَلَا يُكَابِدُ إِلَّا مَشَقَّةً، ثُمَّ الْمَوْتَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ، ثُمَّ مَسْأَلَةُ الْمَلِكِ، وَضَغْطَةُ الْقَبْرِ وَظُلْمَتُهُ، ثُمَّ الْبَعْثَ وَالْعَرْضَ عَلَى اللَّهِ، إِلَى أَنْ يَسْتَقَرَّ بِهِ الْقَرَارُ، إِمَّا فِي الْجَنَّةِ وَإِمَّا فِي النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ لَمَّا اخْتَارَ هَذِهِ الشَّدَائِدَ. وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ لَهُ خَالِقًا دَبَّرَهُ، وَقَضَى عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَلْيَمْتَثِلْ أَمْرَهُ. (١)

❖ الابتلاء من أسرار الدين:

إن هذا الدين صعب المراس، ومن أسرار خلوده أن يستقر مع المبتلين في الأرض؛ فيظهر الله صدقهم ونصحهم ووضوحهم ويعلم الله ثباتهم، قال

(١) تفسير القرطبي: (٢٠ / ٦٣).

تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الناس قد جمعوا لكم بالعراقيل، والمخططات، والشائعات، فخافوهم: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

❁ يا ضعيف العزم:

❁ يقول ابن القيم رحمه الله: يَا مَخْنَتَ الْعَزْمِ أَتَيْنَ أَنْتَ وَالطَّرِيقَ طَرِيقَ تَعَبٍ فِيهِ آدَمُ وَنَاحٍ لِأَجَلِهِ نُوحٌ وَرَمِيَ فِي النَّارِ الْخَلِيلُ وَأُضْجِعَ لِلذَّبْحِ إِسْمَاعِيلُ وَبِيعَ يُوسُفُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ وَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ وَنُشِرَ بِالْمُنْشَارِ زَكَرِيَّا وَذَبَحَ السَّيِّدُ الْحَصُورُ يَحْيَى وَقَاسَى الضَّرَّ أَيُّوبُ وَزَادَ عَلَى الْمِقْدَارِ بَكَاءُ دَاوُدَ وَسَارَ مَعَ الْوَحْشِ عِيسَى وَعَالَجَ الْفَقْرَ وَأَنْوَعَ الْأَذَى مُحَمَّدٌ تَزَهَا أَنْتَ بِاللَّهُوِ وَاللَّعِبِ. (١)

وكذلك طعن عمر، وضرج عثمان بدمائه، وقتل علي، وجلدت ظهور الأئمة، وحبسوا قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

كان عليه الصلاة والسلام يبتهل في الليالي ويقول: «..... أَنْتَ الْحَقُّ

(١) الفوائد لابن القيم: (ص: ٤٢).

وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ أَمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.....» (١)



(١) صحيح البخاري: (١١٢٠).

فوائد الابتلاء

إن للبلاء فوائد وثمار عديدة، وسأذكر طرفاً منها ولكن دون إسهاب:

١ - معرفة حقيقة الناس ومصادقيتهم:

إن الله ﷻ جعل الابتلاء سنة ؛ ليعلم الصادق من الكاذب، وليعلم المؤمن من المنافق، ولو كان الأمر للرخاء والسهولة واليسر؛ لادّعى كل مدع أنه صادق، ولكن ليظهر الله الصادقين يقول تعالى: ﴿الْمَ ۝ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١ - ٢] لا يفتنون أي: لا يختبرون: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ٣]، ويقول ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١٤٢] ويقول ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسْتَهَمُّوا الْبُتُورَ وَالضَّرَاءَ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۝﴾ [البقرة: ٢١٤].

٢ - تمحيص الصف الإسلامي من المنافقين:

إن هذا الدين مستهدف بأساليب من المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [النور: ١٩].

١٩] والله يعلم من الذي يسر بإخفاق الصالحين، فالمنافق يريد أن يمرغ الإسلام في التراب؛ ويتنصر الباطل وحينها يضحك المنافق بملء فيه.

٣ - تكفير الخطايا والذنوب:

من أسرار الابتلاء التي ينزلها سبحانه وتعالى في الأرض: تمحيص الخطايا والذنوب التي تعلق بالأخيار، والتي لا يسلم منها الأبرار، فيحتها سبحانه وتعالى حتًا.

- إن منازل الصادقين ثلاث منازل: إذا أذنبوا: استغفروا، وإذا أنعم الله عليهم: شكروا، وإذا ابتلاهم الله: صبروا.

فنسأله سبحانه أن نكون ممن، إذا ابتلي صبر، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَبَشَّرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَحَمِدَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَفَتَحْتُ لَهُ فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَحَمِدَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِي: «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بُلُوئِي تُصِيْبُهُ»، فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَحَمِدَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. (١)

فما هي البلوى؟ خرج في التراب وذبح في بيته على المصحف، وتقدم المغرضون في الصف وقالوا: ظالم، وطعنوه بالخنجر؛ فوقع وهو يقول:

(١) صحيح البخاري: (٣٦٩٣).

حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، وهذه سنة ماضية.

فالابتلاء غسل للقلب وللمنهج، وغسل للطريق من القاذورات التي تعلق به، إما شهرة وإما سمعة وإما رياء لا يسلم منها العبد.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». (١)



(١) صحيح مسلم: (٢٩٩٩).

دروس في الابتلاء

١ - إظهار التوحيد في الابتلاء:

من دروس الابتلاء العظيمة: صدق التوحيد وألا يعتمد إلا على الله، وتظهر لا إله إلا الله صادقة قوية يوم يتلى العبد، فيقول: لا إله إلا الله من قلبه، لأن التوحيد يظهر في الأزمات: ﴿مُحْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] والله لا يريد إلا أن يكون الدين له، فيقول لأوليائه: ذوقوا وجربوا واصبروا واعلموا أنه لا ينصر إلا الله، ولا يهدي إلا الله.

• زينة وإظهار التوحيد:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «أَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ سِتَّ رِقَابٍ بِلَالٌ سَابِعُهُمْ، مِنْهُمْ زَيْنَةُ، فَأُصِيبَتْ بِبَصَرِهَا حِينَ أَعْتَقَهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا أَذْهَبَ بَصَرَهَا إِلَّا اللَّاتُ وَالْعُزَّى، فَقَالَتْ: كَذَبُوا وَبَيَّتِ اللَّهُ مَا تَضُرُّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَا تَنْفَعَانِ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهَا بَصَرَهَا» (١) فرد الله بصرها وأخرى هؤلاء الكفرة الذين يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [الشعراء: ٧٢ - ٧٤] يقول تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم (٦/ ٣٣٤٥).

شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
نُشُورًا ﴿٢﴾ [الفرقان: ٣].

فلنأخذ من الابتلاءات في التاريخ درسًا عظيمًا في التوحيد والإيمان، ولنعرف أنه لا ينتصر العبد إلا بصدقه مع الله. ولنعلم ولنوقن أنه لا يرد الأذى عن الأخيار والصالحين والصادقين إلا الله.

٢ - ومن دروس الابتلاء العظيمة: التوكل والاعتماد على الله:

لأنه لا حيلة ولا ذكاء ولا دهاء ولا قوة، وليس معنا إلا حسبنا الله ونعم الوكيل. (١)

• ولنا في رسولنا الأُسوة:

- كم كالوا عليه من التهم الباطلة عليه الصلاة والسلام، فقالوا: شاعر، كذاب، ساحر، كاهن، ورموا امرأته عليها رضوان الله بالزنا؛ وقالوا: رسالته ليست صادقة؛ وقالوا: إنما يعلمه بشر؛ وقالوا: مفتر على الله؛ وهو يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل.

- ولما دخل غار حراء ومعه أبو بكر رضي الله عنه، طوقه الكفار، فقال أبو بكر: كما يروي أنس، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الْغَارِ: وَقَالَ مَرَّةً: وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ،

(١) ولكن لا بد من الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النجاح لله تعالى والثقة بأنه يَعْلَمُ لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

قَالَ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا» (١).

٣ - الابتلاء علامة لمحبة الله للعبد:

إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، ولذلك للأنبياء تاريخ وقصة طويلة مع الابتلاء منذ أن نزلت لا إله إلا الله في الأرض، فنوح إِبْتُلِيَ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وكل من جاء بعد الأنبياء فهو مبتلى فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، وبعض الابتلاءات تجعل ضعف النفوس يتحول عن الإسلام تمامًا، ويترك منهج الله! خسر الدنيا والآخرة، انقلب على وجهه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١] لكن يأبى الله أن ينقلب العبد على وجهه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان، وبعد أن أحب محمدًا عليه الصلاة والسلام أكثر من أمه وأبيه.

٤ - حقارة الدنيا عند الابتلاء:

إن الحياة عند الابتلاء تصبح بشهواتها وملاذها ووظائفها وأموالها وبها رجعها ضعيفة ضئيلة: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

(١) صحيح البخاري: (٣٦٥٣)، مسند أحمد: (١ / ١٨٩).

٥ - الابتلاء يبعث الهمّة في النفوس:

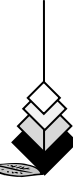
إن الحق سوف يبقى وسوف يتتصر، ولذلك على العبد أن يواصل بهمة أعظم وأعلى، وبقوة وصرامة، ويستمر لأنه قد باع نفسه لله، وعلى المسلم أن يخلص لله وأن يصدق في دعوته، وأن يؤدي دعوته على أكمل وجه، وألا يتوقف، وأما هذه الابتلاءات فإنها عواصف في الطريق: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

* عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». (١)

٦ - ومن دروس الابتلاء: أن نعرف أعداء الإسلام، ومخططاتهم، ولنعلم أن من خططهم تلتويخ سمعة العلماء والدعاة، فإذا أطخت لا يثق بهم أحد ولا يقبل عليهم أحد، ولا يتعلم عندهم أحد، ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(١) سنن الترمذي: (٢٥١٦)، مسند أحمد: (٢٦٦٩).

قصر الأمل، وتدبر القرآن، وتجنب مفسدات القلب



وهذه الأمور سأتكلم عنها بصورة مختصرة جداً، حتى لا يكون هناك تطويل فأقول مستعيناً بالله:

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب.

فإنه يبعثه على تدارك الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ويشير عزمات القلب إلى دار البقاء والخلود، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة كما قال سبحانه: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلُغٌ فُهْلٌ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأما تدبر القرآن: فهو تحقيق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَكُونُوا أَعْيُنًا لِّبَنِيٍّ وَلِيَذَّكَّرُوا أُولَئِكَ لَبِيبٌ﴾ [ص: ٢٩].

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وجمع الفكر فيه على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر، وتدله على مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صور الدنيا والآخرة، والجنة والنار.

وتحضره بين الأمم السابقة، وترى أيام الله فيهم، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يحبه الله وما يبغضه.

وترى طريق أهل الجنة، وأهل النار، ومراتب أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وتطلع على تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والترغيب والترهيب، والمواعظ والصبر وغيرها.

وأما مفسدات القلب: فكثرة الخلطة. والتمني.. والتعلق بغير الله.. وكثرة الشبع وكثرة النوم.. فهذه الخمسة أكبر مفسدات القلب.

فالقلب السليم يسير إلى الله تعالى والدار الآخرة، وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتضعف قواه، قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له، وجعل نعيمه وسعاده وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.



الفصل السادس

رسالة يحذرننا فيها ربنا
من الهوى

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وانطلاقاً من هذه الرسالة نقف مع قضية الهوى، فأقول مستعيناً بالله:

الهوى لغة:

مصدر قولهم: هوى يهوى، وتدلّ المادة التي اشتق منها على «الخلو والسقوط.. ومن ذلك: الهواء بين السماء والأرض سمي بذلك لخلوه، وكلّ خال هواء، قال تعالى: ﴿وَأَفْتَدَهُمْ هَوَاءٌ﴾» [إبراهيم: ٤٣] أي خالية لا تعي شيئاً، ويقال: هوى الشيء يهوى أي سقط، والهاوية جهنم؛ لأنّ الكافر يسقط فيها، والهوة: الوهدة العميقة، يقول ابن فارس: وهوى النفس مأخوذ من المعنيين جميعاً (أي من الخلو والسقوط) لأنّه خال من كلّ شيء، ويهوى صاحبه فيما لا ينبغي^(١)، وذهب الراغب إلى أنّه مأخوذ من معنى السقوط فقط فقال: «وقيل سمي بذلك لأنّه يهوى صاحبه في الدنيا إلى كلّ داهية وفي الآخرة إلى الهاوية^(٢)، والهوى، مقصور: هوى النفس، وجمعه أهواء، وإذا أضفته إليك قلت: هواي وبعض العرب يقول: هويّ، وقولهم: هذا الشيء

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٦).

(٢) المفردات (ص ٥٤٨)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٥/ ٣٥٩) وما بعدها.

أهوى إليّ من كذا أي أحب إليّ، وهوي بالكسر يهوي هوى، أي أحب، وهوى بالفتح يهوى هويًا، أي سقط إلى أسفل، وهوى وانهوى بمعنى وهاوى القوم في المهواة، إذا سقط بعضهم في إثر بعض، واستهواه الشيطان أي استهامه، قال تعالى: ﴿كَالَّذِي أُسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١] أي استغوته وزينت له هواه ودعته إليه (١) وقال ابن منظور: وهوى النفس: إرادتها، وقيل محبة الإنسان الشيء وغلته على قلبه، قال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] معناه: نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله - عز وجل -، وقيل الهوى: هوى الصّميم، ومتى تكلم بالهوى مطلقا لم يكن إلّا مذموما، حتى ينعت بما يخرج معناه عن الذمّ كقولهم: هوى حسن، وهوى موافق للصواب (٢)، وأمّا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فمعناه: ولا تؤثر هواك في قضائك على الحق والعدل فتجور عن الحق؛ فيضلك ذلك عن سبيل الله، وقيل: لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله فيضلك عن سبيل الله أي عن طريق الجنة. (٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧ / ١٤) قد نقل عن ابن عباس رضي الله عنه في معنى هذه الآية قوله «أي مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول (الشيطان) فيتبعه فيصبح وقد ألقته في مضلة ومهلكة فهو حائر في تلك المهامه (والقفار)، قيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - كان يدعو أباه إلى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام.

(٢) لسان العرب (هوى) (ص ٤٧٢٦) ط دار المعارف وانظر الصحاح (٦ / ٥٣٧).

(٣) انظر تفسير الطبري (١ / ٩٧) وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) (١٥ / ١٢٤).

الهوى اصطلاحاً :

﴿ قال الكفوي: الهوى: ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع. (١) ﴾

﴿ وقال المناوي: وقيل: الهوى: نزوع النفس لسفل شهواتها لباعث انبساطها ويكون ذلك في مقابلة معتلى الروح. (٢) ﴾

﴿ وقال الراغب: هو ميل النفس إلى الشهوة. (٣) ﴾

﴿ وقال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى -: ميل الطبع إلى ما يلائمه. (٤) ﴾

أهل الأهواء: هم أهل القبلة الذين لا يكون معتقدهم معتقد أهل السنة، وهم الجبرية والقدرية والروافض والمعتلة والمشبّهة وكلّ منهم اثنتا عشرة فرقة. (٥)

اتباع الهوى اصطلاحاً :

هو إثارة ميل النفس إلى الشهوة والانقياد لها فيما تدعو إليه من معاصي الله - عز وجل. (٦)

(١) الكليات (ص ٩٦٢) وانظر أيضاً المناوي في (التوقيف على مهمات التعاريف)

(ص ٣٤٤) حيث ذكر هذا التعريف ضمن تعريفات أخرى عديدة.

(٢) نقل المناوي هذا التعريف عن الحارثي وقد تصرفنا فيه تصرفاً يسيراً.

(٣) المفردات (٥٤٨).

(٤) ذم الهوى (١٢).

(٥) كتاب التعريفات للجرجاني (ص ٤١).

(٦) هذا التعريف مقتبس مما ذكره اللغويون والمفسرون.

❁ اتباع الهوى وأثره على الفرد والمجتمع:

إنّ انقياد الإنسان واتباعه للشهوة يجعله في مصافّ الحيوانات، ويجلب له الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

❁ يقول الجاحظ: إذا تمكّنت الشهوة من الإنسان وملكته وانقاد لها كان بالبهايم أشبه منه بالناس، لأنّ أغراضه ومطلوباته وهمّته تصير أبداً مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط، وهذه هي عادة البهايم، ومن يكون بهذه الصفة يقلّ حياؤه، ويكثر خرقه، ويستوحش من أهل الفضل، ويبغض أهل العلم، ويودّ أصحاب الفجور، ويستحبّ الفواحش، ويسرّ بمعاشرة السخفاء، ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو، وقد يصير من هذه الحالة إلى الفجور، وارتكاب الفواحش، والتعرّض للمحظورات، وربّما دعت محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربّما حملته على الغضب والتلصص والخيانة وأخذ ما ليس له بحقّ؛ فإنّ اللذات لا تتمّ إلّا بالأموال والأعراض، فمحبّ اللذة إذا تعدّرت عليه الأموال من وجوهها، جسّرت شهوته إلى اكتسابها من غير وجوهها، ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحدّ، فهو أسوأ الناس حالاً، ويصبح من الأشرار الذين يخاف خبثهم، ويصير واجبا على متولّي السياسات تقويمهم وتأديبهم، وإبعادهم ونفيهم، حتّى لا يختلطوا بالناس فإنّ اختلاط من هذه صفته بالناس مضرّة لهم، وبخاصّة الأحداث منهم، لأنّ الحدث (صغير السنّ) سريع الانطباع، ونفسه مجبولة على الميل إلى الشهوات، فإذا شاهد غيره مرتكباً لها، مستحسناً لانهماك فيها، مال هو أيضاً إلى الاقتداء به. (١)

(١) باختصار وتصرف يسير عن تهذيب الأخلاق (١٥ - ١٦).

❁ الفرق بين الهوى والشهوة:

❦ يقول الإمام الماوردي: فرق ما بين الهوى والشهوة، أنَّ الهوى مختص بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصة بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى، والهوى أصل وهو أعم. (١)

❦ وقال الراغب في الفرق بين الهوى والشهوة، أنَّ الشهوة ضربان: محمودة ومذمومة، فالمحمودة من فعل الله تعالى، والمذمومة من فعل البشر، وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية، والهوى هو هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعتها الفكرة، وذلك أنَّ الفكرة بين العقل والشهوة، فالعقل فوقها، والشهوة تحتها، فمتى ارتفعت الفكرة ولدت المحاسن، وإذا سفلت ولدت القبائح. (٢)

❁ الفرق بين ما يسومه العقل وما يسومه الهوى:

❦ يوضح الراغب ذلك فيما يلي:

١ - من شأن العقل أن يرى ويختار أبداً الأصلح في العواقب وإن كان في المبدإ على النفس مشقة، والهوى على الضد من ذلك، فإنه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت (العاجل) وإن كان يعقبه مضرة في الآجل، ولذلك قال رسول الله ﷺ «حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

٢ - الهوى يري الإنسان ماله دون ما عليه، ويعمّي عليه ما يعقبه من

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٣٨).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص ٤٦) باختصار وتصرف.

المكروه، أمّا العقل فإنّه يري الإنسان ما له وما عليه، وما يريه العقل يتقوّى إذا فزع فيه المرء إلى الله - ﷻ - بالاستخارة.

٣- العقل يري ما يري بحجّة وعذر، والهوى يري ما يري بشهوة وميل. (١)

❁ الهوى يعمي ويصم:

رحم قال ابن تيمية: صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمّه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر ولا يطلبه أصلاً، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدّين كلّ الله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحميّة لنفسه وطائفته أو الرّياء، ليعظم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدّنيا فلم يكن لله غضبه، ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، بل إنّ أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمّن يوافقهم، وإن كان جاهلاً سيّئ القصد، ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمّدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذمّوا من لم يذمّه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله. (٢)

(١) المرجع السابق (٤٣ - ٤٥) باختصار وتصرف.

(٢) منهاج السنة النبوية (٥ / ٢٥٥ - ٢٥٦). بتصرف.

❁ اتباع الهوى ضلال وعلامة من علامات أهل البدع:

❁ قال الشاطبي - رحمه الله تعالى: وهو يذكر علامات أهل البدع، منها: الفرقة التي نبه عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥] فعزا رحمه الله - إلى بعض المفسرين: أنهم صاروا فرقا لا تبايع أهوائهم، وبمفارقة الدين تشتت أهواؤهم فافترقوا ثم برأ الله نبيهم بقوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. ثم ذكر أن الصحابة اختلفوا ولم يتفرقوا إلى أن قال - رحمه الله تعالى -: فكل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام. وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنازع والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء قال: فيجب على كل ذي دين وعقل أن يجتنبها، فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدث أحدثه من اتباع الهوى. وذكر منها أيضا: اتباع الهوى: وهي التي نبه عليها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينٌ﴾ [آل عمران: ٧] وهو الميل عن الحق اتباعا للهوى، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [البجائية: ٢٣]. (١)

(١) بتصرف من الموافقات (٤/ ١٠٤ - ١٠٧) ط. دار الفكر.

✽ علاج الهوى:

يعالج بالعزم القويّ في هجران ما يؤذي، والتدرّج فيما لا يؤمن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة، ويهون ذلك على المبتلى أمور سبعة هي:

١ - التّفكّر في أنّ الإنسان لم يخلق للهوى، وإنّما هيّئ للنظر في العواقب والعمل للأجل، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بخس الإنسان - وهو سرف في حظّه - منه وزاد عن حظّ البهائم، وفي توفير حظّ آدمي من العقل وبخس حظّه من الهوى دليل على فضل هذا وذاك.

٢ - التّفكّر في عواقب الهوى، فكم فوّت من فضيلة، وكم قد أوقع في رذيلة، وكم من زلّة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم. غير أنّ صاحب الهوى لا يرى إلّا الهوى.

٣ - تصوّر العاقل لانقضاء غرضه من هواه، ثمّ يتصوّر مدى الأذى الذي يحصل له عقب اللذّة، فإنّه حينئذ سيري أنّ ما حصل له من الأذى يربو على الهوى أضعافاً مضاعفة.

٤ - تصوّر عاقبة ذلك في حقّ غيره؛ فعندئذ سيري ما يعلم به عيب نفسه إن هو وقف في ذلك المقام وارتكس في هذه الآثام.

٥ - التّفكّر في حقيقة ما يناله باتّباعه هواه من اللذّات والشّهوات، فإنّ العقل سيخبره أنّه ليس بشيء، وإنّما عين الهوى عمياء.

٦ - التّدبّر لما يحصل له من عزّ الغلبة إن ملك نفسه، وذللّ القهر إن غلبته، فما من أحد غلب هواه إلّا أحسّ بقوة العزّ، وما من أحد غلبه هواه إلّا

وخز في نفسه ذلّ القهر.

٧- التّفكّر في فائدة مخالفة الهوى من اكتساب الذّكر الجميل في الدّنيا، وسلامة النّفس والعرض والأجر في الآخرة، ثمّ يعكس فيتفكّر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك على الأبد، من كان يكون يوسف لو نال تلك اللّذة؟ فلمّا تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة، صار من قد عرفت. (١)

❁ أنواع الهوى:

والأهواء نوعان: منها ما هو واضح جلي لا خلاف عليه، ومنها ما هو دقيق صغير لا يكاد يعرفه إلا المتخصص.

والهوى الجلي ينفر منه الطيب النقي بطبعه، أما الهوى الدقيق الذي لا يتبين لأول وهلة فإن معظم الأهواء تقع من هذا النوع، خاصة وأن كثيرًا من المسلمين يتبعون العاطفة التي تدرج بهم شيئًا فشيئًا؛ حتى يتمكن الهوى من قلوبهم.

وكما أن الهوى نوعان فإن الهوى له مركبان من ركب واحدًا منهما هوى: وهما الجهل والمال: فأى أحد يركب مركب من هذين ولا يستضيء بنور العلم هوى، فلو تخيلنا رجلًا جاهلًا لا يعرف الله، ومع هذا عنده مال كثير فما الذي نتصور أن يفعله هذا الرجل بالمال؟ سيركب كل شهوة يشتهيها.

(١) ذم الهوى (١٤، ١٥) بتصرف.

ومن طلب النجاة فلا بد أن يسلم قلبه من هوى يناقض الوحي، لأن الهوى قد يدمر القلوب، ويبعث الأعمال، والله جل وعلا لا يقبل الأعمال إلا إذا كانت خالصة، وفي الصحيحين من حديث أسامة أن النبي ﷺ قال: «يُوتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَفْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ». (١)

❖ تحذير القرآن من اتباع الهوى:

* تكلم القرآن عن الهوى بطريقتين الطريقة الأولى التحذير أو التوبيخ وهذا في مثل قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧]

* وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤]

* وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]

* وقوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩]

* وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]

* وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِّن رَّيْبٍ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]

* وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]

* وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٣]

* والطريقة الثانية وهي طريقة التوجيه وهذا في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]

* وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ

يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ
وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ [المائدة: ٤٩]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٧]

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ [طه: ١٥-١٦]

* وقوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]

* وقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ [الشورى: ١٥]

* وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]

* وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ﴾ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ﴾ ﴿٤﴾ [النجم: ١ - ٤]

❁ ذم الهوى في سنة رسول الله ﷺ :

* قال قطبة بن مالك رحمه الله: كان النبي ﷺ، يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ». (١)

* وعن أبي برزة الأسلمي - رحمه الله - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ
مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، شَهَوَاتِ الْغِيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضَلَّاتِ
الْهَوَىٰ». (٢).

* وَعَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُسَيْنِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ
تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: آيَةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ
أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ
سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «بَلْ اتَّمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً،
وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ

(١) الترمذي (٣٥٩١) واللفظ له. وذكره في المشكاة برقم: (٢٤٧١).

(٢) أحمد (٤ / ٤٢٠ - ٤٢٣) واللفظ له. وقال الألباني (١٢): صحيح.

وَرَأَيْتُكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُبْتَةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ. قَالَ: «بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ». (١)

* وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتْنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ (٢)، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسَكَتَ الْقَوْمُ (٣)، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ (٤) قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا» (٥)، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا (٦)، نَكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ (٧) سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نَكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ

(١) الترمذي (٣٠٥٨)، وأبو داود (٤٣٤١). وابن ماجه (٤٠١٤). والبيهقي في «شرح السنة» (٣٤٨ / ١٤) وقال محققه: للحديث شواهد يتقوى بها.

(٢) أجل: نعم.

(٣) أسكت: أي أطرق، وإنما سكت القوم لأنهم لم يكونوا يحفظون هذا النوع من الفتنة.

(٤) لله أبوك: كلمة مدح تعتاد العرب الثناء بها.

(٥) المراد بعرض الفتنة على القلوب ورودها عليها متتابعة بعضها ورد بعض كالحصير تتابع أعواده عودا بعد آخر.

(٦) أشربها: أي دخلت فيه دخولا تاما.

(٧) نكت نكتة: أي نقط نقطة.

بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَيْبَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا نَضْرُهُ فَتَنَّهُ مَا دَامَتْ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا (١) كَالْكُوزِ، مُجَحِّيًّا (٢) لَا يَعْرِفُ
مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ، «أَنَّ
بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُعَلَّقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ»، قَالَ عُمَرُ: أَكْسَرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ
فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: «لَا بَلْ يُكْسَرُ»، وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ
أَوْ يَمُوتُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ». (٣)

* وَعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثُ كَفَّارَاتٍ وَثَلَاثُ دَرَجَاتٍ
وَثَلَاثُ مُنْجِيَّاتٍ وَثَلَاثُ مُهْلِكَاتٍ فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي
السَّبَرَاتِ (٤) وَانْتِظَارُ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ
وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ وَأَمَّا
الْمُنْجِيَّاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَخَشْيَةُ اللَّهِ
فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشُحُّ مَطَاعٍ وَهَوَى مُتَّبِعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ
بِنَفْسِهِ». (٥)

(١) مرياد: بياض يسير يخالطه سواد كثير.

(٢) مجحياً: منكوساً مائلاً.

(٣) مسلم: (١٤٤).

(٤) السبرات: جمع سبرة بفتح السين وسكون الباء وهي الغداة الباردة، والمراد شدة البرد في أوائل النهار أو غيرها.

(٥) البزار: (٨٠). وانظر الصحيحة: رقم (١٨٠٢) وقال: الحديث بمجموع الطرق حسن على أقل الدرجات.

* وَعَنْ خَبَّابٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ﴾ [الأنعام: ٥٢] وَالْعَشِيِّ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأنعام: ٥٢]، قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ، فَوَجَدَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَاتَّوَهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، نَعْرِفَ لَنَا بِهِ الْعَرَبَ فَضْلَنَا، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمَّهُمْ عِنَّا، فَإِذَا نَحْنُ فَرَعْنَا، فَأَقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَارْتَبِطْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ قُعودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعُ ابْنَ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكْبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَجْلِسُ مَعَنَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، قَامَ وَتَرَكْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴿[الكهف: ٢٨] وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: ﴿تُرِيدُ

زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا ﴿ [الكهف: ٢٨] يَغْنِي عَيْنَهُ،
وَالْأَقْرَعَ ﴿ وَأَتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿ [الكهف: ٢٨] قَالَ: هَلَاكًا، قَالَ:
أَمْرٌ عَيْنُهُ، وَالْأَقْرَعَ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالَ
خَبَّابٌ: «فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا، قُمْنَا
وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ». (١)

* وَعَنْ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا فِي
كِتَابِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً،
يَغْنِي الْأَهْوَاءَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ يُخْرَجُ فِي أُمَّتِي
أَقْوَامٌ تُجَارِي (٢) بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءَ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ لِصَاحِبِهِ، وَلَا يَبْقَى
عَرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ». (٣)

❁ من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في ذم (اتباع الهوى):

❏ قال عليّ رضي الله عنه: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَانِ: طُولُ الْأَمَلِ
وَاتِّبَاعُ الْهَوَى. فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيَنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصِدُّ عَنِ
الْحَقِّ. أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مَدْبَرَةً وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ،

- (١) ابن ماجه (٤١٢٧) وقال في الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. وقد روى
مسلم والنسائي وابن ماجه بعضه من حديث سعد بن أبي وقاص.
(٢) تجارى: أصله تتجارى والمعنى تتسابق بهم الأهواء أي تتسابقهم ويسابقونها،
ومؤدى هذا أنهم لا يراجعون أنفسهم فيما تميل إليه.
(٣) أبو داود (٤٥٩٧) وذكره ابن أبي عاصم في السنة. وقال الألباني: حديث صحيح
(٨).

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل». (١)

وقال الحسن البصري: أخذ الله على الحكّام أن لا يتبعوا الهوى، ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بآياتي ثمنًا قليلًا، ثم قرأ ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. (٢)

وقال أيضًا وقد سئل: هل في أهل القبلة شرك؟ فقال: نعم، المنافق مشرك. إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله، وإنّ المنافق عبد هواه، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]

وقال عبد الرحمن بن مهدي (وغيره) رحمهم الله تعالى: «أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلّا ما لهم». (٣)

وقال قتادة - رحمه الله تعالى -: «إنّ الرجل إذا كان كلّما هوي شيئاً ركبه، وكلّما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى، فقد اتخذ إلهه هواه». (٤)

(١) فضائل الصحابة، للإمام أحمد (١/ ٥٣٠) رقم (٨٨١).

(٢) البخاري - الفتح (١٣/ ١٥٦).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية

(١/ ٧٢، ٧٣) تحقيق وتعليق: د. ناصر ابن عبد الكريم العقل.

(٤) أضواء البيان (٦/ ٣٣٠).

﴿وقال إبراهيم النخعي - رحمه الله تعالى: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين»﴾. (١)

﴿وقال ابن سيرين - رحمه الله تعالى - لرجلين من أصحاب الأهواء وقد دخلا عليه فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالوا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، لتقومان عني أو لأقومن. فخرجا، فقال بعض القوم؟: يا أبا بكر، ما كان عليك أن يقرأ عليك آية من كتاب الله تعالى؟ قال: إنني خشيت أن يقرأ علي آية فيحرّفاها فيقرّ ذلك في قلبي»﴾. (٢)

﴿وقال مجاهد رحمه الله تعالى: «ما يدرى أيّ النعمتين عليّ أعظم: أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء»﴾. (٣)

﴿وقال أبو قلابة رحمه الله تعالى: «لا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم، فإنّي لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»﴾. (٤)

﴿وقال رحمه الله تعالى: «إن أهل الأهواء أهل الضلالة، ولا أرى مصيرهم

(١) الإبانة لابن بطة بواسطة رسالة الهوى وأثره في الخلاف لعبد الله بن محمد الغنيمان (٩).

(٢) سنن الدارمي (١ / ١٢١) رقم (٣٩٧) وروى مثل ذلك عن سعيد بن جبير وأيوب السخيتاني انظر نفس الموضع.

(٣) سنن الدارمي: (٣٠٩).

(٤) سنن الدارمي: (٣٩١). والسنة لعبد الله بن الامام أحمد (١ / ١٣٧) رقم (٩٩).

إِلَّا النَّارَ، فَجَرَّبَهُمْ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَّحِلُ قَوْلًا - أَوْ قَالَ حَدِيثًا - فَيَتَنَاهَى بِهِ
 الْأَمْرَ دُونَ السَّيْفِ، وَإِنَّ النَّفَاقَ كَانَ ضَرْوبًا، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾
 [التوبة: ٧٥]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ﴾
 يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة: ٦١] فَاخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ، وَاجْتَمَعُوا فِي الشَّكِّ وَالتَّكْذِيبِ،
 وَإِنَّ هَؤُلَاءَ اخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ وَاجْتَمَعُوا فِي السَّيْفِ، وَلَا أَرَى مُصِيرَهُمْ إِلَّا
 النَّارَ». (١)

❖ نماذج لمن اتبعوا الهوى:

الهوى شارع النار الأكبر، وما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً،
 ولا يغتر أحد بصولة أهل الهوى وكبرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا
 بين رذيلتي الكبر والذل.

وكل عاقل يأنف أن يكون تحت قهر عدوه، فالشيطان إذا رأى من
 الإنسان ضعف عزيمة وهمة، وميلاً إلى هواه، طمع فيه وصرعه، وألجمه
 بلجام الهوى، وساقه حيث أراد على موارد الهلكة.

والهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة
 والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء. وإن وقع الهوى في الزهد
 أخرج صاحبه إلى الرياء، ومخالفة السنة. وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه
 إلى الظلم، وصدّه عن الحق. وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل

إلى الجور. وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة. وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين، حيث يولي بهواه، ويعزل بهواه. فما قارن الهوى شيئاً إلا أفسده، وهو يسري في القلب والأعضاء سريان السم في القلب والأعضاء.

* فإبليس حمله هواه على التكبر عن طاعة الله ﷻ لما أمره بالسجود لآدم، فطرده الله ولعنه، فهو أشقى الخلق في الدنيا والآخرة. وآدم حمله الحرص وهوى نفسه على الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها طمعاً في الخلود، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجها منها إلى دار التعب والنصب.

* وفتنة الكفار حين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وابتدعوا في دينه ما لم يشرعه، وحرموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش، وزعموا أن الله أمرهم بها، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحب الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيله حتى خسروا الدنيا والآخرة. وقوم نوح اتبعوا أهواءهم وكذبوا رسله، واستكبروا عن الحق، فأغرقهم الله في الدنيا، ولهم النار يوم القيامة.

* وقوم عاد لما دعاهم هود إلى عبادة الله وحده سفهوه وكذبوه، فعاقبهم الله بالعذاب الفظيع المستمر، بريح صرصر عاتية، تدمر كل شيء بإذن ربها،

فخسروا الدنيا والآخرة. (١)

* وقوم ثمود لما كذبوا رسولهم صالحًا، واستكبروا عن الحق الذي جاء به، عاقبهم الله بالهلاك في الدنيا والآخرة: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

* ولوط دعا قومه إلى الله، وحذرهم من فعل الفاحشة، وهي إتيان الذكران من العالمين، فكذبوه وسخروا منه، فعاقبهم الله بأن أمر جبريل برفع بلادهم وقلبها عليهم، ثم أتبعوا بحجارة من سجيل كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۖ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

* وقوم شعيب حملهم علىٰ بخس المكيال والميزان فرط محبتهم للمال، وغلبهم الهوى علىٰ طاعة نبيهم شعيبًا حتىٰ أصابهم العذاب.

* وفرعون وقومه حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة علىٰ تكذيب موسى، فعاقبهم الله بالغرق في الدنيا، والإحراق بالنار في الآخرة.

* وأهل السبت مسخوا قردة لما خالفوا أمر الله، واتبعوا أهواءهم. والذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، واتبع هواه، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

وقد ذكر الله في سورة الأعراف حال أهل الأهواء والشهوات وما آل إليه

(١) موسوعة فقه القلوب (٤ / ٣٠٩٥).

أمرهم مفصلاً، فالكفر والهوى أصل كل بلية: ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧) ﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىْ وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨) ﴿[الأعراف: ١٧٧، ١٧٨].

وكل من بلغته الحجة ثم اتبع هواه فإن الله يرفع عنه ولايته ونصرته كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا أَتَبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

- وقد شبه الله ﷻ أتباع الهوى بأخس الحيوانات. فشبهم بالكل تارة كما قال سبحانه: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِيَةِ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

- وشبهم بالحرر تارة كما قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ (٥١) ﴿[المدثر: ٤٩ - ٥١].

- ومن اتبع هواه طبع الله على قلبه كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُواْ مِن عِنْدِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]. (١)

- وملاك الأمر كله الرغبة في الله.. وإرادة وجهه، والتقرب إليه.. والشوق إلى الوصول إليه.. وتحقيق مراده.. والفوز برضاه.. واتباع هدايه.

• أبو جهل اتبع هواه:

هل يظن أحد أن أبا جهل لا يعرف أن محمدًا عليه الصلاة والسلام صادق، والجواب: إن أبا جهل يعرف أنه صادق.

* فعن المغيرة بن شعبه قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ، إني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله، إني أدعوك إلى الله»، فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهمنا، هل تريد إلا أن تشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًا ما تبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل علي فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم؛ قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم؛ قالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم؛ قالوا: فينا السقاية: قلنا: نعم؛ ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي فلا والله لا أفعل. (١) قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يعرف نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وأنه صادق، لكنه ركب رأسه واتباع هواه.

(١) سيرة ابن اسحاق: (ص: ٢١٠).

• أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ صَدَه عَنْ اللَّهِ هَوَاهُ:

* جَاءَ أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ لَعَنَهُ اللَّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ، وهو يفتته ويذروه في الهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبِيعُ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعُثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ». (١) وَأَنْزَلَ اللَّهُ جَوَابًا لَهُ وَلَا مِثْلَهُ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

❖ عاقبة من اتبع هواه:

ومن اتباع الهوى كما ورد عند مسلم عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَيَّ فِيهِ. (٢) أَيَّ جَعَلَهَا اللَّهُ يَابِسَةً: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]. نعوذ بالله من الهوى والضلال.



(١) وأورد ابن كثير عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ. وَلَا مَانِعَ مِنْ تَكَرُّرِ الْأَمْرِ مَعَهُمَا.

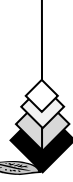
(٢) صحيح مسلم (٢٠٢١).



الفصل السابع

رِسَالَةٌ يُحَذِّرُنَا فِيهَا رَبُّنَا
مِنَ الدُّنْيَا

اعلموا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ



إن الدنيا دارٌ بالبلاءِ مَحْفُوفَةٌ، وبالفناءِ معروفةٌ، وبالغدرِ مَوْصُوفَةٌ، كُلُّ ما فيها زوالٌ وهي بينَ أهلِها دُؤْلٌ وَسِجَالٌ، لا تَدُومُ أهوالُها، ولن يَسْلَمَ مِنْ شرِّها نَزْلُها، بينا أهلُها منها في رِخاءٍ وسُرورٍ، إذا هم مِنْها في بلاءٍ وغُرورٍ، أَحْوالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وتاراتٌ مُتَصَرِّفَةٌ.

- واعلم أن الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِتَجُوزَها لا لِتَحُوزَها، وَلِتَعْبُرَها لا لِتَعْمُرَها فاقْتُلْ هَواكَ الْأَمَلِ إِلَيْها ولا تُعَوِّلْ عَلَيْها، واعلم أَنَّ الدُّنْيَا مَرْعَةٌ النَّوائِبِ وَمَشْرَعَةٌ الْمَصَائِبِ وَمُفَرِّقَةٌ الْمَجَامِعِ وَمُجَرِّبَةٌ الْمَدَامِغِ.

❁ التحذير من الافتتان بالدنيا والركون إليها :

إِنَّ هَذِهِ الدَّارَ دَارُ التَّوَاءِ لا دَارُ اسْتِواءٍ، وَمَنْزِلُ تَرْحٍ، لا مَنْزِلُ فَرْحٍ، مَنْ عَرَفَها لَمْ يَفْرَحْ لِرِخاءٍ، وَلَمْ يَحْزَنْ لَشِقَاءٍ أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ الدُّنْيَا دَارَ بَلْوَى، وَالْآخِرَةَ دَارَ عُقْبَى فَجَعَلَ بَلْوَى الدُّنْيَا لِثَوَابِ الْآخِرَةِ سَبَبًا وَثَوَابِ الْآخِرَةِ مِنْ بَلْوَى الدُّنْيَا عَوْضًا، فَيَأْخُذُ لِيُعْطَى، وَيَبْتَلِي لِيَجْزَى، إِنَّها لَسَرِيعَةُ الذَّهَابِ، وَشَيْكَةُ الانْقِلَابِ، فَاحْذَرُوا حَلَاوَةَ رِضَاعِها لِمَرَارَةِ فِطَامِها، وَاهْجُرُوا لَذِيذَ عَاجِلِها لِكَرِيهِ آجِلِها ولا تَسْعُوا فِي عُمْرَانِ دَارٍ قَدْ قَضَى اللَّهُ خَرابَها ولا تَوَاصِلُوها، وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ مِنْكُمْ اجْتِنابَها، فَتَكُونُوا لِسُخْطِهِ مُتَعَرِّضِينَ، وَلِعُقُوبَتِهِ مُسْتَحَقِّينَ.

❁ واعلم علم اليقين الذي لا يخالطه شك أن حب الدنيا رأس كل خطيئة :

- عن سفيان الثوري قال عيسى ابن مريم عليه السلام: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَالْمَالُ فِيهِ دَاءٌ كَثِيرٌ، قِيلَ: يَا رَوْحَ اللَّهِ: مَا دَأْوُهُ؟ قَالَ: لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ قَالُوا: فَإِنْ أَدَّى حَقَّهُ؟ قَالَ: لَا يَسْلُمُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ، قَالُوا: فَإِنْ سَلِمَ مِنَ الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ؟ قَالَ: يَشْغَلُهُ اسْتِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. (١)

- وعن الحسن، قال: يَقُولُ: «وَاللَّهِ لَقَدْ عَبَدْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْأَصْنَامَ بَعْدَ عِبَادَتِهِمْ لِلرَّحْمَنِ تَعَالَى بِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا» (٢)

- وعن إبراهيم بن بشار قال: مَا رَأَيْتُ فِي جَمِيعِ مَنْ لَقِيتُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالزُّهَادِ أَحَدًا يُغْضُ الدُّنْيَا وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ رُبَّمَا مَرَرْنَا عَلَى قَوْمٍ قَدْ هَدَمُوا حَائِطًا أَوْ دَارًا أَوْ حَانُوتًا فَيَحْوِلُ وَجْهَهُ وَلَا يَمْلَأُ عَيْنِيهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ فَعَاتَبْتُهُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: يَا ابْنَ بَشَّارٍ أَفَرَأَى مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وَلَمْ يَقُلْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عِمَارَةً لِلدُّنْيَا وَأَكْثَرَ حُبًّا وَذُخْرًا وَجَمْعًا لَهَا ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ عَزَّ اسْمُهُ فِيمَا يَقُولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] [الذاريات: ٥٦] وَلَمْ يَقُلْ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْمُرُوا الدُّنْيَا وَيَجْمَعُوا الْأَمْوَالَ وَيَبْنُوا الدُّورَ وَيُشِيدُوا الْقُصُورَ وَيَتَلَذَّذُوا وَيَتَفَكَّهُونَ وَيَجْعَلَ يَوْمَهُ أَجْمَعَ يُرَدِّدُ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: ﴿فِيهِدَنَّهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٦ / ٣٨٨).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٢ / ١٥٦).

لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ [البينة: ٥]. (١)

- وعن شقيق البلخي قال: «عَمِلْتُ فِي الْقُرْآنِ عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى مَيَّزْتُ الدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ، فَأَصَبْتُهُ فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]» (٢)

فالكيِّس الفطن هو الذي يجعل نصبَ عينيه أن الدنيا دارُ اختبارٍ وبلاءٍ، وأنها مزرعةٌ للآخرة، وأن الله تعالى استخلفنا فيها فينظر كيف نعمل عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». (٣)

وما يزرعه الناس فيها اليوم يحصدوه غداً في الآخرة إن شاء الله تعالى، فمن زرع الطاعة رجا المغفرة، ومن زرع الشوك لا يجني عبناً، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢٢]، وهي صائرةٌ إلى فناءٍ وزوالٍ، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٨ / ٤٠).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٨ / ٦٠).

(٣) صحيح مسلم: (٢٧٤٢).

❁ ذم الدنيا وبيان حقارتها وضرب المثل لها في القرآن:

إن الذي يُمَعِّنُ النظر في كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة إذا تفكَّرَ جلياً وتأمل ملياً يعلم علم اليقين الذي لا يخالطه شك أن الله قد ذم الدنيا والرغبة فيها، ومدح الزهد فيها والتقلل منها والآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، ومنها: قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝١٤﴾ ❁ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ﴿[آل عمران: ١٤ - ١٥].

* وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝٦٦﴾ ❁ [الرعد: ٢٦].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ۝١٨٥﴾ ❁ [آل عمران: ١٨٥].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿[يونس: ٢٤].

* وقال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴿[الحديد: ٢٠] ثم ضرب الله مثلاً فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴿[الآخِرَةَ عَذَابٌ

شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه هي الآخرة، إما عذاب شديد في نار جهنم، أو مغفرة ورضوان في جنات النعيم.

* وقال تعالى: ﴿وَلِإِن كُُلُّ ذَلِكْ لَمَّا مَتَعُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

* وقال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا - ذَلِكْ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ذَلِكْ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴿٣٠﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

* وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

* وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

* وقال تعالى في وصف الدنيا: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

* وحذر ربنا سبحانه من فتنة الأموال والأولاد، فقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

* ونهى جل وعلا عن النظر إلى ما في أيدي الناس ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

* وذم الله ﷺ أهل الدنيا الذين تشبثوا بها وتركوا الآخرة، وآثروا الذي يفنى على الذي يبقى، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٢١) [القيامة: ٢٠ - ٢١].

* وحذر ربنا من الاغترار بالدنيا فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، فلنحذر الحياة الدنيا فإنها غرارة خداعة.

❁ ذم الدنيا في حديث الرسول ﷺ :

* ها هو رسول الله ﷺ يرسم على لسانه نظرته إلى الدنيا بقوله: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِنَّمَا أَنَا وَالِدُنْيَا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». (١)

* وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». (٢)

* وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» (٣) وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا

(١) مسند أحمد: (٣٧٠٩). وانظر: صحيح الجامع: (٥٥٥٥).

(٢) سنن الترمذي: (٢٣٢٠). وانظر: السلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٨٦).

(٣) قال الإمام النووي رحمته الله: قوله ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» معنى

أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». (١)

* ومن رأى تهافت الناس على الدنيا وانكبابهم على جمع حطامها من حلال وحرام، تذكر ما رواه عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. (٢)

ومن تعلق بالدنيا الزائفة، وجرى في اللهث وراء المادة، فإن ذلك ربما يصرفه عن الطاعة، والعبادة، وعن تأدية الواجبات في وقتها، وعلى أتم وجه وأكملها.

* قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ». (٣)

.....
=

الْحَدِيثُ لَا تَرُكْنَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا وَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْبَقَاءِ فِيهَا وَلَا تَتَعَلَّقْ مِنْهَا بِمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْرِ وَطَنِهِ وَقَالَ غَيْرُهُ عَابِرُ السَّبِيلِ هُوَ الْمَارُّ عَلَى الطَّرِيقِ طَالِبًا وَطَنَهُ. انظر: فتح الباري: (١١ / ٢٣٤).

(١) صحيح البخاري: (٦٤١٦).

(٢) مسند أحمد: (١٧٣١١). وانظر: السلسلة الأحاديث الصحيحة (٤١٣).

(٣) سنن ابن ماجه: (٤١٠٥). وانظر: السلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٥٠).

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ». (١)

* وَعَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟» (٢)

* وَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهِ هَلَكَ». (٣)

❖ متاع الدنيا يسحب من رصيد الآخرة:

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلْثِي أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ، وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً، تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ». (٤)

نفهم من هذا الحديث أن الذين يغزون فيغنون ويسلمون استعجلوا ثلثي أجرهم، أي: ضيعوا الثلثين من الأجر في الدنيا، فلم يبق لهم في الآخرة إلا الأجر القليل.. فالذي أخذته من الدنيا كم ضيعت في مقابله من الآخرة؟..

(١) صحيح مسلم: (٢٩٥٦).

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٥٨).

(٣) سنن ابن ماجه: (٢٥٧). وصححه في مشكاة المصابيح (٦٦).

(٤) صحيح مسلم (١٩٠٦).

إن كل ما تأخذه من الدنيا مخصوم من حسابك في الآخرة.

أخذت من الدنيا مالا أو سيارة أو....أو.... فهذا كله مخصوم من نعيم الآخرة.

ولا يستوي في الآخرة الفقير مع الغني، وإن دخل الغني الجنة، لا يستويان أبداً. قال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].. فكل ما أوتيته من متاع الدنيا فهو بالخصم من نعيمك في الآخرة.

وهذا ما قال به عمر بن الخطاب: مَرَّ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُعَلِّقًا لَحْمًا عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا جَابِرُ؟» قَالَ: «هَذَا لَحْمٌ اشْتَرَيْتُهُ اشْتَهَيْتُهُ» قَالَ: «أَوْ كُلَّمَا اشْتَهَيْتَ شَيْئًا اشْتَرَيْتُهُ؟ أَمَا تَخْشَى أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؟» (١)

وقال الغزالي: بقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٠] وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخر بشهواته.

قال بعض أهل البصرة: نازعتني نفسي خبز أرزة وسمكاً فمنعتها فقويت مطالبتها فاشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة، قال: فمات، فرأيت في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: لا أحسن، أصف إليك ما يلقيني به ربي

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٠٢).

من النعيم والكرامة؟ وكان أول شيء استقبلني به خبز أرزة وسمكًا، وقال كل اليوم شهوتك هنيئًا بغير حساب.

وقد قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. فكأنهم أسلفوا ترك الشهوات لما تركوها، وقدموا الجوع والعطش في خلو أيامهم فاستقبلهم بالأكل والشرب.

ولذلك قال أبو سليمان: ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وفقنا الله لما يرضيه. (١)

ولنتأمل قول ربنا جل جلاله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

يقول ابن كثير رحمه الله في تعليقه على هذه الآية: أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَفْضُلًا عَلَيْهِمْ وَامْتِنَانًا وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا، وَإِلَّا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ (٢) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اعْمَلُوا وَسَدُّوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ». (٣)

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٩٥). وانظر: قوت القلوب: (٢/ ٢٩١).

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٥٦).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ٩٨) ولفظه: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشَرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ».

فإذا كان العمل الصالح وحده لا يدخل الجنة فما بالك بالسيئ ولذلك
فإن متاعك الدنيوي «السيئ» كلما كثر كلما ضيع عليك الآخرة، وإنما قال
الله: ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ليرفع من همتك في السير إليه، وإلا
فالأصل أنه - سبحانه - الذي وفقك.

وهذا اللون من النعيم مع هذا اللون من التكريم في الالتفات إلى أهله
بالخطاب، وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾^(٢٤)
[الحاقة: ٢٤].

فمن عاش نعيم الدنيا حرم نعيم الآخرة.

فأقبل على الله واترك الدنيا وملذاتها وشهواتها، أقبل على الأبدوم فنعيم
الآخرة كما قال الله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧] ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

يا لاهيا بالمنايا قد غرّه الأمل ... وأنت عمّا قليل سوف ترتحل
تبغي اللّٰهوق بلا زادٍ تقدّمه ... إنّ المُخفّين لَمَّا شَمَرُوا وَصَلُوا
لا تركزنّ إلى الدُّنيا ورُخرفها ... فأنت من عاجلِ الدُّنيا ستنتقل
أصبحت تَرجو غداً يأتي وبعد غدٍ ... ورُبّ ذي أملٍ قد خانهُ الأملُ
هذا شبّابك قد ولّت بشاشته ... ما بعد شيبك لا لهو ولا جدلُ
ماذا التعلّل بالدُّنيا وقد نشرت ... لأهلها صحّة في طيّها عللُ^(١)

(١) التبصرة لابن الجوزي (١ / ٤٩).

* عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئِ، وَالرَّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمَكُّينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا لِالْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ». (١)

* قَالَ اللَّهُ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبَعَتْكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

إن الذين يطلبون الدنيا ويتفانون فيها ويسعون في الزيادة منها، لا بد أن نذكرهم حال نبيهم ﷺ.

❖ زهد الرسول ﷺ في الدنيا:

* عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، مِنْ طَعَامٍ بُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا، حَتَّى قُبِضَ». (٢) وفي لفظ: «مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مِنْ خُبْزٍ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ». (٣)

* إن الله الذي اختار لنبه أن يكون سيد المرسلين وإمام المتقين، قد اختار له أفضل حياة، ألا وهي الزهد في الدنيا والتقلل منها، فكان ﷺ - من زهده في هذه الدنيا الفانية - عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ بِشَرِيطٍ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ

(١) مسند أحمد: (٣٥ / ١٤٦). وانظر: صحيح الجامع الصغير: (٢٨٢٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٤١٦).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٧٠).

مِنْ أَدَمَ، حَشَوْهَا لَيْفٌ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَدَخَلَ عُمَرُ فَأَنْحَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنْحِرَافَةً فَلَمْ يَرِ عُمَرُ بَيْنَ جَنْبِهِ وَبَيْنَ الشَّرِيطِ ثَوْبًا، وَقَدْ أَثَرُ الشَّرِيطِ بِجَنْبِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟» قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَبْكِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ كِسْرَى، وَقَيْصَرَ وَهُمَا يَعِيشَانِ فِي الدُّنْيَا فِيمَا يَعِيشَانِ فِيهِ، وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِالْمَكَانِ الَّذِي أَرَى. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ؟» قَالَ عُمَرُ: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّهُ كَذَاكَ». (١)

* وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: «نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَأَثَرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا كِسْرَى، وَقَيْصَرُ فِي مُلْكٍ عَظِيمٍ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ لَا شَيْءَ لَكَ تَنَامُ عَلَى الْحَصِيرِ، وَتَلْبَسُ الثَّوْبَ الرَّدْيَ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَبًا لَسَارَتْ، وَلَقَدْ آتَانِي جِبْرِيلُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الدُّنْيَا، فَلَمْ أُرِدْهَا، أَرْفَعِي الْحَصِيرَ»، فَرَفَعْتُهُ، فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا قَضِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ مَا يَحْمِلُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: «انْظُرِي إِلَيْهَا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْخَيْرِ قَدْرَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ»، ثُمَّ غَارَتِ الْقُضْبَانُ» (٢)

* وفي مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: أخرجت لنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاهما كساءً ملبدًا - أي: مخرقًا مرقعًا - وإزارًا غليظًا، فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين.

(١) مسند أحمد: (١٢٤١٧) صحيح البخاري (٤٩١٣). وهذا لفظ أحمد.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٦٢).

* جاء في صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه وأرضاه قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَظُلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقْلًا (١) يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ». (٢)

أرأيت حال رسول الله ﷺ مات ﷺ ولم يجد ما يملأ بطنه من التمر الرديء ثلاثة أيام.. لم يكن يشبع ثلاثة أيام متتالية.. يشبع اليوم فيجوع غدا، ويشبع اليومين فيجوع الثالث.. نعم: لم تمر عليه ثلاثة أيام شبعها قط.. فما آخر مرة جعت فيها؟.. إننا لا نجوع يوما واحدا، ومع ذلك نتسخط ولا نشكر نعمة الله - اللهم لا تعذبنا يا رب، اللهم ارزقنا شكر نعمتك يا رب.. ومن هنا نفهم هذا الأصل، وأن قدوتنا فيه رسول الله ﷺ أفضل السائرين إلى الله.. فكل ما تأخذه في الدنيا مخصوم من حسابك في الآخرة.

تَبَا لِطَالِبِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا ... كَأَتَمَّاهِي فِي تَعْرِيفِهَا حُلْمٌ
صَفَاؤُهَا كَدَرٌ سُرُورُهَا ضَرَرٌ ... أَمَانُهَا غَرَرٌ أَنْوَارُهَا ظُلْمٌ
شَبَابُهَا هَرَمٌ رَاحَتُهَا سَقَمٌ ... لَذَاتُهَا نَدَمٌ وَجَدَانُهَا عَدَمٌ
لَا يَسْتَفِيقُ مِنَ الْأَنْكَادِ صَاحِبُهَا ... لَوْ كَانَ يَمْلِكُ مَا قَدْ ضَمِنْتَ أَرْمُ
فَحَلَّ عَنْهَا وَلَا تَرْكَنُ لِزَهْرَتِهَا ... فَإِنَّهَا نِعَمٌ فِي طَيْهَا نِقَمٌ
وَأَعْمَلُ لِدَارِ نَعِيمٍ لَا نَفَادَ لَهَا ... وَلَا يُخَافُ بِهَا مَوْتُ وَلَا هَرَمٌ (٣)
واعلم جيدا أنه في يوم من أيام الحياة ستدبر الدنيا وتقبل الآخرة.. وما

(١) التمر الرديء لا الجيد.

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٧٨).

(٣) مجموعة القصائد الزهديات (١ / ٥١٨).

كان بعيداً أضحى قريباً.. وما كنت تراه في الذاهبين.. سيراه الأحياء فيك.. موت فجأة.. أو مرض بغتة.. أو أنت على فراشك تحمل إلى قبرك.. إنها عبر ترى ومصارع ترى.. ونحن في غفلتنا نائمون.. وفي غينا تائهون.

❁ زوال الدنيا:

وصف القرآن الكريم الدنيا كزهرة تزهر بنضارتها، تسحر الأبواب، تستهوي القلوب، ثم لا تلبث إلا برهة حتى تدبّل فتتلاشى تلك النضارة، وتحطّمها الريح، كأنها لم تكن، هكذا مثل الدنيا، زهرة فتانة غرارة تغدر وتغوي، فإذا أقبلت عليها النفوس وتعلّقت بها الأبواب ذوت أيامها واستحالت نضرتها إلى هشيم، فغدت نعمتها غروراً، وصدق الله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ٤٥﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦].

إنّ هذا التصوير البليغ يُجَلِّي حقيقة الدنيا في ميزان الإسلام، كيلا يصبح الناس عبيداً لها، تستهويهم خضرتها، ويؤثرونها على نعيم الآخرة، وليس من سداد الرأي أن يبيع العبد دينه بدنيته، فيتكثّر بالحرام وجمع الحطام فإنما الدنيا جدارٌ يريد أن ينقض.

وتراكم الناس في طلب الدنيا خوفاً من فواتها وطمعاً في المزيد، ويبدلون الأوقات النفيسة ويقاسون شدة الطلب، بينما قد يفرطون في الصلاة ويقعدون عن الجماعة ويتساهلون في الطاعة وتلاوة القرآن ويتشاقلون في البذل والإنفاق.

إِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَهْمَا بَلَغَ شَأْوُ نَعِيمِهَا لَا يَزِنُ ذَرَّةَ رَمْلٍ مِنْ مَعِينِ الدَّارِ
الْآخِرَةِ، وَإِنَّ أَعْظَمَ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مَصَائِبَ وَشِدَائِدَ يَهُونَ أَمَامَ نَعِيمِ دَارِ
الْآخِرَةِ وَلَا يَعَادِلُ مِقْدَارَ شَرَارَةِ صَغِيرَةٍ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ.

ولقد كان النبي ﷺ يتخوّف من فتح الدنيا على أمته، يخاف عليهم
الافتتان بها قال النبي ﷺ: «لَأَنْصَارَ لِمَا جَاءَهُ مَالٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ: «فَأَبْشِرُوا
وَأَمْلُوا مَا يُسْرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ
تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بَسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا
تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ» (١).

❦ وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

ومن يذوق الدنيا فإنني طعمتها ... وسيق إلينا عذبا وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا ... كما لاح في ظهر الفلاة سراها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذاها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وإن تجتذبها تنازعتك كلابها

❦ ومما ورد في ذم التنافس على الدنيا ما يلي:

* قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ
الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ:
خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَغِ مِنْكَ الذَّهَبَ، فَقَالَ
الَّذِي شَرَى الْأَرْضَ: إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ، وَمَا فِيهَا، قَالَ: فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ،

(١) صحيح البخاري: (٦٤٢٥).

فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الْآخَرُ لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا» (١)

* عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». (٢)

❁ أسباب تنافس الدنيا :

ولتنافس الدنيا أسباب توقع فيه، وبواعث تؤدي إليه، وأهم هذه الأسباب وتلك البواعث:

١ - الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير :

فقد تكون الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير من الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا ؛ ذلك أن الله - ﷻ - قدر أزلا حظ كل واحد من هذه الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

❁ يقول العلامة ابن جرير الطبري - رحمه الله: «وقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول تعالى ذكره: بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا من خلقنا، فنجعل من شئنا رسولا، ومن أردنا صديقا، ونتخذ

(١) صحيح مسلم: (١٧٢١).

(٢) صحيح مسلم: (٢٧٤٢).

من أردنا خليلاً، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات فجعلنا بعضهم فيها أرفع من بعض درجة، بل جعلنا هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا ملكاً، وهذا مملوكاً، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك، حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]: فتلقيه ضعيف الحيلة، عبي اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة، سليط اللسان وهو مقتور عليه». (١)

بل أبرز ذلك للملك الذي يتولى نفخ الروح في كل إنسان بإذنه سبحانه حيث يؤمر: أن يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقياً أم سعيداً.

* عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَاقِبَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتِبَ رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا

(١) انظر: جامع البيان ٢٤ / ١١ / ٤١، وعنه نقل السيوطي في الدر المنثور ٧ / ٣٧٥ مع

ذَرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا» (١).

ومهما تبارى الناس، وتسابقوا فلن يغيروا شيئاً مما قضى الله وقدر كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

يقول ابن كثير: «يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله، وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ» (٢). ومن ينسى ما قدمنا من أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير يتلى لا محالة بداء التنافس في الدنيا.

٢ - الغفلة عن حقيقة الدنيا:

وقد تكون الغفلة عن حقيقة الدنيا هي السبب في الوقوع في آفة تنافس هذه الدنيا؛ ذلك أن الله خلق الحياة الدنيا لتكون معبراً أو قنطرة يمر الناس من فوقها إلى الدار الآخرة، ولكنه سبحانه جعلها بما فيها من زخارف وزينات، وشهوات دار امتحان وابتلاء، من ركن إليها ونسي آخرته فقد ضيع نفسه، إذ ركن إلى حقير قصير، ومن انتبه إليها وأخذ منها بالقدر الذي يسلمه من شرها، ويوصله إلى آخرته سلم، ونجا، بل غنم.

(١) البخاري: (٢٦٤٣).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٢/ ٢٥١.

* فقال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

* وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۗ﴾ [الكهف: ٤٦].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۗ﴾ [النساء: ٧٧].

* وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أُنَارٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨].

* وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠].

* وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥].

تلك هي حقيقة الحياة الدنيا، ومن غفل عن هذه الحقيقة، ركن إلى الحياة الدنيا وحرص عليها، وحمله هذا الركون وذلك الحرص إلى تنافس الدنيا.

٣ - العيش في وسط حريص يتنافس الدنيا :

وقد يكون الوسط الذي يعيش فيه المرء: قريبا - وهو البيت - أو بعيدا - وهو المجتمع - من بين أسباب تنافس الدنيا؛ ذلك أن المرء إذا وجد في وسط شغله الشاغل التسابق والتباري في حيازة الدنيا، ولم تكن لديه الحصانة الكافية التي تحميه من الأثر بهذا الوسط، فإنه يبتلى - لا محالة بتنافس الدنيا.

يقول الغزالي في التحذير من صحبة الحريص على الدنيا المتنافس فيها: «وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة». (١)

٤ - حب الدنيا :

وقد يكون حب الدنيا من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا؛ ذلك أن حب الدنيا إذا تمكن من القلوب حمل على التباري والتسابق فيها من غير شع أبدا، كما قال النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَا بُتْغَىٰ تَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ». (٢)

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٢ / ٢٥١.

(٢) البخاري: (٦٤٣٦).

٥ - إقبال الدنيا :

وقد يكون إقبال الدنيا من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس هذه الدنيا. ذلك أن الدنيا إذا أقبلت، وغابت معايير وضوابط تعاطي هذه الدنيا تبارى الناس فيها، وتنافسوها خشية أن تضيع أو تنتهي كما يتصورون.

* ولقد نبّه النبي ﷺ إلى هذا السبب حين قال في الحديث: «..... فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُم كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ». (١)

* وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قالوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ قَالَ: «لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، إِنْ كُلَّ مَا أَنْبَتِ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ، إِلَّا أَكَلَةَ الْخَضِرِ، فَإِنَّهَا تَأْكُلُ، حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ اجْتَرَّتْ وَبَالَتْ وَثَلَطَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوءٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعَمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ». (٢)

(١) صحيح البخاري: (٤٠١٥).

(٢) صحيح مسلم: (١٠٥٢).

٦ - الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير حق:

وقد يكون الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير الحق من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس هذه الدنيا؛ ذلك أن المستعلي والمتكبر في الأرض بغير الحق تسوّل له نفسه الأمانة بالسوء، بإغراء من شياطين الجن والإنس، أنه لن يحتفظ لهذه النفس بما حصّلتها من علو وتكبر، ومنزلة لنفوس الآخرين إلا بأن يكون صاحب النصيب الأوفى، والحظ الوافر من هذه الدنيا، وهذا بدوره يحمله على التسابق والتباري في طلب هذه الدنيا وهذا هو تنافس الدنيا.

٧ - طول الأمل:

وقد يكون طول الأمل من بين الأسباب المؤدية إلى تنافس الدنيا؛ ذلك أن من يطول أمله في الدنيا يحرص على أن يجمع من هذه الدنيا ما يغطي هذا الأمل، ولا يتأتى له ذلك إلا بالتسابق والتباري في طلب الدنيا، يعني: التنافس فيها، ولعل هذا هو سر التحذير من الاسترسال في طول الأمل؛ إذ يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطًّا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَاهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَاهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا» (١).

(١) البخاري: (٦٤١٧).

* وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ وَقَسَاءُ الْقَلْبِ وَطُولُ الْأَمَلِ وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا. (١)

قال العلامة ابن حجر: «وَيَتَوَلَّدُ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ الْكَسَلُ عَنِ الطَّاعَةِ وَالتَّسْوِيفُ بِالتَّوْبَةِ وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالنِّسْيَانُ لِلْآخِرَةِ وَالْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ لِأَنَّ رِقَّتَهُ وَصَفَاءَهُ إِنَّمَا يَقَعُ بِتَذْكِيرِ الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وَقِيلَ: مَنْ قَصُرَ أَمَلُهُ قَلَّ هَمُّهُ وَتَنَوَّرَ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَحْضَرَ الْمَوْتَ اجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ وَقَلَّ هَمُّهُ وَرَضِيَ بِالْقَلِيلِ، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: الْأَمَلُ مَذْمُومٌ لِلنَّاسِ إِلَّا لِلْعُلَمَاءِ فَلَوْلَا أَمَلُهُمْ لَمَا صَنَّفُوا وَلَا أَلْفَوْا، وَقَالَ غَيْرُهُ: الْأَمَلُ مَطْبُوعٌ فِي جَمِيعِ بَنِي آدَمَ «وَيَتَوَلَّدُ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ: الْكَسَلُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالتَّسْوِيفُ بِالتَّوْبَةِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَالنِّسْيَانُ لِلْآخِرَةِ، وَالْقَسْوَةُ فِي الْقَلْبِ». (٢)

٨ - الغفلة عن الموت والدار الآخرة:

وقد تكون الغفلة عن الموت والدار الآخرة من أسباب الوقوع في تنافس الدنيا؛ ذلك أن من بقي متذكراً أنه مهما طال به الأجل، وامتد به العمر، فإنه ميت لا محالة، وأنه راحل عن هذه الدار إلى الدار الآخرة حيث يلقي ربه، ويسأل عن كل شيء، حتى عن النقيير، والقطمير، بل وعن المكحل لم وضعه في عينيه، والذر لم فثته.

(١) مسند البزار: (٦٤٤٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر: (١١ / ٢٣٧).

* يقول تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

* عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مُعَاذُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جَمِيعِ سَعِيهِ، حَتَّىٰ كَحَلَ عَيْنِيهِ، وَعَنْ فَتَاتِ الطَّيْنَةِ بِأَصْبَعِهِ، فَلَا أَلْفِينِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاحِدٍ أَسْعِدَ بِمَا أَتَىٰ اللَّهُ مِنْكَ». (١)

* وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَوْقَ الْإِزَارِ، وَظِلُّ الْحَائِطِ، وَخُبْرٌ يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ يُسْأَلُ عَنْهُ». (٢)

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَىٰ الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أَكْرَمَكَ، وَأَسَوَّدَكَ،

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٤٥٠).

(٢) الحديث أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٥٤٧/٤ من حديث ابن عباس مرفوعا، وعزاه إلى أبي بكر البزار، وأنه - أي البزار - عقب عليه قائلا: «لا نعرفه إلا بهذا الإسناد».

وَأَزْوَجَكَ، وَأَسْخَرُ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ (١) فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمْ أَكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأَزْوَجَكَ، وَأَسْخَرُ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيُّ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَبِئْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمَ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ لِفَخْذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخْذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مَنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ. (٢)

من بقي متذكراً هذه الحقيقة فإنه يضع الدنيا في يديه، وتحت قدميه، ولا يبالي أقبلت أو أدبرت.

أما من نسي هذه الحقيقة فإنه يقيم للدنيا وزناً، ويعمل لها حساباً ويبدل قصارى جهده في تحصيلها ولو كان بالتسابق والتباري فيها، ولعل هذا من بين الأسباب التي من أجلها دعا النبي ﷺ إلى دوام ذكر الموت والاستعداد

(١) تربع، يعني تأخذ ربع الغنيمة، يقال: ربعت القوم أربعهم: إذا أخذت ربع أموالهم، يريد الحق سبحانه: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً لأن الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٦٠.
(٢) مسلم: (٢٩٦٨).

للدَّارِ الآخِرَةِ قَائِلًا: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ» يَعْنِي الْمَوْتَ. (١)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ». (٢)

٩ - الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا:

وأخيراً قد تكون الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا دنيوية أو أخروية، فردية أو جماعية، هي السبب في الوقوع في هذا التنافس، انطلاقاً من مبدأ: أن من غفل عن الآثار الضارة المترتبة على أمر ما، ولم تكن لديه الحصانة الكافية التي تحميه من الوقوع في هذا الأمر: فإنه يقع فيه لا محالة، ومن هنا كانت الدعوة إلى الفقه في الدين.

❖ آثار تنافس الدنيا:

إن التنافس على الدنيا له آثار ضارة، وعواقب مهلكة دنيوية وأخروية، ودونك طرفاً من هذه الآثار، وتلك العواقب:

١ - القلق والاضطراب النفسي:

وذلك أن من سيطرت عليه الدنيا، وابتلى بجمعها، والتنافس فيها فيصاب لا محالة بالقلق والاضطراب النفسي، خوفاً من أن تضع عليه هذه الدنيا، بل خوفاً من ألا يحصل الكثير منها، ويحق فيه قول الحق - تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) الترمذي: (٢٣٠٧)، وابن ماجه: (٤٢٥٨).

(٢) سنن ابن ماجه (٤٢٦٠)، وانظر: ضعيف الجامع: (٤٣٠٥).

أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿١٧﴾ [الجن: ١٧].

٢ - إهدار حقوق الأخوة الإسلامية:

ذلك أن تنافس الدنيا سيجر صاحبه حتما إلى الظنون الكاذبة، وما تؤدي إليه من تتبع للعورات، والغيبة، والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والمزايدة على أخيه المسلم في بيع أو شراء أو نكاح، بل ربما تصل الأمور إلى حد الكيد والتآمر، وانتهاك الأعراض، وسفك الدماء، وسلب الأموال لئلا يسبق في تحصيل الدنيا، وهذا شر.

٣ - الانصراف عن أعمال الآخرة:

ذلك أن من جعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، وسعى إلى سبق ومجاراة الآخرين في تحصيلها ينصرف لا محالة عن أعمال الآخرة، وربما لا يجد من الأوقات والتفكير ما يعينه على إتيان هذه الأعمال.

٤ - كراهية الموت والدار الآخرة:

ومن انصرف عن أعمال الآخرة، واشتغل بالدنيا، وبالتسابق والتباري في تحصيلها يكره الموت والدار الآخرة؛ لأنهما يقطعانه عما هو مشغول متعلق، متلذذ به، فضلاً عن أنه لم يقدم شيئاً يسعى إليه في الآخرة.

ولعل هذا هو ما فقهه ذلك العالم الجليل أبو حازم الأعرج وقد سألته سليمان بن عبد الملك قائلاً: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ فَقَالَ: لَأَنْكُمْ عَمَرْتُمْ دُنْيَاكُمْ وَخَرَبْتُمْ أَخْرَاكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعَمْرَانِ إِلَى

الخراب، قَالَ: كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ ﷻ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا الْمُحْسَنُ فَكَالْغَائِبِ يَأْتِي أَهْلَهُ فَرَحًا مَسْرُورًا، وَأَمَا الْمُسِيءُ فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ يَأْتِي مَوْلَاهُ خَائِفًا مَحْزُونًا. (١)

٥ - الفرقة والتمزق:

ذلك أن التنافس على الدنيا يؤدي إلى الخصومات، وهي بدورها تؤدي إلى العداوة، والكراهية، والبغضاء، وحينئذ لا يكون وحدة ولا اجتماع ولا ترابط، وهذه هي قاصمة الظهر حقا.

❖ علاج تنافس الدنيا:

١ - اليقين التام بأن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير، وأنه مهما أتعب المرء نفسه، وتكالب على الدنيا، وتبارى مع الآخرين في تحصيلها أو نيل حظ منها، فإنه لن يصل إلى شيء فوق ما قسم الله، إذ قد يقود اليقين صاحبه إن كان صادقاً أن يمشي الهويناً، وأن يأخذ بالأسباب البشرية فقط، ويدع ما قسم الله له، والله سبحانه لا يضيع أجر المحسنين.

٢ - البصيرة التامة بحقيقة الدنيا، وأنها ليست غاية أو هدفاً، وإنما هي وسيلة لغاية وهدف، وعليه فلا يصح أن يقف عندها طويلاً أو يركن إليها، ويسابق الآخرين في جمعها وتحصيلها.

٣ - أن ينزع المسلم نفسه أو أن ينتزعه الآخرون من الوسط الحريص على الدنيا المتنافس فيها، ثم يلقي بنفسه في وسط من يريدون الله ورسوله،

(١) العاقبة في ذكر الموت (ص: ٣١).

والدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، فلعل ذلك يسهم في اقتلاع الدنيا من القلوب ويجعلها في الأيدي، وبذلك يقضي على سبب وليس من أسباب تنافس الدنيا.

٤ - أن يوقن أن المرء مهما حصل من الدنيا فلن يشبع أبداً، إذ لو كان لابن آدم واديان من مال، لا بتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، كما أخبر النبي ﷺ.

٥ - أن يعدل من نظره إلى إقبال الدنيا بحيث لا يراها مجالاً للتنافس، وإنما يراها فتنه يخاف على نفسه منها كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

٦ - أن يداوي المرء نفسه من آفات الإعجاب بالنفس، والغرور والتكبر، فيقضي بذلك على باب كبير يمكن أن يؤدي إلى التسابق والتباري في تحصيل الدنيا.

٧ - أن يخفف من طول الأمل ما استطاع ذلك سبيلاً، واضعاً في حسابه أن طول الأمل لا يليق بعبد ضعيف جاهل لا يدري متى الرحيل عن هذه الدار، ولا ما يكون بعد هذا الرحيل.

٨ - أن ينعم النظر في كتاب الله وسنة وسيرة نبينا محمد ﷺ، ليرى ماهية وحقيقة الدنيا في جنب ماهية وحقيقة الدار الآخرة، ولعل هذه الرؤية تولد

لديه قناعة ويقينا أن الدنيا أقل وأحق من أن يتكالب الناس عليها، ويتنافسوها.

٩ - دوام تذكر الموت والدار الآخرة، وحاله عند سكرات الموت، وعند دخوله قبره، وقد انقطع عنه كل شيء، وأوله هذه الدنيا، تلك التي أفنى عمره في طلبها، والتكالب عليها، والتنافس فيها، ثم حاله عند السؤال، وما يكون بعده من نعيم وراحة، أو شقوة وتعب، وحاله عند البعث والنشور، والحشر والعرض على الله، إلى غير ذلك مما يكون يوم القيامة حتى يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ولعل تذكر ذلك يخوفه من داخله، ويحمله على أن يخرج حب الدنيا من القلب، ويجعلها في اليد، وينسيه التسابق والتباري في طلبها وحيازتها.

١٠ - طول النظر في سيرة سلف هذه الأمة، وكيف كان توأصيهم فيما بينهم، وأخذهم أنفسهم بمنهج: أن الدنيا أقل وأحق من أن يفنوا أعمارهم في طلبها والتنافس فيها لذاتها مستخدمين معها قول الله ﷻ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿هذا الحسن يقول: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فآلقها في نحره»﴾ (١) إلى غير ذلك من أخبار في هذا الباب.

١١ - دوام التذكير والتبصير بالدنيا، والتنافس فيها، فإن الإنسان كثيرا ما

(١) القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان: (ص: ٢٠).

ينسى وعلاج هذا النسيان، إنما يكون بالتذكير والتبصير، ولهذا يقول الحق -
 تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٥] [الذاريات: ٥٥]،
 ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [٩] [الأعلى: ٩].

١٢ - دوام مراقبة الله في الدخول والخروج، في السر والعلانية، في كل
 الظروف وفي سائر الأحيان، فإنها إن كانت صادقة تحجز عن كل شر، وتدفع
 إلى كل خير، ثم يكون مع المراقبة، المشاركة، والمحاسبة، وتصحيح الخطأ
 بالإنابة والتوبة النصوح، ولعل هذه الخطوات بمرور الزمن، مع الجدية
 وأخذ الأمر بحزم وقوة، تفيد في القضاء أو على الأقل التخفيف من تنافس
 الدنيا.

❖ أضرار حب الدنيا :

حب الدنيا أمره خطير وشره مستطير أشر من البرص وأضر من الجرب،
 حب الدنيا رأس كل خطيئة وأصل كل رزية ومنبع كل بلية، وحب الدنيا هو
 الذي عمّر النار بأهلها، الزهد في الدنيا هو الذي عمّر الجنة بأهلها، والسكر
 بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمير، فصاحبه لا يبق إلا في ظلمة اللحد.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ ضَيْفٌ، وَمَالُهُ
 عَارِيَّةٌ، فَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ، وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ إِلَى أَهْلِهَا. » (١)

(١) الزهد لأبي داود (ص: ١٧٥)

• وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا، ومفسداً للدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضى تعظيمها وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله.

ثانيها: أن الله لعنها، ومقتها، وأبغضها، إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة، ومقته وغضبه.

وثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة، فها هنا أمران:

أحدهما: جعل الوسيلة غاية.

والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه: حذو القذة بالقذة، قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود: ١٥-١٦].

والأحاديث كثيرة، منها ما يلي:

- عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدَّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ

حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتَ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ». (١)

فانظر محبة الدنيا كيف حَرَمَتْ هؤلاء من الأجر، وأفسدت عليهم عملهم، وجعلتهم أول الداخلين إلى النار.

رابعاً: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوه، والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها - وإن قام بغيره - ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفرغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هذا من عشاق الدنيا

ومحبيها، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفرغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامساً: أن محبتها تجعلها أكبر همّ العبد مما يضر به ضرراً بليغاً كما في الحديث الآتي: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ». (١)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهِ هَلَكَ». (٢)

سادساً: أن محبتها أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذاباً في قبره، يعمل الهم والحزن والغم والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه.

(١) سنن الترمذي: (٢٤٦٥). صحيح الجامع: (٦٥١٠).

(٢) سنن ابن ماجه: (٤١٠٦)، صحيح الجامع: (٦١٨٩).

والمقصود: أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]

﴿﴾ قال بعض السلف: «يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها».

سابعاً: أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذ أثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم، أو كظل زائل، إن الليب بمثلها لا يخدع.

﴿﴾ وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق
﴿﴾ قال يونس بن عبد الأعلى: «ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه».

وأشبه الأشياء بالدنيا: الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، وأشبه الأشياء بها: عجوز شوهاة قبيحة المنظر والمخبر، غدارة بالأزواج، تزينت للخطاب بكل زينة، وسترت كل قبح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا فقد الآخرة، فإننا

ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فأثر الخطاب العاجلة، وقالوا: ما على مَنْ واصل حبيته من جناح، فلما كشف قناعها، وحل إزارها، إذا كل آفة وبلية، فمنهم من طلق واسترح، ومنهم من اختار المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق، بحَيِّ على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم، فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها، فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها، فأسلمتهم للذباح.

❁ المقابلة ما بين الدنيا والآخرة (١):

* قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إَصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَىٰ بِالسَّبَابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟» (٢).

• هذه مقابلة بين الدنيا والآخرة، يتضح منها:

أن الدنيا في مقابل الآخرة، هي بقدر ما يعلق بالأصبع من الماء، إذا أدخل في البحر، وأن الآخرة هو البحر كله.. فكم سيكون قدر الدنيا؟.

لكن موضوع المقابلة في قوله: (ما الدنيا) ما هو؟.

أهي مقابلة في الكمية (= المدة الزمنية).

(١) انظر: الدنيا مقابل الآخرة. للدكتور: لطف الله خوجه.

(٢) صحيح مسلم: (٢٨٥٨).

أم مقابلة في الكيفية (= الحال).

أم مقابلة في الحقيقة والماهية (= المنزلة والشرف)؟.

حتى نضع أيدينا بدقة على موضوع المقابلة، لدينا وفرة في النصوص، في بيان العلاقة بين الدنيا والآخرة، فلننظر فيها فيما يلي:

١ - مقابلة في الكمية (= المدة الزمنية).

في نصوص القرآن الكريم نجد آيات تحدد مدة الدنيا تقديراً، يقول الله تعالى: ﴿كَانَ يَوْمٌ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [٤٦] ﴿كَانَ يَوْمٌ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

الأزمنة المذكورة هي: عشية أو ضحاها.. ساعة من نهار.. ساعة من النهار يتعارفون بينهم.

العشي أو الضحى قد يكون ساعة، وقد يكون أكثر من ساعة من نهار، وساعة التعارف أقل من مطلق الساعة.. وهكذا تختلف صيغ التعبير عن المدة، وليس فيها نسخ، بل لأجل التقليل، كأنك تقول: هي ساعة، لا بل دون ذلك، لا بل أقل.. أو تقول: هو يوم.. هو نهار.. هو ضحى.. فأنت في كل ذلك صادق؛ لأنها جميعها تطلق ويراد بها وقتاً قصيراً.

ومقصوده التأثير في السامع والقارئ: إذا عرف أن الدنيا بكمالها لا تعدو قدر عشية أو ضحاها، راعه وأيقظ قلبه.

فإذا علم أنها دون ذلك، تجدد عنده الرهبة والفكر.

فإذا علم أنها دون ذلك، زهد وأتاب ووقر في قلبه الإقبال على الآخرة.

فكيف بزمان كله من أوله إلى آخره، بكل ما فيه وما يحتويه، إنما يقدر بمدة ما يقابل فيها الإنسان آخر، فيتعرف إليه، ويعرفه بنفسه، ثم يمضي هذا في سبيله، وهذا في سبيله؟.

فلا موعظة أبلغ من هذا، في بيان مدة بقاء الدنيا مقابل الآخرة.

فالآيات قدرت عمر الدنيا في الآخرة، بهذه اللحظة اليسيرة من الدنيا.. هذه اللحظة تقدر عندنا بآلاف السنين، على ما روي، فكيف بالآخرة التي لا تقدر بزمان.. هي لا نهاية لها؟.

فالمثال مشابه لا مماثل مطابق؛ إذ الدنيا لها نهاية، كذلك مثالها الماء يعلق بالأصبع ثم يجف، أما الآخرة فلا نهاية لها، ومثالها البحر فله نهاية وحدّ، ولا يلزم في الأمثلة التطابق؛ لأنها تضرب للتقريب.

نخلص إلى أن موضوع المقابلة هنا هو في: المدة = الكمية.

وقد ثبت فيها فضل الآخرة، وبذلك يمكن تفسير الأثر به، فيكون المعنى على ما يلي:

ما مدة بقاء الدنيا في مقابل مدة بقاء الآخرة، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم. فلينظر بم يرجع.

فما يعلق بالإصبع من ماء لا يبقى زماناً، بل يزول سريعاً، وماء البحر يبقى أزماناً فلا يزول.

٢ - مقابلة في الكيفية (= الحال).

جاء وصف حال الدنيا في آيات عديدة، في سورة يونس، الكهف، الزمر، الحديد، نختار قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه هي الدنيا باختصار: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد. مثلها كنبات اهتز وربى، وأرض ازينت بكل زينة وزخرف، بعد ما أصابها المطر، ثم قل المطر، فاصفر الزرع، فكان حطامًا، ثم هشيمًا تذروه الرياح، أو اجتاحتها عاصفة أو إعصار، فصار حصيدًا.

هكذا هي الدنيا في حالها؛ تقلبها بأهلها، وتبدلها من السعة إلى الضيق، ومن السرور إلى الأحزان.. والآخرة غير ذلك للمؤمن، لا تتغير ولا تنقص، بل تزيد من حسن إلى أحسن. إلا الكافر.

* قال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ». (١)

موضوع المقابلة هنا: الحال. ويتضمن المدة أيضا؛ فالزرع من حين يربو ويهتز، حتى يصفر يحتاج إلى بضعة أشهر لا تزيد، فأين عمره هذا من عمر الدنيا، الذي هو آلاف السنين؟.

(١) صحيح مسلم: (٢٩٥٦).

والربط بين الحال والمدة هنا مقصوده، هو: سرعة زوال نعيم الدنيا وتغيرها على أهلها. وبه يكون تفسير الأثر به على ما يلي:

ما حال الدنيا، في سرعة تغيرها وزوال نعيمها على أهلها، في مقابل بقاء وثبات نعيم الآخرة، إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟.

فما يعلق بالإصبع من اليم يتغير سريعاً، وماء البحر باق لا يتغير.

نوع آخر من المقارنة في الحال، قال ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلِغَدَوَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٍ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (١).

قدر موضع السوط: خط طويل في الأرض، لا عرض له. فلو جمع بالحساب لكان مجموع مساحته مربع صغير لا يتجاوز سنتيمترات. فهذه كيفية الدنيا في الآخرة، تختزل جميع ما فيها من جنات، وأنهار، وزخرف، ومباهج، ورفاهية، وترف. في مساحة صغيرة جداً، لا تكاد ترى بالنظر إلى جنة عرضها السموات والأرض. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وبهذا يمكن أن يفسر الأثر كما يلي:

ما جنات، وزخرف، ومباهج، ونعيم الدنيا في مقابل نعيم الآخرة، إلا مثل

(١) صحيح البخاري (٦٤١٥).

ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فليُنظر به يرجع؟.

فما يعلق في الإصبع شيء يسير من هذه النعمة، الذي هو الماء، مقابل مياه البحر الذي لا حد لها.

والغدوة تكون أول النهار، والروحة آخرها، فزمن كقدر هذا الزمن في سبيل الله، خير من الدنيا بما فيها، لو فرضت الدنيا كلها خالية من أي عمل صالح، سوى هذا العمل: الغدوة أو الروحة في سبيل الله تعالى. ذلك لأن الدنيا لا قيمة لها من دون عمل صالح، قال ﷺ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا». (١)

والعمل الصالح هو من الآخرة؛ لأن ثوابه وجزاءه في الآخرة، فحصلت المقارنة بينهما، فمعنى الأثر: ما أعمال الدنيا، إذا خلصت كلها للدنيا، في مقابل عمل واحد صالح من أعمال الآخرة، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فليُنظر: به يرجع؟.

فكافة الأعمال الدنيوية، هي في المثل كما يعلق في الإصبع من البحر، وآحاد العمل الصالح كالبحر.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣)

[الفرقان: ٢٣]

* وقال ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ

(١) سنن ابن ماجه (٤١١٢)، سنن الترمذي: (٢٣٢٢).

إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيَهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». (١)

٣ - مقابلة في الحقيقة (= الشرف والمنزلة)

في النصوص النبوية بيان لمنزلة الدنيا عند الله تعالى: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَفَفَتْهُ، فَمَرَّ بِجَدِّي أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمُ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيًّا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكَّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ». (٢)

* قول النبي ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». (٣)

السؤال الوارد هنا: لم هكذا هي الدنيا عند الله تعالى؟

الجواب يتضح، من ملاحظة ما عليه حال الدنيا في الأصل: أن الذي يطغى عليها: الظلمة، والشر، والكفر. وعكسها: النور، والخير، والإيمان قليل، بدليل أن أكثر أهلها ليسوا على الإيمان، قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، عن قوم نوح. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [١٣]

(١) صحيح البخاري: (٧٤٣٠).

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٥٧).

(٣) سنن الترمذي: (٢٣٢٠)، وانظر: السلسلة الصحيحة: (٩٤٣).

[سبأ: ١٣]، في قصة داود وسليمان. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] في قصة داود. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، خطاب لبينا محمد ﷺ. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، كذلك. ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، دليل على كثرة أهل النار.

وبعث النار، كما في الأثر، من ألف ينجو واحد، والبقية هالكون..

فلما كانت الدنيا هكذا؛ الشر عليها يطغى، والله لا يحب الفساد، ولا الظلم، ولا الكفر؛ لأجل هذا كانت لا تزن عند الله جناح بعوضة، وهي أهون على الله من جدي ميت أسك، لا يشتري حيا، دع عنك أن يشتري ميتا.

هذه الأحوال منتفية عن الآخرة، فهي دار رضوان الله تعالى، وفيها يتجلى بملكه، وعظمته، وحكمته، على التمام والكمال، وقد كان الناس لا يعرفون منها إلا القليل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤٌ لَا يُخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، يقولها المؤمنون والكافرون.

في الدنيا أعطى الله عباده تصرفاً وملكاً واختياراً، وطاعةً ومعصيةً، ففيها ما يحب وما لا يحب، وكلها تحت مشيئته، أما في الآخرة فكلها لله تعالى

ظاهرًا وباطنًا، فيها مشيئته ومحبته خالصة.

وعليه فيمكن ترجمة الأثر بما يلي:

ما منزلة الدنيا مقابل منزلة الآخرة، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟.

❖ نتائج المقابلة:

فما يعلق بالأصبع من ماء البحر شيء لا يذكر، فلا قدر له ولا قيمة، مقابل قدر وقيمة البحر.

- القدر الذي يعلق بالإصبع من اليم: لا شيء.

- جناح البعوضة: لا شيء.

- الجدي الأسك الميت: لا شيء.

- كل هذه هي الدنيا.

أجزاء الشيء ثلاثة: حقيقته ماهيته، وكيفيته، وكميته.

والدنيا حقيقة، وكيفية، وكمية جميعها ومجموعها، مقابل الآخرة لا شيء يذكر، كالماء على الإصبع.

فالدنيا لا تقابل الآخرة في شيء، إلا في شيء واحد، تكرم الله به على عباده، على جهة الفضل والإنعام، لا الاستحقاق؛ إذ جعل الدنيا مقابل الآخرة، مقابلة الثمن للسلعة، أي جعل الجنة من الآخرة سلعة، والدنيا ثمنًا. إذا بذلت لله وحده، بالعمل الصالح، كانت ثمنًا للجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْكَ

الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةُ ﴿[التوبة: ١١١]﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴿[النساء: ٧٤].

* قال ﷺ: «... أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ» (١)

* وبه يصح قوله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ» (٢) فأين العمل في مدته وقدره، مقابل جنة لا نهاية لمدتها، ولا نهاية لثوابها؟.

فصح أن الجنة ليست مقابل العمل مقابلة عوض كالأجر، بل هو سبب، قال تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [النحل: ٣٢].

فأدنى أهل الجنة منزلة، هو آخرهم دخولا، وآخر الناس خروجاً من النار، له عشرة أمثال ما لملك من ملوك الأرض.. فهذا من أهل الكبائر، وله هذا؛ لأنه مات على العمل الصالح..

فما مقدار عمله مقابل ثواب الله تعالى له؟.

أمر آخر، هو: أن الذي عمل الصالحات، إنما عملها لنفسه، فلا يضر الله بمعصيته، ولا ينفعه بطاعته، فكان ثواب الله له فضلا وكرما، فلو منعه منها لم يكن ظالما؛ لأن الملك كله له:

(١) سنن الترمذي: (٢٤٥٠) وانظر السلسلة الصحيحة: (٢٣٣٥).

(٢) صحيح البخاري: (٦٤٦٧).

* قال تعالى: «..... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْبِي فَتَضُرُّوَنِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِآيَاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». (١)

* وقال ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.....». (٢)

وإن ننسى، فلن ننسى: أنه لولا إعانة الله تعالى لعبده، ما قدر على فعل طاعة.

بعد معرفة قدر الدنيا في الآخرة، ندرك لم زهد النبي ﷺ، وزهد أصحابه فيها، وخوفهم، وحذرهم منها:

* عن عمر بن الخطاب أنه دخل على رسول الله ﷺ قال: فَإِذَا هُوَ

(١) صحيح مسلم: (٢٥٧٧).

(٢) ابن ماجه: (٧٧)، سنن أبي داود: (٤٦٩٩) وقال في المشكاة: (صحيح) ورقمه:

مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَكِيٌ عَلَى وَسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ.....، قال: ثُمَّ رَفَعْتُ بَصْرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهْبَةِ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَيَّ أَمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَانَ مُتَكِيًا فَقَالَ: «أَوْفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». (١)

* وعن عبد الله بن مسعود قال: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاجِبٍ اسْتَظَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». (٢)

* وقال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». (٣)

* وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا

(١) صحيح البخاري: (٢٤٦٨).

(٢) سنن الترمذي: (٢٣٧٧)، وانظر: صحيح الجامع: (٥٦٦٨)

(٣) صحيح مسلم: (٢٧٤٢).

بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا». (١)

الحياة سفر، والراحة والمتاع فيها بقدر استغلالٍ تحت ظل شجرة، ليتجدد النشاط، ثم يمضي في الطريق خفيفا سريعا.

وقد اتبع الصحابة النهج النبوي في التعامل مع الدنيا، وأثارهم في هذا كثيرة جدا، ما من صحابي إلا وله موقف يحكى، فزهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والعشرة، وأمّهات المؤمنين أشهر من أن يذكر، فإجماعهم منعقد على ترك تعظيم الدنيا، والإقبال على الآخرة.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ». (٢)

وبذلك حققوا أمرين اثنين، هما:

أولاً: قدموا ما قدم الله، وأخروا ما أخر الله.

ثانياً: غيروا وجه العالم إلى الإيمان بالله العظيم.

أما أنهم غيروا العالم، فهذا لا مرية فيه، وأما أن ذلك كان بإيمانهم بالله تعالى، وتقديمهم ما قدمه الله، وتأخيرهم ما أخره الله، فهذا أيضا معلوم؛ لأنهم كانوا كذلك، فهذا حالهم لما كانوا ينشرون الإسلام في الأرض شرقا

(١) صحيح البخاري: (٦٤٢٦).

(٢) صحيح البخاري: (٨ / ٨٩).

وغربا، ومن بعدهم لما غيروا الطريقة، توقف خط الفتوحات، ودب الضعف
بمر القرون، حتى تأخرت الأمة، تأخرت يوم أن قدمت ما أخره الله، وأخرت
ما قدمه الله.





الفصل الثامن

رسالةٌ يحدثنا فيها ربُّنا
عن الأموال والأولاد

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ

❖ تمهيد:

لقد ابتلى الله ﷻ بني آدم بالشهوات، وزين لهم حب الشهوات الدنيوية، فتعلقت بها نفوسهم، ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: جعلوها مقصد الحياة، فصارت أفكارهم وأعمالهم لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها، ويتمرغون بشهواتها، ولا يبالون بأي وجه حصولها، ولا فيما أنفقوها، فهؤلاء كانت لهم زادًا إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانًا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومَرْضَاتِهِ عَلَى لَذَاتِهِ وشهواته، فجعلوها وسيلة إلى الدار الآخرة، يستعينون بها عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وطاعته، قد صحبتوها بأبدانهم، وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها متاع.

فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم، ووسيلة إلى رضوانه والفوز بجنته: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَلْدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾
[آل عمران: ١٥].

والإنسان إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا كان كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب كالكوز، فإذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك.

❁ النظرة القرآنية للمال والبنين:

لقد وقف الإسلام من الأبناء والأموال موقفاً معتدلاً، فحث على حبهما دون إفراط أو تفريط، فالحب المفرط يؤدي إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، لذلك حذر الله منهم فقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُولُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢٨) وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا آمُولُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن: ١٥)

❁ المال والبنون زينة الحياة الدنيا:

خلق الله الإنسان وهياً له الاستقرار على الأرض من أجل تعميرها، وهذا التعمير يحتاج من الإنسان إلى المال الذي هو عصب الحياة، وإلى الذرية لأنهم أساس استمرار الحياة على الأرض، من أجل ذلك زين الله ﷻ للإنسان الحياة الدنيا، وجعل سنام هذه الزينة المال والبنين قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

• والزينة قسمان: زينة تامة، وزينة ناقصة:

فالزينة التامة: التي لا يشين المرء منها شيء في الدنيا ولا في الآخرة، وكلها خير لصاحبها، ومثالها الزينة بالإيمان والعلم والأخلاق الحسنة.

أما الزينة الناقصة: التي يكون فيها خير من جانب وشر من جانب آخر، فتكون خيراً إذا لم يتعد حدود الشرع، ومثالها المال والثياب والأبناء، فهذه الزينة إذا تجاوزها فيها صاحبها ما أحل الله تبارك وتعالى - كان إثمها أكبر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها. (١)

فالله سبحانه وتعالى زين الحياة الدنيا بما تشتمل عليه من اللذات والشهوات، ورأس هذه الزينة المال والأبناء خاصة لو كانا مجتمعين، إذ لو أعطى الإنسان أحدهما فلن تكتمل سعادته، وقد اُختصا بالزينة في الحياة الدنيا، لأن في المال جمالاً ونفعاً وفي البنين قوة ودفعاً فصارا زينة الحياة الدنيا. (٢)

ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات. (٣)

❁ المال والبنون فتنة وابتلاء:

زين الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا، ولكن هذه الزينة لم تكن على

(١) انظر: خماسيات مختارة في تهذيب النفس الامارة ص: ٤٩.

(٢) تفسير الماوردي: (٣/ ٣١٠)

(٣) تفسير السعدي: (ص: ٤٧٩)

إطلاقها، بل حذر منها لأنها فتنة للعباد، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
 الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴾ [الكهف: ٧] فهي تدفع
 بالإنسان إلى طريق الباطل من أجل الحصول على الأموال والأولاد،
 لتحقيق أهدافه المرجوة، وبالتالي يحتاج إلى الأموال التي تساعد وتيسر
 أمره، في تحقيق ما يصبو إليه، وأما الأبناء فهم عون له وبدونهم لن تستمر
 الحياة على الأرض، لذلك فقد جعلهما زينة الحياة الدنيا، ولو لم يكونوا
 كذلك لضعفت رغبة الآباء في إنجاب الأبناء.



المبحث الأول

فتنة المال



الله تبارك وتعالى خالق الخلق، واسع الرزق، أنعم على العالمين بأنواع الأرزاق، وأصناف الأموال، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال، فهم بين العسر واليسر، والغنى والفقر، والطمع واليأس، والقناعة والحرص، والبخل والجود، والتبذير والتقتير، كل ذلك ليلوهم أيهم أحسن عملاً، وينظر من يؤثر الإيمان والأعمال على الأموال والشهوات، ويرى من يؤثر الآخرة على الدنيا كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴾ [الكهف: ٧].

وفتن الدنيا كثيرة الأنواع، واسعة الأرجاء، ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل أشغل عن طاعة الله ورسوله.

والأموال أعظمها فتنة، وأطمعها محنة، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، وإذا وجدت فلا سلامة منها، وإذا فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإذا وجد حصل فيه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرًا كما قال سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦-٧].

والأموال بوجه عام لا تخلو من الفوائد والآفات، وفوائدها من

المنجيات، وآفاتهما من المهلكات، وتمييز خيرها من شرها لا يدركه إلا ذو البصائر في الدين من العلماء الأبرار.

فالدين فتنها كثيرة، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وأكل الحرام بعضها ونحو ذلك. (١)

- وقد جُبلت النفوس على حب المال، قال تعالى: ﴿وَحُبُّوكُمُ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلی الله علیه وسلم قال: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَا يَتَعَيَّ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ». (٢)

* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: «يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ». (٣)

✍ قال الشاعر:

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقير خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما في الأرض لا يكفيها
إن المال فتنة أخذت بمجامع الأبواب، وتشاحن من أجلها الأحاب،
وتبادل الإخوة الشتم والسباب، فتنة تربع سلطانها على عرش كثير من
القلوب فصارت ميزاناً يقيسون بها الأمور، ويحكمون بها على الناس؛ إنها
فتنة المال التي يبتلى بها المؤمن، والقليل من الناس من يصبر عليها، وقد

(١) موسوعة فقه القلوب: (٤ / ٣٢٦٩).

(٢) البخاري: (٦٤٣٦)، وصحيح مسلم: (١٠٤٩).

(٣) صحيح البخاري (٦٤٢١).

حذر النبي ﷺ أمته من فتنة المال فقال لأصحابه: «فَابْشُرُوا وَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ». (١)

* وقال النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ» (٢)، وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: «مَا عَلِمْنَا إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، وَلَا جَاءَنَا إِلَّا مَا جَاءَكُمْ، وَلَكِنَّا ابْتُلِينَا بِالضَّرَاءِ فَصَبَرْنَا، وَابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ». (٣)

❖ مظاهر فتنة المال:

أولاً: عدم الاعتراف بالنعمة، وشكر المنعم سبحانه، وعدم أداء حقوق هذا المال من البذل والعطاء، فلا يرى الله فيه حقاً، ولا يستخدمه في تقديم النفع للعباد بإخراج زكاته، والإنفاق والتصدق بجزء منه، ويعتقد بأن هذه الأموال ما جمعها إلا بذكائه وحرصه.. هذا قارون أنعم الله عليه بالمال والجاه وكثرة الأتباع، فتكبر على الله، وظن أن ما حصل عليه من مال ومن كنوز الذهب والفضة إنما كان بسبب ذكائه وحنكته، فقال تعالى مبيناً عاقبة الغرور والكبر محذراً من عواقبه: ﴿إِنَّ قُرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا

(١) صحيح البخاري: (٣١٥٨)، صحيح مسلم: (٢٩٦١).

(٢) مسند أحمد: (١٧٤٧١)، سنن الترمذي: (٢٣٣٦). وصحيح الجامع: (٢١٤٨).

(٣) جامع معمر بن راشد: (٤٥٧ / ١١).

تَفَرَّحَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

فكان رد قارون جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. لقد أنساه غروره مصدر هذه النعمة وحكمتها، وفتنه المال وأعماه الثراء. فلم يستمع قارون لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه.... ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

ثانيًا: من أعظم صور فتنه المال أن يكون سببًا في معصية الله وارتكاب الكبائر والمحرمات.. فقد يقتل الإنسان، ويسفك الدماء بسبب المال، وقد يؤذي إنسانًا آخر، وقد يقطع الأرحام ويعق والديه بسبب المال، والأعظم من ذلك أن يبيع دينه ويوالي أعداء الأمة، ويتنازل عن قيمه ومبادئه، ويحرم نفسه الهداية والتوفيق والثبات والسير في ركب الصالحين بسبب المال.. خرج الأعشى بن قيس من اليمامة من نجد وكان شيخًا كبيرًا وشاعرًا يريد النبي - عليه الصلاة والسلام - راغبًا في دخول الإسلام، مضى على راحلته مشتاقًا للقاء رسول الله - ﷺ - بل كان يسير وهو يردد في مدح النبي - ﷺ - قائلاً:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا ... وَبَتَ كَمَا بَاتَ السَّلِيمَ مَسْهَدَا
أَلَا أَيُّ هَذِي السَّائِلِي أَيْنَ يَمُمْتُ؟ ... فَإِنْ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا
فَأَكَيْتُ لَا أُرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ ... وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدَا

نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمرى في البلاد وانجدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبى الإله حيث أوصى وأشهدا
إذ أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا
وما زال يقطع الفيافي والقفار.. يحمله الشوق والغرام.. إلى النبي ﷺ..
راغباً في الإسلام.. ونبذ عبادة الأصنام.. فلما كان قريباً من المدينة اعترضه
بعض المشركين فسألوه عن أمره؟.. فأخبرهم أنه جاء يريد لقاء رسول الله -
ﷺ - ليسلم.. فخافوا أن يسلم هذا الشاعر.. فيقوى شأن النبي - ﷺ -..
فشاعر واحد وهو حسان بن ثابت قد فعل بهم الأفاعيل.. فكيف لو أسلم
شاعر العرب الأعشى بن قيس.. فقالوا له: يا أعشى دينك ودين آبائك خير
لك. قال: بل دينه خير وأقوم.. قالوا: يا أعشى إنه يحرم الزنا.. قال: أنا شيخ
كبير ما لي في النساء حاجة.. فقالوا: إنه يحرم الخمر.. فقال: إنها مذهب
للعقل مذلة للرجل، ولا حاجة لي بها، فلما رأوا أنه عازم على الإسلام..
قالوا: نعطيك مائة بغير، وترجع إلى أهلِكَ وتترك الإسلام، قال: أما المال
فنعم.. فجمعوها له فارتد على عقبه.. وكرَّ راجعاً إلى قومه بكفره.. واستاق
الإبل أمامه فرحاً بها مستبشراً.. فلما كاد أن يبلغ دياره.. سقط من على ناقته
فانكسرت رقبتة ومات. (١)

(١) انظر قصته في السيرة الحلبية: (٢ / ٣٥٥). وانظر الأبيات في سيرة ابن هشام: (٢ / ٢٥).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (١٠٩) [النحل: ١٠٧ - ١٠٩].

ثالثاً: أنه يحمل على الكبر والطغيان؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (١٠٩) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغَىٰ﴾ (٧) ﴿[العلق: ٦-٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

رابعاً: أنه يغري بكثرة التمتع بالمباحات حتى تصير له عادة وإلفاً، فتقوده إلى المكروهات ثم المحرمات وقد يغرق في بحر الترف المذموم الذي يجر إلى هلاك الأمم؛ قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ فَرِيَةً أَمَرْنَا مَتَرَفِهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦) [الإسراء: ١٦].

خامساً: أنه يشغل عن الطاعة والعبادة غالباً ويوقع في المعصية، ولذا نادانا الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وأعظم الخسار والبوار أن يشغل المال صاحبه حتى يصير عبداً له فيأتي ليصلي وعند وقوفه بين يدي ربه لا يفيق من جمعه وطرحه وبيعه وشرائه إلا بسلام إمامه، والنبى ﷺ يقول: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ

فَلَا انْتَقَشَ» (١)، فسماه عبداً لهذه الأشياء، وكيف لا يكون عبداً لها وهي كل قلبه وهمه، فمن أجل المال يقيم العلاقات والصدقات، ومن أجلها يكرر المجاملات، ومن أجلها يسكت عن الجرائم والمخالفات، ومن أجلها يقطع رحمه ويعق والديه ويهمل زوجته وولده، ومن أجلها يسهر الليالي ؛ بل يحرم نفسه - أحياناً - من الراحة في طعامه وفي شرابه وفي منامه.

- وأستطيع أن أقول: إننا لم نشاهد ولم نسمع بعبد أكثر إخلاصاً وأكثر تفانياً وأكثر سهرًا وأكثر استماته من عبد المال؟!!

ولقد صدق الحسن البصري حين قال: «لكل أمة صنمٌ يعبدونه وصنم هذه الأمة الدرهم والدينار».

سادساً: أن التعلق به يزداد كلما تقدم بالإنسان العمر مصداقاً لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشَبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ». (٢)

سابعاً: أنه يمنع الإنسان منه حق الله فيه، وحق الخلق، فلا يؤدي الزكاة، ولا ينفق بالمعروف على من تجب نفقته عليهم من زوجة وولد وخدم وعمال، ولا يتصدق منه في وجوه الخير بل يملكه البخل والشح وكأن زيادة حسناته مرهونة بزيادة أرصدته ودراهمه.

ثامناً: أنه قد يكون سببا في أخوة الشياطين بالإسراف والتبذير فيه ووضعه

(١) صحيح البخاري: (٢٨٨٧). الأوسط للطبراني: (٢٥٩٥).

(٢) صحيح مسلم: (١٠٤٧).

في غير موضعه؛ كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا تُبْذَرِ تَبَذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧]. ويدخل في ذلك تجاوز الحد في المأكل والمشرب والملبس والسكنى والمركب، وأعظم الإثم في هذا الباب أن يضعه في معصية الله والصد عن طاعته.

تاسعاً: أن الإنسان لا يبالي في مصدره أحرام هو أم حلال، بل يرى الحلال ما حل في يده كما في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ». (١) فلا يبالي بالكسب من الربا والرشوة والغش والسرقة والاختلاس والظلم والمساهمات المحرمة والتجارة المحظورة وغير ذلك.

ومثل هذا يُسَدُّ عنه بابُ الجواب إذا دعا؛ فأبو هريرة رضي الله عنه يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم كما عند مسلم أنه ذكر: «.....الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟». (٢)

❖ كيفية النجاة من فتنة المال:

- إن النجاة من فتنة المال تكمن في أمرين:

١- أن يعلم المرء أن المال مال الله تعالى: وأن الله نسب المال إليه، وجعل نفسه سبحانه وتعالى المالك الحقيقي للمال وليس الإنسان، فقال:

(١) صحيح البخاري: (٢٠٥٩).

(٢) صحيح مسلم: (١٠١٥).

﴿وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

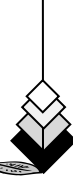
* وَعَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رضي الله عنها، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلًا لَا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (١) إذن صاحب المال الحقيقي هو الله، والمستخلف في المال عليه أن يطيع صاحب المال، ويأتمر بأمره، ويسير في تنميته وإنفاقه وتداوله حسب توجيهه وأمره.

٢- أن يعلم المرء أن الباقيات الصالحات من الأعمال هي كهف النجاة من فتنه المال، والنظر إلى ما عند الله من أجر وثواب يوم القيامة خير وأبقى، ولذلك لفتت سورة الكهف الأنظار إلى فتنه المال، وحقيقة الحياة الدنيا بما فيها من مال ومتاع بقوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾ (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) [الكهف: ٤٥ - ٤٦].. إنه متاع زائل وزينة لا تدوم ولا يبقى ولا ينفع إلا العمل الصالح من صلاة وصيام وصدقة وحج وذكر وقراءة للقرآن وبذل المعروف وكف الأذى.

(١) صحيح البخاري: (٣١١٨).

المبحث الثاني

فتنة الأولاد



النفس مجبولة على محبة الأولاد، وقد نصح الله عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأولاد التي فيها محذور شرعي، ورغبتهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته؛ لما عنده من الأجر العظيم، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

ورغبتهم في العفو والصفح والمغفرة، وتجنب الغلظة والقسوة في معاملتهم، ففي ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له.

وإن من الأولاد ما يكون صديقاً معيناً على الطاعة، ومنهم من يكون عدواً معيناً على المعصية.

الأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان، اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم.

فلو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقيه المجاهد في سبيل الله، والمجاهد في سبيل الله يتعرض لآلام كثيرة، كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه، ولا يحتمله في أولاده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار، والمتاع والمال، فيكونون عدواً له؛ لأنهم صدّوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا، كما أنهم قد يقفون له في الطريق

ليمنعوه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله فيفتنوه، ونحو ذلك من صور العداوة المتفاوتة.

فالله يريد من عبده أن يكون له، والأزواج والأولاد يريدونه لهم، فـﷻ يوقظ قلوب المؤمنين، ويحذرهم من تسلسل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات.

فالأموال والأولاد فتنة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

❖ والفتنة هنا لها معنيان:

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد ويختبركم كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب.

الثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله.

يقول ابن رجب: محبة النبي ﷺ من أصول الإيمان وهي مقارنة لمحبة الله ﷻ، وقد قرنهما الله بها، وتوعد من قدم عليها شيء من الأمور المحبوبة طبعاً من الأقارب والأموال والأوطان وغير ذلك، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ ﴾ [التوبة: ٢٤].

* ولما قال عمر للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ». (١)

فيجب تقديم محبة الرسول ﷺ على النفوس والأولاد والأقارب والأهلين والأموال والمساكين، وغير ذلك مما يحبه الناس غاية المحبة، وإنما تتم المحبة بالطاعة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وسئل بعضهم عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال.

- ولم يقتصر الأمر على حب المال، بل إن صاحبه يمتنع عن تقديم شيء من ماله وولده لله، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُعْفِيِّ، قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ: خَصَفَةُ، أَوْ ابْنُ خَصَفَةَ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيَّ رَجُلٌ سَمِينٌ فَقُلْتُ لَهُ: مَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا الشَّدِيدُ؟» قُلْنَا: الرَّجُلُ يَصْرَعُ الرَّجُلَ، قَالَ: «إِنَّ الشَّدِيدَ كُلَّ الشَّدِيدِ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ، تَذَرُونَ مَا الرَّقُوبُ؟» قُلْنَا: الرَّجُلُ لَا يُؤَلَدُ لَهُ، قَالَ: «إِنَّ الرَّقُوبَ الرَّجُلُ لَهُ الْوَلَدُ لَمْ يُقَدِّمْ مِنْهُمْ شَيْئًا» قَالَ: «تَذَرُونَ مَا الصُّعْلُوكُ؟» قُلْنَا: الرَّجُلُ لَا مَالَ لَهُ، قَالَ: «إِنَّ الصُّعْلُوكَ كُلَّ

الصُّعْلُوكِ الَّذِي لَهُ الْمَالُ لَمْ يُقَدِّمْ مِنْهُ شَيْئًا» (١).

فلقد أشار النبي ﷺ في الحديث إلى عدم كمال الإيمان، لأن هذا الأمر من أعظم الافتتان، لتعلقه بالله ورسوله، ولأنه قد يؤدي لخلل في العقيدة.

وهذا يحتاج من الإنسان إلى الصبر والاحتمال وترك الشهوات والمنكرات المؤدية لمعصية الله، والتطلع لما هو خير وأبقى قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) [الأعلى: ١٧].

❖ بعض الأبناء سبب لشقاء آبائهم:

وقد أكد القرآن أن بعض الأبناء سبب لشقاء آبائهم، ومنع الخير عنهم، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ^١ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

* عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَسَأَلَهُ، رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ^٢﴾ [التغابن: ١٤] قَالَ: «هَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدْعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَتَهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

فَأَحْذَرُوهُمْ ﴿[التغابن: ١٤]. (١)

﴿يقول النسفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾.....﴾ .. وإن من الأولاد أولادًا يعادون آباءهم ويقعونهم ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدو أي للأزواج والأولاد جميعًا أي لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدو فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم. (٢)

لذلك لما قيل ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام ما لك تكره الولد قال: ما لي وللولد إن عاش كدني وإن مات هدي. (٣)

ثم إن الرسول بين أن الولد سبب لتعود الإنسان على البخل والجبن، عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعِيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَصَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ». (٤)

فالولد يحمل أبويه على البخل، ويدعوهما إليه حتى يبخل بالمال لأجله ويتركا الجهاد بسببه.

ولقد ذكر القرآن الكريم شواهد حية من حياة بعض من افتنوا بالمال والأولاد ومنها قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ الَّذِي جَمَعَ مَالًا

(١) سنن الترمذي: (٥ / ٤١٩).

(٢) تفسير النسفي: (٣ / ٤٩٣).

(٣) فيض القدير: (٢ / ٤٠٣).

(٤) سنن ابن ماجه: (٢ / ١٢٠٩).

وَعَدَّدَهُ، ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ﴿٣﴾ كَلَّا لِيُبْنَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ﴿٤﴾ ﴿[الهمزة: ١ - ٤]﴾. فالقرآن أثبت العذاب لمن اغتر بماله وولده.

وأيضاً قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ١ - ٥]. حيث أكد القرآن على العذاب الشديد الواقع عليه في الدنيا والآخرة بسبب افتتانه بالمال والأبناء.

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة والإصلاح بها في الأرض، وبذلها في سبيل الله ومرضاته والإحسان بها إلى خلقه، فكلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً.. وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب.. فإذا السكينة تغمره.. والأمل في الله يسري عنه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقد تكون الأموال والأولاد نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده ؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيماً، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه.

❁ المال والبنون لا تغني عن أصحابها شيئاً في الآخرة:

كان أهل الكفر والجاهلية يرفضون الإيمان كلما دعوا إليه ويصرون على كفرهم، لاعتقادهم أن الأموال والأبناء يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة، ولقد أورد القرآن ذلك على لسان بعضهم حيث قال الله ﷻ حكاية عنهم:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]

﴿يقول النسفي: أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم في الدنيا وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما أو ضيق عليهما فلا ينقاس عليهما أمر الثواب وذلك قوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ قدر الرزق تضيقه قال الله تعالى ومن قدر عليه رزقه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

* فجاء الرد عليهم من الله في أكثر من موضع في القرآن، بإبطال ذلك المعتقد الفاسد كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦]

* وقوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧]

- وسبب نزول هذه الآية كما قال مقاتل: قَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنْصَرُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقَدْ شَقِينَا إِذَا! فَوَاللَّهِ لَنُنْصَرَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا

وَأَوْلَادِنَا إِنْ كَانَتْ قِيَامَةٌ، فنزلت الآية. (١)

- ولقد ذكر القرآن الكريم مثالا على جزاء من اعتز بماله وولده، واعتقد أنهما سيفديانه من الله، ويخرجانه من النار، ويدفعان عنه عذاب يوم القيامة، وهو أبو لهب حيث قال تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥)﴾ [المسد: ١ - ٥]

﴿قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أُنْذِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشِيرَتَهُ بِالنَّارِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أَفْدِي نَفْسِي بِمَالِي وَوَلَدِي، فنزل: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۚ (٢)﴾. (٢)

فالآية الكريمة تنفي نفع المال والولد لصاحبها، فهي لا تغني عنه من الله شيئا، وهذا النفي له معنيان يقول الإمام الرازي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَفْيًا، وَعَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمَعْنَى أَيُّ تَأْثِيرٍ كَانَ لِمَالِهِ وَكَسْبِهِ فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ أَكْثَرَ مَالًا مِنْ قَارُونَ فَهَلْ دَفَعَ الْمَوْتَ عَنْهُ، وَلَا أَعْظَمَ مُلْكًا مِنْ سُلَيْمَانَ فَهَلْ دَفَعَ الْمَوْتَ عَنْهُ، وَعَلَى التَّقْدِيرِ الثَّانِي يَكُونُ ذَلِكَ إِنْخَبَارًا بِأَنَّ الْمَالَ وَالْكَسْبَ لَا يَنْفَعُ فِي ذَلِكَ. (٣)

فأثبت القرآن أن ماله كان سببا في دخوله جهنم لأنه سبب في إصراره،

(١) فتح القدير للشوكاني: (٥ / ٢٣٠).

(٢) تفسير القرطبي: (٢٠ / ٢٣٨).

(٣) تفسير الرازي: (٣٢ / ٣٥١).

وعناده وبقائه على الكفر، قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] وهذا وعيد من الله لما سيلقى في الآخرة من العذاب من نار جهنم.

- ولقد أكد القرآن في موضع آخر أن المال والولد لا يغنيان عن أصحابهما شيئاً يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

يقول ابن كثير: لَا يَبْقَى الْمَرْءُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَالُهُ، وَلَوْ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا: وَلَا بَنُونَ وَلَوْ افْتَدَى بِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالتَّبَرُّي مِنَ الشَّرْكِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٨٩] أي: سَالِمٍ مِنَ الدَّنَسِ وَالشَّرْكِ. (١)

وكذلك يأتي نفي القرآن بنفع الأبناء لأبائهم يوم القيامة فيقول تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

❁ المال والبنون لا تخلص أصحابها في الدنيا:

يعتز الأغنياء بأموالهم وأبنائهم ظناً منهم أنهما سيخلصانهم في الدنيا، وسيدفعان عنهم السوء في الدنيا والآخرة فجاء القرآن بالنفي القاطع لهذا الظن الخاطيء فقال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [١] الَّذِي جَمَعَ مَالًا

(١) تفسير ابن كثير: (٦ / ١٤٩).

وَعَدَدَهُ ۚ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۚ (٣) كَلَّا لِيُبَدِّلَنَّا فِي الْخُطْمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ (٩) ﴿[الهمزة: ١ - ٩].

❁ الأموال والأولاد لا تقرب أصحابها إلى الله زلفى:

امتنع صناديد مكة في بداية الدعوة الإسلامية عن الدخول في الإسلام اعتزازًا بأموالهم وأولادهم، وتفاخرًا بهم، ظنًا منهم أنها تقربهم من الله سبحانه وتعالى، إذ المال وسيلة لجذب القلوب، فلأموال والأولاد هي التي تحقق لهم ما يطمنون، وتقربهم ممن يريدون، وهذا على نطاق البشر فظنوا أنه يتناسب مع الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً لذلك فقد جاءت الآيات الكريمة تكذيباً لدعواهم الباطلة، ونافية لاعتقادهم وظنهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ لِّضَعْفٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [سبا: ٣٧].

❁ يقول الطبري: وما أموالكم التي تفتخرون بها أيها القوم على الناس ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم، بالتي تقربكم منّا قربة. (١)

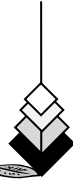




الفصل التاسع

رَسَائِلُ يُحَدِّثُنَا فِيهَا رَبُّنَا
عَنْ حَقَائِقِ ثَابِتَةٍ

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ



هذه الرسالة الربانية تكررت عدة مرات في القرآن قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وربنا سبحانه وتعالى عندما يُعَلِّمُنَا بشيء، وتكون صيغته بهذه الصورة: واعلموا، فهذا يوجب علينا أن ننتبه لهذه الرسالة، وأن نفقه المراد منها، وأن نعيها بعين القلب والبصيرة حتى نصل لتحقيق المراد بعد معونة الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا سنقف مع هذه الرسالة الربانية ونطوِّفُ في عجالة حول التقوى وكلنا أمل ورجاء في الله أن يَمُنَّ علينا بالتقوى لنكون من أهل معيته ورعايته. (١)

(١) أنصح بقراءة كتاب: التقوى: «تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها» للدكتور عمر الأشقر.، ولقد نفعتني الله به في هذه الرسالة نفعا كبيرا.

❁ التعريف بالتقوى:

تقوى الله سبحانه، هي عبادته، بفعل الأوامر وترك النواهي عن خوف من الله وعن رغبة فيما عنده، وعن خشية له سبحانه، وعن تعظيم لحرماته، وعن محبة صادقة له سبحانه ولرسوله - ﷺ. (١)

وهذا تعريف جامع للتقوى في الشرع، فالتقوى تكون بعبادة الله تعالى بفعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات الصادرة عن خوف الله وخشيته ومحبته، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقد قصر بعض أهل العلم في تعريف التقوى عندما قصروها على فعل المأمورات وترك المنهيات، ومن ذلك قول أبي عبد الله التونسي: «حقيقة التقوى عبارة عن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات». (٢)

❁ موضع التقوى القلب:

الله أمر عباده بأعمال ليكونوا من المتقين، وهذه الأعمال من الصلاة والزكاة والصبر والوفاء بالعهد ونحوها لا بد أن تقوم على ما امتلأ به القلب من مخافة الله وتعظيمه وتوقيره، فالعمل إن خلا مما استقر في القلوب، فلا يكون من التقوى في شيء، فالذي ينفق المال لا يريد به الله، والذي يرأي

(١) محاضرة نشرتها مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، العدد: ٥٩، نقلًا عن كتاب: التقوى: «تعريفها وفضلها ومحذوراتها وقصص من أحوالها».

(٢) بصائر ذوي التمييز: ٥ / ٢٥٧.

بصلاته، والذي يفي بالعهد حفاظاً على شرفه ومروءته، أعماله ليست من التقوى في شيء.

ويدلنا على أن مكان التقوى القلب، قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧]، وقول الرسول ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابُرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ». (١)

❁ المقصود الأعظم من العبادات تحقيق التقوى في القلوب:

إن المقصود الأعظم من العبادات هو تحقيق التقوى، وما يحصل في القلب ويقوم به من معاني العبودية والخضوع والانقياد لأمر الله وتعظيم شعائره، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ويقول جل وعلا: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ويقول - ﷺ - كما في صحيح مسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ

وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». (١)

❖ حاجتنا للتقوى في الآخرة:

أمرنا الله بالتزود في الدنيا لأسفارنا، وأخبرنا أن خير ما نتزود به لآخرتنا التقوى ﴿وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والتقوى هو خير زاد إلى دار المعاد، والتقوى الإيمان والعمل الصالح المنبعث عن مخافة الله، والرغبة إليه.

فالذي يأتي في يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح، وترجع حسناته بسيئاته، فقد أعطي الحظ العظيم، وفاز في يوم الدين، وعلى المرء أن يكون دائم الاستعداد للرحيل من الحياة، فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت. تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر فكم صحيح مات من غير علّة ... وكم عليل عاش حيناً من الدهر

❖ لا تكون من المتقين حتى تكون عالمًا بما تتقي:

إذا كان المرء غير عالم بما يتقي، فقد يظن المنكر معروفًا، والمعروف منكراً، وهذا يقع للمبتدعة كثيرًا، فتراهم يبتدعون أعمالاً ما أنزل الله بها من سلطان، يظنون أنها تقرّبهم من الله تعالى، فالمبتدعون من النصاري لا يغتسلون، ولا يتطيّبون، ولا يلبسون الطاهر من الثياب، وعظماؤهم وعبّادهم

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

يعزفون عن الزواج، ويظنون أنهم يتقربون بذلك إلى الله تعالى، وبعض الزهاد والعباد من هذه الأمة اتخذوا النصارى أسوة. وقد يصير الحال ببعض الناس إلى جعل الأعياد يوم مناحة وحزن، وقد يصوم يوم العيد، وقد يجعل بعض الجهلة يوم موت أبيه يوم فرح، تقام فيه الولائم، وتوزع الحلوى، وكل ذلك من وساوس الشيطان، وقد يدعو الواحد من أهل الضلال إلى النظر والتأمل في النساء الجميلات نظرًا يزعم أنه يتأمل فيه في خلق الله، وكلُّ هذا من قلة العلم بالشرعية. قال ابن رجب: وأصل التقوى: أن يعلم العبد ما يتقوى ثم يتقي. (١)

❖ المحذورات التي يجب علينا أن نتقيها:

- ١ - تقوى الكفر والشرك.
- ٢ - اتقاء البدع.
- ٣ - اتقاء كبائر الذنوب.
- ٤ - اتقاء صغائر الذنوب.
- ٥ - اتقاء المباحات: والمباحات لا حرج على فاعلها، ولكن التوسع في فعلها، قد يضير صاحبها.
- ٦ - اتقاء الأعمال المرجوحة المفضولة.

❁ كيف نغرس التقوى في قلوبنا :

إذا حلت التقوى في قلوبنا، اطمأن القلب، وانشرح الصدر، وأعظم التقوى أن نتقي الله ﷻ حقَّ تقاته قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: اتقوه على نحو ما أمركم به ونهاكم عنه، والذين يتقون الله حقَّ تقاته قليل، قال ابن عباس في تفسير الآية: «أطيعوا الله حقَّ طاعته» ويبيِّن مجاهد كيف يتَّقَى الله حقَّ التقوى، فقال: «هو أن يطاع، ولا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر، فلا يكفر» (١).

❁ ومما يغرس التقوى في القلب ما يلي :

- ١ - تعرف العبد إلى ربه.
- ٢ - عبادة الله تبارك وتعالى بصدق.
- ٣ - التفكير في خلق الله تعالى.
- ٤ - التفقه في النصوص المتحدثة عن القبر وعذابه والآخرة وأهوالها.
- ٥ - الإكثار من ذكر الله تعالى.

❁ تأسيس الأعمال على التقوى :

ينبغي أن تؤسس الأعمال على التقوى، ومن ذلك بناء المساجد، ودور

الأيتام، والمدارس، والجامعات، وقد ذمَّ الله تعالى في العهد النبوي الذين بنوا في المدينة في منطقة قباء مسجدًا ضارًا، أرادوا من وراءه أن يتخذوه موضعًا للتأمر على رسول الله وعلى المؤمنين معه، فنهى الله رسوله - ﷺ - عن افتتاحه والصلاة فيه، وكان بناته قد دعوا رسول الله - ﷺ - إلى الصلاة فيه، فكشف الله سترهم، فضح أسرارهم، وأنزل فيهم قرآنًا يتلى تحذيرًا من كل من فعل مثل فعلهم، ورغب الله رسوله - ﷺ - أن يقوم في المسجد الذي بني على التقوى، وهو الذي بني لعبادة الله، وفيه الذين يحبون أن يتطهروا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَا نَقُصُّ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْكَ اللَّهُ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

❁ ليس من التقوى الغلو في العبادة:

بعض الذي ينسبون إلى الإسلام يغالون في التعبد ظانين أن ذلك من التقوى، وقد غالى بعض الصحابة في ذلك، فردَّهم الرسول - ﷺ - إلى جادة الصواب، فقد ورد أن نفرًا من أصحاب الرسول - ﷺ - جاؤوا إلى بيوت الرسول - ﷺ - فسألوا عن عبادة الرسول - ﷺ -، فلما أخبروا

فكأنهم تقالُّوها، فقالوا: أين نحن من النبي، وتحدثوا عن أنفسهم، فأخبر أحدهم أنه يقوم الليل ويصلي ولا ينام، وأخبر الآخر أنه يصوم الدهر، ولا يفطر، وأخبر الثالث أنه يعتزل النساء، فخطأهم الرسول - ﷺ -، وبين لهم وجه الصواب.

* وروى أنس بن مالك - رحمته الله - قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتُم الذين قُلْتُم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنتي فلَيْسَ مِنِّي». (١)

❁ فضل التقوى وعظم قدرها:

قال الفيروز آبادي متحدثاً عن فضل التقوى وعظيم شرفها: «اعلم أن التقوى كنز عزيز، إن ظفرت به فكم تجد له فيه من جوهرٍ شريف، وعلق نفيس، وخير كثير، ورزق كريم، وغنمٍ جسيم، وملك عظيم، فهي الخصلة التي تجمع خير الدنيا والآخرة، وتأمل ما في القرآن من ذكرها كم علق بها من

خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة» (١)

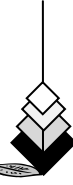
وقال الأستاذ وهبة الزحيلي: «التقوى قاعدة الإسلام، وجماع الخير، والعاصم من كل شرٍّ، والباعث على كل فضيلة، وخلق كريم، وهي أساس النجاة في الدنيا والآخرة، وسبيل السعادة، وطريق التوصل إلى الطمأنينة والاستقرار، والشعور بالرضا والارتياح، بل وسبب تيسر الرزق الحلال» (٢).



(١) بصائر ذوي التمييز: ٥ / ٢٥٩

(٢) أخلاق المسلم، ص ٥٢

المبحث الثاني واعلموا أنكم إليه تحشرون



✽ التعريف بالبعث والنشور:

المراد بالبعث المعاد الجسماني، وإحياء العباد في يومي المعاد، والنشور مرادف للبعث في المعنى، يقال: نشر الميت نشورًا إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أحياه. فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس لرب العالمين، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد حدثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مشهد البعث العجيب الغريب فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)﴾ [يس: ٥١-٥٣].

✽ حشر الخلائق جميعًا إلى الموقف العظيم:

سمى الله يوم الدين بيوم الجمع، لأن الله يجمع العباد فيه جميعًا: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمُ مَشْهُودٍ﴾ (١٠٣) [هود: ١٠٣]، ويستوي في هذا

الجمع الأولون والآخرين ﴿ قُلْ إِنَّا أَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

وقدرة الله تحيط بالعباد، فالله لا يعجزه شيء، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم، إن هلكوا في أجواز الفضاء، أو غاروا في أعماق الأرض، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة، أو أسماك البحار، أو غيبوا في قبورهم في الأرض، كل ذلك عند الله سواء: ﴿ أَتَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وكما أن قدرة الله محيط بعباده تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسى منهم أحد، ولا يضل منهم أحد، ولا يشد منهم أحد، لقد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى، وعدّهم عدّا ﴿ إِن كُُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿٤٧﴾ [الكهف: ٤٧].

وهذه النصوص بعمومها تدل على حشر الخلق جميعاً الإنس والجن والملائكة، ولا حرج على من فقه منها أن الحشر يتناول البهائم أيضاً. وقد اختلف أهل العلم في حشر البهائم، فذهب ابن تيمية - رحمه الله - إلى أن ذلك كائن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه، كما دل عليه الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿٥﴾ [التكوير: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ عَيْنَيْهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، وحرف (إذا) إنما يكون لما يأتي لا محالة. (١)

✍ وحكى القرطبي خلاف أهل العلم في حشر البهائم ورجح أن ذلك كائن للأخبار الصحيحة في ذلك، قال القرطبي: «واختلف الناس في حشر البهائم، وفي قصاص بعضها من بعض، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها، وقاله الضحاك. وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر وتبعث، وقاله أبو ذر وأبو هريرة وعمر بن العاص، والحسن البصري وغيرهم، وهو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿٥﴾ [التكوير: ٥]، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨].

✍ قال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم، والطيور، والدواب، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ ﴿٤٠﴾ [النبأ: ٤٠] ونحوه» (٢).

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: (٤/٢٤٨).

(٢) تذكرة القرطبي: ٢٧٣.

❁ صفة حشر العباد :

* يحشر العباد حفاة عراة غرلاً، أي: غير مختونين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
رحمته الله، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا
 بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] (١)

* وَعَنْ عَائِشَةَ رحمته الله، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً
 غُرْلًا» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى
 بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ». (٢)

* وقد جاء في بعض النصوص أن كل إنسان يبعث في ثيابه التي مات
 فيها، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، دَعَا بِثِيَابٍ جُدِّدَ فَلَبَسَهَا،
 ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يُبْعَثُ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي يَمُوتُ
 فِيهَا». (٣)

وقد وفق البيهقي بين هذا الحديث وسابقه بثلاثة أوجه:

الأول: أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم، فإذا وافوا الموقف يكونون
 عراة، ثم يلبسون من ثياب الجنة.

الثاني: أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون، ثم من بعدهم على مراتبهم

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٩).

(٢) صحيح البخاري: (٦٥٢٧).

(٣) سنن أبي داود (٣١١٤)، والمستدرک: (١٢٦٠)، وانظر السلسلة الصحيحة:
 (١٦٧١).

فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة.

الثالث: أن المراد بالثياب ها هنا الأعمال، أي يبعث في أعماله التي مات فيها من خير أو شر، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال: ﴿وَيَأْتِيكَ فَطَرٌ ٤﴾ [المدثر: ٤].

واستشهد البيهقي على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ». (١)

- ولا يفقه منه أن العبد يبعث في ثيابه التي كُفِّنَ فيها أو مات فيها، وإنما يبعث على الحال التي مات عليها من الإيمان والكفر، واليقين والشك، كما يبعث على العمل الذي كان يعمل عند موته، ويدل على هذا حديث عبد الله بن عمر، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا، أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ». (٢)، فالذي يموت وهو محرم يبعث يوم القيامة ملبياً، والدليل ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَقِفُ بِعَرَفَةَ، إِذْ وَقَعَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَوَقَصَتْهُ (٣) - أَوْ قَالَ: فَأَوْقَصَتْهُ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفَّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلَا

(١) النهاية لابن كثير: (١/ ٢٨٨). والحديث رواه مسلم: (٢٨٧٨).

(٢) صحيح البخاري (٧١٠٨)، صحيح مسلم: (٢٨٧٩).

(٣) أي أسقطته فكسرت عنقه.

تُحَنِّطُوهُ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ^(١)، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًّا^(٢)، والشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يثعب، اللون لون الدم والريح ريح المسك^(٣)، ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله^(٤)، لعله يموت على التوحيد، ثم يبعث يوم القيامة ناطقاً بهذه الكلمة الطيبة.

❖ كَسْوَةُ الْعِبَادِ فِي يَوْمِ الْمَعَادِ:

بعد حشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، كما صحت بذلك الأحاديث، يُكْسَى العباد، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران، ودروع الجرب، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة.

* وأول من يكسى من عباد الله نبي الله إبراهيم خليل الرحمن، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِي ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتِ

(١) أي لا تغطوا رأسه.

(٢) صحيح البخاري: (١٢٦٥) واللفظ له، صحيح مسلم: (١٢٠٦).

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكَلِّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِّ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمَسْكِ». انظر: صحيح البخاري: (٢٨٠٣).

(٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». انظر: صحيح مسلم: (٩١٦).

الشَّمَال.....» (١).

قال ابن حجر: «وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد: «وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حلة من الجنة، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر». (٢)

يقول القرطبي: وتكلم العلماء في حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة فروي أنه لم يكن في الأولين والآخرين لله ﷻ عبد أخوف من إبراهيم عليه السلام، فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه، ويحتمل أن يكون ذلك لما جاء به الحديث من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر، وحفظاً لفرجه من أن يماس مصلاه ففعل ما أمر به فيجزئ بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن يراد قتله، وكان ما أصابه من ذلك في ذات الله ﷻ فلما صبر واحتسب وتوكل على الله تعالى دفع الله عنه شر النار في الدنيا والآخرة، وجزاه بذلك العري أن جعله أول من يدفع عنه العري يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهذا أحسنها، والله أعلم. (٣)

(١) صحيح البخاري: (٣٤٤٧).

(٢) فتح الباري: (٣٨٤ / ١١).

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٥٣٤ - ٥٣٥).

❁ أرض المحشر:

الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

- وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، عن سهل بن سعد، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ» قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ». (١)

❁ قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلاً. وقال ابن فارس: معنى عفرَاء خالصة البياض. (٢) والنَّقِيّ: فتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال. (٣) والمعلم: العلامة التي يُهْتَدَى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالاً على الطرقات، أو على قسمة الأراضي.

- وَقَدْ وَقَعَ لِلْسَّلَفِ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ هَلْ مَعْنَى تَبْدِيلِهَا تَغْيِيرُ ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا أَوْ تَغْيِيرُ صِفَاتِهَا فَقَطْ وَحَدِيثُ الْبَابِ يُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْدُ بْنُ

(١) صحيح البخاري (٦٥٢١) صحيح مسلم: (٢٧٩٠).

(٢) فتح الباري: (١١/٣٧٥).

(٣) فتح الباري: (١١/٣٧٥).

حُمَيْدٍ وَالطَّبْرِيِّ فِي تَفَاسِيرِهِمْ وَالْبَيْهَقِيِّ فِي الشُّعَبِ مِنْ طَرِيقِ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قَالَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ أَرْضًا كَانَتْهَا فِضَّةً لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ حَرَامٌ وَلَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ وَهُوَ مَوْقُوفٌ وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ مَرْفُوعًا وَقَالَ الْمَوْقُوفُ أَصَحُّ. (١)

- وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمٍ عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ بَنٍ مَسْعُودٍ بِلَفْظِ أَرْضٍ بَيضاءَ كَانَتْهَا سَبِيكَةٌ فِضَّةً وَرِجَالُهُ مُوثَّقُونَ أَيْضًا. (٢)

- وَعِنْدَ عَبْدِ (٣) مِنْ طَرِيقِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ بَلَّغْنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضُ يَعْنِي أَرْضَ الدُّنْيَا تُطَوَّى وَإِلَى جَنْبِهَا أُخْرَى يُحْشَرُ النَّاسُ مِنْهَا إِلَيْهَا وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ الطَّوِيلِ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ فَيُبْسَطُهَا وَيُسَطَّحُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاطِيِّ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْرَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ فِي مِثْلِ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأَوَّلَى مَا كَانُوا فِي بَطْنِهَا كَانُوا فِي بَطْنِهَا وَمَا كَانُوا عَلَى ظَهْرِهَا كَانُوا عَلَيْهَا. (٤)

(١) فتح الباري: (١١ / ٣٧٥).

(٢) فتح الباري: (١١ / ٣٧٥).

(٣) عبد هو: عبد بن حميد.

(٤) فتح الباري: (١١ / ٣٧٥).

وَهَذَا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ عَقَبَ نَفْخَةِ الصَّعْقِ بَعْدَ الْحَشْرِ الْأَوَّلِ
وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ (٢) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ (٤)﴾ [الانشقاق:
٣-٤].

وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ التَّغْيِيرَ إِنَّمَا يَقَعُ فِي صِفَاتِ الْأَرْضِ دُونَ ذَاتِهَا
فَمُسْتَنَدُهُ مَا أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ
مُدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ.

وَمِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَفَعَهُ: تَمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ ثُمَّ لَا يَكُونُ لِابْنِ آدَمَ مِنْهَا
إِلَّا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ. وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ إِلَّا أَنَّهُ اخْتَلَفَ عَلَى الزُّهْرِيِّ فِي صَحَابِيهِ. (١)

ومنها حديث ابن عباسٍ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ۖ﴾
[إبراهيم: ٤٨] قَالَ يَزَادُ فِيهَا وَيُنْقَصُ مِنْهَا وَيُذْهَبُ أَكَامُهَا وَجِبَالُهَا وَأَوْدِيَّتُهَا
وَشَجَرُهَا وَتَمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاطِيِّ. (٢)

❁ الوقت الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات:

* أفادنا الرسول ﷺ أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور
الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ عَنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨]

(١) فتح الباري: (١١/٣٧٦).

(٢) فتح الباري: (١١/٣٧٦).

فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «عَلَى الصَّرَاطِ». (١)

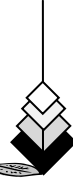
* وعن ثوبان مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِي، فَنَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ». (٢)، والمراد بالجسر الصراط.



(١) صحيح مسلم: (٢٧٩١).

(٢) صحيح مسلم: (٣١٥).

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ



❁ حتمية لقاء الله تعالى :

إننا نعلم أن الدنيا أنفاس معدودة وأيام محدودة، وأن الموت نهاية كل إنسان، وأن الخلق برهبهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم سيحاسبون على ما قَدَّمُوا في حياتهم، ولا بد لكل فرد من أن يقف بين يدي ربه، ليلقي جزاء عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ولذلك فإنه حري بكل إنسان أن يحاسب نفسه، ويتدارك ما فاتته في عمره، لأنه لا بد من لقاء الله ﷻ.

❁ ولقد قال الإمام أحمد رحمته الله: لا راحة للمؤمن دون لقاء الله. (١)

فمن كان يرجو راحة قبل لقاء الله فإنما يبحث عن شيء غير موجود. (٢)

❁ محبة لقاء الله :

* لم يفطر قلوب الموحدين إلا لقاء الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، والله تعالى أعلم بعباده، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ

(١) الجامع لعلوم الإمام أحمد: العقيدة: (٤/ ٢٣٩).

(٢) اللهم إلا أن تكون راحته في أن يرضى بقدر الله قال ربنا: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] والحياة الطيبة: أن يرضى الإنسان بقدر الله.

الله لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». (١) فهذا الذي عمل الصالحات أحب لقاء الله فأحب لقاءه. ولذلك الرسول ﷺ يقول عند وفاته: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى». (٢) حبًّا لمجاورة الله ﷻ.

* ويروى أَنَّ امْرَأَةً سَلَمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَتْ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: وَاحْزَنَاهُ فَقَالَ سَلْمَانُ بَلْ وَاطْرِبَاهُ غَدًا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحُزْبَهُ، وَمِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ يَرَوِي أَيْضًا عَنْ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ غَدًا نَرَى الْأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحُزْبَهُ! (٣)

- إذن المؤمن يفرح بلقاء الله ﷻ، ويفرح بالموت، ولكن الكافر على خلاف ذلك، يقول ﷺ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». (٤)

❁ الفرق بين المحسن والمسيء:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٧).

(٢) صحيح البخاري: (٤٤٣٦).

(٣) العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٢٤).

(٤) صحيح البخاري: (٦٥٠٧).

النَّاسِ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ [البقرة: ٩٤]، والحقيقة:
﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥]

فالمستقيم المحسن يرجو لقاء الله، ويشتاق إلى الله؛ أما الظالم، الفاسق،
الفاجر، الذي بنى مجده على أنقاض الناس، بنى ماله على إفقار الناس، هذا
لن يتمنى لقاء الله لأن الله سيعذبه وقتها. ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ٩٥﴾

بالعكس: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ
أُحْدِثُ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]

❁ المؤمن آمن بساعة اللقاء لذلك حياته كلها متكيفة مع ساعة اللقاء :

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة: ٦]، تمنى الموت كاشف
جداً، فالذي يتمنى الموت هو الذي على صلة طيبة بربه، يتمنى لقاءه، فعن
عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ،
وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (١)

❁ الخسارة التي لا تعوض خسران الآخرة وخسران لقاء الله ﷻ :

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١] لكن هذه

(١) صحيح البخاري: (٦٥٠٧).

الخسارة متى تكتشف؟ تكشف عند فوات الأوان عندما يوقن الإنسان أنه كان مخطئاً وهذا الذي حدث مع فرعون عندما عاين الموت قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بُنَاُ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ [يونس: ٩٠] وجاء الجواب: ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١] وهكذا سيقول كل خاسر: ﴿يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الفرقان: ٢٧]، وسيقول كل خاسر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا﴾ ﴿٤٠﴾ [النبا: ٤٠]، وسيقول كل خاسر: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاجَتِي﴾ ﴿٢٤﴾ [الفجر: ٢٤].

- إذا الخسارة الحقيقية هي الخسارة التي لا يمكن أن يتلافها الإنسان، وهي خسران الآخرة وخسران لقاء الله ﷻ.

تذكر لقاء الله:

﴿قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ خَافَ اللَّهَ لَمْ يَشْفِ غَيْظُهُ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ لَمْ يَصْنَعْ مَا يُرِيدُ، وَلَوْ لَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَكَانَ غَيْرُ مَا تَرَوْنَ.﴾ (١)
ووالله ليس هناك ما يردع كثيراً من الأقوياء من المسلمين عن بعض الأفعال إلا يوم القيامة.

وكيف لا يرتدع وهو يعلم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٩]

(١) الزهد لأبي داود: (ص: ١٠٩).

❁ وقوف العبد بين يدي الله :

إنها المسئولية العظيمة المسئولية الجليلة الخطيرة، إنها مسئولية الآخرة، كل هذه المجموع، وكل هذه الأمم أقيمت في ذلك المشهد العظيم، وذلك اليوم العظيم ؛ لكي تنهال عليها الأسئلة، وتعد لها درجاتها ودركاتها بحسب ما تجيب.

إنه اليوم الذي جمع الله فيه الأولين والآخرين من أجل السؤال، هناك حيث تغص الحناجر بغصصها، هناك ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٦ - ١٧].

وأبى الله إلا أن تشخص إلى السماء بعينيك، تنتظر فصل القضاء، تنتظر حكم رب الأرض والسماء، أفي الجنة أم في النار يكون القرار!! وشخصت الأبصار بين يدي الواحد القهار.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

ليت شعري إذا أتيت فردا ... والموازن قد نصبت حيالي والدواوين قد نشرت وجئنا ... والنيون يشهدون سؤالي ما اعتذاري وما أقول لربي ... في سؤالي وما يكون مقالي هناك حيث تقف بين يدي الله، والشهود حاضرة، والعيون إلى الله ناظرة هناك حيث يوقف العبد بين يدي الله جل جلاله، فينادي منادي الله: يا فلان!

قم للعرض على الله.

هناك نزول الأحساب والأنساب؛ ويذل العباد بين يدي الله رب الأرباب.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٠٨) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) ﴿[طه: ١٠٨ - ١٠٩].﴾

فدعيت أمام الأولين والآخرين، فارتعدت فرائصك من خشية الله، واصطكت القدمان بين يدي الله، وجئت من دارك إلى لقاء الله، وسألك الله عن الأيام التي مضت، وعن السنين والأعوام التي انقضت، سألك عن الشباب وما كان فيه من اللهو مع الأصحاب والأحباب فنشرت بين يديك الأوقات لا تفوت منها لحظة واحدة، فإما لك وإما عليك.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) ﴿[الكهف: ٤٩].﴾

وعرض عليك الشباب بأيامه وما فيه من الشهوات والملهيات، وكشفت الأستار وتبدت للأنظار، هناك حيث تشهد عليك الليالي بما اجترحت فيها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

❁ جزاء من نسي لقاء الله :

إن من الناس من نسي لقاء الله، وعاش حياته من أجل الدنيا، وهؤلاء لهم عقاب على هذا وجزاؤهم يكون بعدة أمور:

• أولاً: ينساهم الله تعالى :

* قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ (١)
وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [السجدة: ١٤]

* وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ ﴿٣٤﴾ [الجاثية: ٣٤]

• ثانياً: يفتح الله عليهم الدنيا :

* من نسي لقاء الله، ونسيه الله تركه للدنيا وفتحها عليه قال تعالى:
﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤]

(١) والنسيان هنا بمعنى الترك، قال الطبري: أَي: تَرَكْنَاكُمْ. انظر: تفسير الطبري: (١٧/ ١٢٠).

وقال ابن كثير: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ وَاسْتِيعَادِكُمْ وَقُوعَهُ وَتَنَاسِيَكُمْ لَهُ إِذْ عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةً مِّنْ هُوَ نَاسٍ لَهُ إِنَّا نَسِينَاكُمْ أَيِ سَنُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْسَى شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ ﴿٣٤﴾ [الجاثية: ٣٤] تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٣).

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾^(١) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧-٨]

* وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(١١) [القصص: ٦١].

❖ ثالثاً: يعيش حالة من اليأس:

من نسي لقاء الله فإنه ييأس من رحمة الله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢٣) [العنكبوت: ٢٣] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا رُسُلُهُ وَلِقَائِهِ وَهُوَ الْبَعْثُ الْآخِرُ الْمَوْجِبُ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِلسُّؤَالِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ هَذَا إِنْ كَانَ لِلْعَبْدِ مَا يَحَاسِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ، أَمَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ فَإِنَّهُ يَلْقَى فِي جَهَنَّمَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا وَزْنَ إِذْ لَيْسَ لَهُ مِنَ الصَّالِحَاتِ مَا يَوْزَنُ لَهُ وَيَحَاسِبُ بِهِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: أُولَٰئِكَ أَيُّ الْمَكْذِبِينَ ﴿بِعَايَةِ اللَّهِ﴾^(٢) وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا^(٣) مِنْ رَحْمَتِي ﴿إِذْ تَكْذِيبُهُمْ بِالْقُرْآنِ مَانِعٌ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

(١) من رضي بالحياة الدنيا، واطمأن بها فقد أغلق قلبه، وهذه عقوبة تضاف لهذه العقوبات.

(٢) المراد بآيات الله: القرآن الكريم: المشتمل على الأدلة البراهين والحجج الدالة على قدرة الله وعلمه وحكمته، المفصلة لأنواع عباداته.

(٣) أخبر عن يأسهم بالفعل الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه وإن كان المعنى أنهم سييأسون من رحمة الله التي هي الجنة لا محالة.

وتكذيبهم بيوم القيامة مانع لهم أن يتخلوا عن الشرك والمعاصي، أو يعملوا صالحًا من الصالحات لتكذيبهم بالجزاء، فهم يائسون من الجنة. ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٢) أي: موجه وهو عذاب النار في جهنم والعياذ بالله تعالى. (١)

❁ إعداد العدة للقاء الله ﷻ:

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴿[الانشقاق: ٦ - ١٥].

هذه الآيات تحثنا وتنبهنا على إعداد العدة للقاء الله ﷻ، لأن لقاء الله حق كما أكد ذلك ربنا ووضحه رسولنا فقال ﷺ: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ثَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (٢)، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ

(١) أيسر التفاسير للجزائري: (٤ / ١٢٢).

(٢) صحيح البخاري: (٧٥١٢).

وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ....» (١)

فلقاء الله حق لا بد أن يتحقق، وكل عبد سيلقى الله ﷻ فرداً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ﴾ (٩٥) [مريم: ٩٣ - ٩٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ۚ﴾ (٩٦) [مريم: ٩٣] وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۚ﴾ [الأنعام: ٩٣ - ٩٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۚ﴾ [مريم: ٣٨] فماذا سنقول لله تعالى يومها؟

❁ وفي هذا اليوم ثلاث مصائب:

• المصيبة الأولى: ستلقى رباً غضباناً:

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِلَحْمٍ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ،

وَكَاثَتْ تَعْجِبُهُ فَهَشَّ مِنْهَا نَهَشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِنْ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسَمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ

مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي
 نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى،
 فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ،
 وَكَلَّمَتِ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟
 فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ
 يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا
 إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ،
 وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا
 نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْطَلِقْ فَاتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَاقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ
 مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا
 مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ.....» (١) فكيف ستلقاه وهو
 غضبان؟

• المصيبة الثانية: المرء يكون مكشوفًا عريانًا:

* قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿١٨﴾ [الحاقة: ١٨]

* عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ
 أَحَدُهُمَا: يُنْصَبُ، وَقَالَ الْآخَرُ: يُرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُعْرَفُ بِهِ» (٢)

* حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ

(١) صحيح البخاري: (٤٧١٢).

(٢) صحيح البخاري (٣١٨٦).

الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ حُلَيْدٍ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

* عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ» (٢).

• المصيبة الثالثة: كل الناس تتخلى عن المرء:

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ۚ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ (٣٧)﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

* وقال تعالى: ﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۚ (١٠)﴾ [الطارق: ١٠].

* وقال تعالى: ﴿هَتَانِتمْ هَتُولَاءِ ۚ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۚ (١٠٩)﴾ [النساء: ١٠٩].

* وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ۚ (٢٥)﴾ [النور: ٢٤ - ٢٥].

* وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۚ (فصلت: ٢١)﴾.

(١) صحيح مسلم: (١٧٣٨).

(٢) صحيح مسلم: (٣/ ١٣٥٩).

* كم حذرنا الله من هذا اليوم قال تعالى: ﴿يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ [غافر: ١٥ - ١٦] حتى الأنبياء يقولون في هذا اليوم: «..... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي.....» (١)، فماذا أعددنا للقاء الله.

❁ صدق التأهب للقاء الله :

إن الإنسان يجب أن يكون صادقاً في تأهبه للقاء الله تعالى، وأن يعيش متفكراً في ساعة ذهابه لقبره، وكيف ستكون حالته؟

هل سيقول: قدموني؟ أم سيقول: يا ويلها؟

ومن هنا أقول: إن التأهب للقاء الله يكون بثلاثة أشياء:

• أولاً: تجريد التوحيد:

وتجريد التوحيد معناه: أن يتعلق الإنسان بالله في كل شيء، لأن الله مالك كل شيء، قال تعالى: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [آل عمران: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠].

- والله بيده ملكوت كل شيء قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ

(١) صحيح البخاري (٤٧١٢).

[المؤمنون: ٨٨ - ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَسُبِّحْنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

- والله خالق كل شيء قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢]

- ولا يخفى على الله شيء قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]

ولقد تحدى الله الكافرين فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

فمن هذه صفاته لا يتعلق القلب إلا به سبحانه وتعالى.

- إن من تعلق بشيء تذكره عند الموت، وكم من أناس جاءهم الموت

وكانوا متعلقين بمال، أو جاه، أو عمل، أو.....

أما الموحد عند الموت يكون قرير العين قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]. وعن عائشة، قالت: لَمَّا مَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى». (١) فالموحد يفرح بالرفيق الأعلى لعلمه بالخير الموجود هناك قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٧] ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١] ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [القصاص: ٦٠] ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧].

• ثانياً: قطع التعلق بالدنيا والتأهب للآخرة:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]

في هذه الآية يخبرنا الله أنه هو الذي أوجد الجن والإنس، وأن الحكمة من إيجادهم هي إفراده بالعبادة والكفر بما سواه، وأنه لم يخلقهم لمصلحة

(١) صحيح البخاري: (٤٤٣٦).

نفوذ لذاته، وإنما أوجدتهم للعبادة، وتكفل بأرزاقهم، وهو صادق بوعده قادر على تحقيقه لأنه قوي متين.

- وهذه الدنيا جعلها الله اختباراً وامتحاناً قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]

* وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]

* وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فمن عرف هذه الحقيقة لم يتعلق قلبه بالدنيا، ولنتأمل هذا الحديث عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: أَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ جُبَّةٌ سُنْدُسٍ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْحَرِيرِ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ». (١)

لما أعجب الناس بشيء من متاع الدنيا، صحح النبي ﷺ، وذكرهم بالآخرة الباقية، حتى يعلموا أن الحياة صورة، والآخرة هي الحقيقة.

ولقد أكد لنا ربنا في القرآن هذا الأمر، وأخبرنا بأن الآخرة خير فقال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [١٣١] وَأَمْرًا هَلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَىٰ﴾ [١٣٢] [طه: ١٣١ - ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [١٧] [الأعلى: ١٧]. (١)

• ثالثاً: الاستجابة لأوامر الله من أول وهلة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّ كُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكَيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]

(١) ولزيادة بيان لهذه القضية يُراجع ما ذكرته عند هذه الرسالة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

* ولنا في صحابة الرسول القدوة عن عمرو بن شرحبيل أبي ميسرة، عن
 عمر بن الخطاب، أنه قال: «اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء»، فنزلت التي
 في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فدعني عمر
 فقرأت عليه فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء»، فنزلت التي في
 النساء: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]،
 فدعني عمر فقرأت عليه، ثم قال: «اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء»، فنزلت
 التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ
 وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١] - إلى قوله - ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ﴿١١﴾ [المائدة: ٩١]
 فدعني عمر فقرأت عليه فقال: «انتهينا انتهينا». (١)

فالصحابه من أول وهلة قالوا: سمعنا وأطعنا.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ءَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي
 طَغْيٍ نَهِمَ يَعْْمَهُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى
 طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْكَ لِخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ
 رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [التوبة: ٨٣]، وقال تعالى:
 ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
 وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ [التوبة: ٤٦].

فتأمل قوله تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ءَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ، ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ

أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٤٦﴾ .

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَقْصُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ

الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ .

فمن استجاب لأوامر الله من أول وهلة، وقطع التعلق بالدنيا يكون صادقاً متأهباً للقاء الله سبحانه وتعالى.



الشوق إلى لقاء الله

إِنَّ مَنْ يقرأ قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. ومن يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] يجب أن يتشوق للقاء الله تعالى.

ولقد قال النبي - ﷺ -: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ». (١)

- إن الشوق أثر من آثار معرفة الله ومحبته، وهو سفر القلب إلى المحبوب في كل حال.

والمحبة أعلى منه ؛ لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

❖ علامة الشوق:

السير إلى الله بالعبادة والاستقامة، وفطام الجوارح عن الشهوات التي تعوق سيره.

والشوق: هو احتراق الأحشاء، ومنها يتهيج ويتولد، ويلهب القلوب، ويقطع الأكباد، سببه الفرقة والبعد.

(١) النسائي برقم (١٣٠٥)، وانظر صحيح سنن النسائي: (١٢٣٧).

والشوق: يراد به حركة القلب واهتياجه للقاء المحبوب، فهذا يزول باللقاء.

ولكن يعقبه شوق آخر أعظم منه تثيره حلاوة الوصل، ومشاهدة جمال المحبوب وجلاله وعظمته.

فهذا يزيد باللقاء والقرب ولا يزول، كما نرى المحب يبكي عند لقاء محبوبه من شدة شوقه إليه، ووجوده به.

❁ درجات الشوق:

الشوق على ثلاث درجات:

الأولى: شوق المؤمن إلى الجنة.

ويتولد ذلك من معرفة ما في الجنة من ألوان النعيم، وسعة القصور، وأشكال الطعام والشراب، وحسن الأزواج كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

الثانية: الشوق إلى الله تبارك وتعالى.

والشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة، فإن أطيب ما في الجنة قربته تعالى، ورؤيته، ورضاه، وسماع كلامه.

فالشوق فقط إلى مجرد الأكل والشرب والحوار العين ناقص جداً بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى، بل لا نسبة له إليه البتة.

• درجات الشوق إلى الله:

أحدهما: شوق زرعه الحب الذي ينبت على حافات المنن، سببه مطالعة منة الله وإحسانه ونعمه.

الثاني: شوق زرعه الحب الذي نشأ واستقر من معرفة ومحبة أسماء الله وصفاته المختصة بالمن والإحسان، كالبر والمنان، والمحسن والمعطي، والغفور والرحيم، والوهاب والكريم، ونحو ذلك، وهذه أكمل وأقوى.

الثالثة: شوق أضرمه صفو المحبة، لا لأجل المنن والنعم فقط بل لأجل ذات الله وصفاته، وجماله وجلاله وكماله.

فمنعت نار الشوق هذه السكون إلى لذيذ العيش ونغصته، وسلبت السلوة بغيره سبحانه.

ولكمالها وقوتها لم يكفها ويردها قرار دون لقاء المحبوب، وهذه لا يقاومها الاضطراب؛ لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار.

❖ حقيقة الشوق:

يقول ابن القيم: وإذا كان الشوق هو سفر القلب في طلب محبوبه ونزوعه إليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلها وأعلاها، ومن أنكر شوق العبد إلى ربه فقد أنكر محبته له، لأن المحبة [تستلزم] الشوق [فالمحب] دائماً مشتاق إلى لقاء [حبيبه]: لا يهدأ قلبه ولا يقر قراره إلا بالوصول إليه. (١)

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین (ص: ٣٢٨)

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، قال أبو عثمان الحيري: هذا تعزية للمشتاقين، معناه: إني أعلم أن اشتياقكم إليّ غالب، وأنا أجلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصولكم إليّ من تشاقون إليه. (١)

❖ نماذج للمشتاقين:

١ - شوق نبي الله آدم عليه السلام:

لا يدرك أحد شوق نبي الله آدم الذي كلمه الله وأسكنه الجنة ثم أهبطه إلى الأرض....

* عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيَا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُعَلِّمٌ مُكَلِّمٌ» قَالَ: كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشْرُ قُرُونٍ» قَالَ: كَمْ بَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «عَشْرُ قُرُونٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كَانَتْ الرُّسُلُ؟ قَالَ: «ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَ عَشْرَةٍ جَمًّا غَفِيرًا». (٢)

* وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْبِيَا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ». قَالَ: كَمْ بَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كَانَتْ الرُّسُلُ؟ قَالَ: «ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ». (٣)

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین (ص: ٣٣١)

(٢) المستدرک: (٢ / ٢٨٨). وانظر: السلسلة الصحيحة: (٣٢٨٩).

(٣) المعجم الأوسط (١ / ١٢٨). وانظر: السلسلة الصحيحة: (٢٦٦٨).

كم بكى آدم على الجنة شوقاً إليها بعدما أهبط منها، كان كلما ذكر الجنة قلق، وكلما رأى الملائكة تصعد يحترق، تذكّر المعاهد فحنّ
وَالَّذِي بِالْبَيْنِ وَالْبَعْدِ بِلَانِي ... مَا جَرَى ذِكْرُ الْحَمَى إِلَّا شَجَانِي
حبذا أهل الحمى من ساكن ... شفني الشوق إليهم وبراني
كلما رمت سلوا عنهم ... جذب الشوق إليهم بعناني
أحسد الطير إذا طارت إلى ... أرضهم أو أقلعت للطيران
أتمنى أني أصحبها ... نحوهم لو أنني أعطى الأمانى
لا تزيدوني غراماً بعدكم ... خل بي من بعدكم ما قد كفاني
ذهب العمر ولم أحظ بكم ... وتقضي في تمنيك زماني (١)
بكاء آدم لفراق لا كبكاء غيره، ما كان هذا القلق لنفس الدار، بل لأجل
رب الدار.

واعجباً كان يبكى للدار مرة وللجار ألفاً، والفراق يقلقل والبعاد يزلزل.
وبالله خبرني عن ذاق طيب الكلام، وكان نبياً مكّلاً، كلّمه ربّه، كيف
يكون شوقه، إن حبه لقديم، وشوقه قديم قدّم حبه انظر:

قال ابن القيم: وحمده يتضمّن أصليّن الإخبار بمحامده وصفات
كماله والمحبة له عليّها فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن
حامداً ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتّى يجمع

(١) المدهش (ص: ٢٠٥).

الأمرين. (١)

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَهُ، فَجَلَسَ فَعَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ». (٢)

والله إن هذا الحديث عجيب وإنه لنفوس المحبين لحبيب، يحمد ربه عند تكوين خلقه.

إن نجائب المحبة والشوق مهياة للمُراد، سبقت له الحسنَى من ربه، واصطفاه ربه وجعله أول نبي، واجتباها ربه، كان في إهباطه إلى الأرض صعوداً له، فهبوطه الغائص في اللجة خلف الدرر، أرسله إلى الأرض ليعث إلى الجنات نفقة ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] و ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وشوق المحب العابد، وهو أولى الناس بقول القائل:

وَحَيَّ عَلَى جَنَاتٍ عَذْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْوَلَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّا سَبِيَّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنَسَلَمُ
وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي ... لَهَا أَضْحَتِ الْأَعْدَاءُ فِينَا تَحَكَّمُ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى ... وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ لَيْسَ يَنْعَمُ

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٨٣).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٩٣).

فَمِنْ أَجْلِ ذَا لَا يَنْعَمُ الْعَبْدُ سَاعَةً ... مِنَ الْعُمُرِ إِلَّا بَعْدَ مَا يَتَأَلَّمُ (١)

٢ - شوق كلیم الرحمن موسى ﷺ إلى ربه ﷻ:

موسى - ﷺ - مشتاق إلى الله ﷻ، ولذلك لما قال له ربنا ﷻ في المناجاة: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ طه: ١٧، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ [سورة طه الآية: ١٨]

والسؤال هنا: لم أطل موسى عليه الصلاة والسلام الحديث مع الله؟

يريد أن يطيل اللقاء فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ ، ثم قال في استحياء: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ [سورة طه الآية: ١٨]، هنا غلب عليه الأدب، فإذا سمح الله ﷻ له أن يتابع الحديث، يقول له: يا موسى وما تلك المآرب؟ وهذه الإطالة في الحديث في أثناء المناجاة من شوق هذا النبي الكريم إلى الله ﷻ.

- وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

أخذ سماع الخطاب وكلام الرحمن لموسى بمجامع قلبه، فعلق قلبه بالميقات المعلوم ليكون تأمله تعليلاً له.

ويعلم الله سبحانه وكليمه موسى ما كان في قلب موسى عليه السلام من شوقه إلى الله، فصامها موسى عليه السلام، وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بالعشرة أربعين.

وقد صمت عن لذات دهري كلها ... ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي (١)
حين ذاق موسى لذة التكليم الأول جرح قلبه نصل الشوق، فلم يداوه إلا طيب ﴿وَوَاعَدْنَا﴾.

كان موسى يطوف في بني إسرائيل ويقول: من يحملني رسالة إلى ربي؟
ما كان مراده إلا أن يطول الحديث مع الحبيب.
يُجَدِّدُ تَذْكَارُ الْحَدِيثِ مَوَدَّتِي ... فَذِكْرُكَ عِنْدِي وَالْحَدِيثُ جَدِيدُ (٢)
ولما تم ميقات ربه وأحضر موسى حظيرة القدس، فنسي الأنس بما أنس من الأنس.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال القشيري: جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المهيمين، جاء موسى بلا موسى، جاء موسى ولم يبق من موسى شيء لموسى. آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خطا خطوات

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٣٨)

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان (٥ / ٦٦٠)

فإلى القيامة يقرأ الصبيان: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى» (١).

قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ ﴿٨٤﴾ [طه: ٨٤] قال أبو علي الدقاق: معناه شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

قال ابن القيم: إن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه. (٢)

والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة.. أي شوق ضمه القلب الطاهر الكريم للتكليم حين يسمع كلام ربه منه بغير واسطة، إن غلبت الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] والله در القائل:

وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا ... إِذَا دَنَتِ الْخِيَامُ مِنَ الْخِيَامِ. (٣)
أشد الخلق شوقاً إلى الحبيب أقربهم من الحبيب، هذا موسى عليه السلام،

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٥٦٤)

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٨٧) بتصرف يسير جداً.

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ٥٤).

وكان واقفاً في محل المناجاة محدقة به سجوف التولي، غالبية عليه بواده الوجود، ثم في عين ذلك كان يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ١٤٤ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ١٤٥ [الأعراف: ١٤٤ - ١٤٥]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ تَعَالَى..... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أَيْ: مِنَ الْكَلَامِ وَالْوَحْيِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ: عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، قِيلَ: كَانَتْ الْأَلْوَابُ مِنْ جَوْهَرٍ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَابُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]

وَقِيلَ: الْأَلْوَابُ أُعْطِيَهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَةِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ

كَانَتْ كَالْتَّعْوِيزِ لَهُ عَمَّا سَأَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَمُنِعَ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١)

هذا الخطاب لتدارك قلب موسى عليه السلام بكل هذا الرفق كأنه قال: يا موسى إني منعتك عن شيء واحد وهو الرؤية، ولكنني خصصتك بكثير من الفضائل، اصطفتك بالرسالة، وأكرمتك بشرف هذه الحالة.... وقد كتب الله التوراة لموسى بيده.

يقول ابن الجوزي عن شوق كليم الله موسى عليه السلام:

فَلَمَّا دَارَتْ فِي دَائِرَةِ دَارِ الْحَبِّ كُؤُوسٌ لِلْقَرَبِ وَسَمِعَ النَّدَاءَ وَسَطَ النَّادِي
بِلَا وَاسِطَةٍ وَسِيطُ (٢) لَهُ مِنْ وَسِيطِ أَقْدَاحِ الْمَنَى فِي الْمُنَاجَاةِ بِلَا وَسِيطِ طَابَ
لَهُ شَرَابُ الْوِصَالِ مِنْ أَوْطَابِ (٣) الْخُطَابِ فِي أَوَانِي سَمَاعِ الْكَلَامِ فَنَادَاهُ تَوْقُ
شَوْقِهِ

أَوَانِ (٤) أَنْتَ فِي هَذَا الْأَوَانِ ... عَنِ الرَّاحِ الْمَرْوُوقِ فِي الْأَوَانِي (٥)

وقال ابن الجوزي أيضًا: مَاتَ مُوسَى قَتِيلَ شَوْقٍ ﴿أَرِنِي﴾ فَلَمَّا جَاَزَ
عَلَيْهِ نَبِينَا ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ رَدَدَهُ فِي الصَّلَوَاتِ لِيَسْعِدَ بِرُؤْيَا مِنْ قَدَرَأَى:
وَإِنِّي لَأَتِي أَرْضَكُمْ لَا لِحَاجَةٍ ... لَعَلِّي أَرَاكُمْ أَوْ أَرَى مِنْ يَرَاكُمْ

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٤٧٣).

(٢) سيط: مُزَجَّجٌ

(٣) الأوطاب: جمع وطب وهو السقا.

(٤) اسم فاعل من ونى.

(٥) المدهش (ص: ١٠٤)

أَنْ تَشُقَّ عَيْنِي فَطالما سَعِدْتُ ... عَيْنَ رَسُولِي وَفَازَ بِالنَّظَرِ
وَكَلِمَا جَاءَنِي الرَّسُولَ لَهُمْ ... رَدَدْتُ شَوْقًا فِي طَرَفِهِ نَظْرِي
تَظْهَرُ فِي طَرَفِهِ مُحَاسِنُهُمْ ... قَدْ أَثَرْتُ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثَرِ
خُذْ مَقْلَتِي يَا رَسُولَ عَارِيَةِ ... فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكَمْ عَلَى بَصْرِي (١)

٣ - شوق يوسف عليه السلام :

قال تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]

﴿ قَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْحِيرِيُّ: عَلَامَتُهُ حُبُّ الْمَوْتِ مَعَ الرَّاحَةِ وَالْعَافِيَةِ،
كَحَالِ يُوسُفَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ لَمْ يَقُلْ تَوَفَّنِي، وَلَمَّا أُدْخِلَ السِّجْنَ لَمْ يَقُلْ
تَوَفَّنِي، وَلَمَّا تَمَّ لَهُ الْأَمْرُ وَالْأَمْنُ وَالنَّعْمَةُ، قَالَ: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾. (٢)

٤ - شوق سيد ولد آدم ﷺ :

كل كلمات الدنيا لا تسطر شوق رسولنا ﷺ، وأنى للكلمات ذلك.
سيط قلب نبينا بالشوق إلى ربه تعالى، وإلى الدار الآخرة، كيف وهو
الذي أسرى به الله وأراه الآيات الكبرى.

(١) المدهش (ص: ١٠٥) وهذا على مذهب ابن الجوزي في رؤية النبي ﷺ ربه في
الإسراء.

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ٥٣)

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

والنبي -عليه الصلاة والسلام- ألم يخيره الله ﷻ بين زهرة الدنيا وبين أن يرفعه إليه؟ فقال: بل الرفيق الأعلى، النبي قبل وفاته بقليل، ماذا قال؟.

* عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ -ﷺ- فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه-، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ! إِنْ يَكُنْ اللَّهُ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- هُوَ الْعَبْدُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكُ، إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ.

❁ الفرق بين الشوق والمحبة:

والفرق بين الشوق والمحبة، أن الحامل على الشوق هو المحبة، فالمحبة بذر في القلب، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر، وكذلك من ثمرات المحبة حمد المحبوب، والرضى عنه، وشكره، وخوفه ورجاؤه، والتنعم بذكره، والسكون إليه، والأنس به، والوحشة من غيره.

وكما أن القلب إذا أبغض شيئاً وكرهه جدَّ في الهرب منه، وإذا أحبَّ شيئاً جدَّ في المسارعة إليه وطلبه.

ويوصف الله ﷻ بالمحبة ولا يوصف بالشوق؛ لأنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة، وكل من عرف ربه أحبه، ومن أحبه اشتاق إليه وإلى لقائه.

ولا محبوب في الحقيقة إلا الله سبحانه، ولا مستحق للمحبة التامة سواه. فالإنسان يحب نفسه وبقائه وكماله، ويكره ضد ذلك، وهذه جيلة كل حي، وهذا يقتضي غاية المحبة لله ﷻ.

فإن الإنسان إذا عرف ربه عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله، فهو عدم محض لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل. فمن عرف ربه أحبه، وكيف يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ (١)

❁ اليقين ببقاء الله يورث الشجاعة والثبات :

* قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب (٢/ ١٧٧٠ / ١٧٧٢).

❁ القوى الإنسانية بالنسبة للمسلم نوعان :

الأولى: قوة مهتدية تؤمن بالله وتتبع منهج الله، فهذه يجب أن يؤازرها ويتعاون معها على نشر الحق والخير والصلاح، وهم المؤمنون بالله.

الثانية: قوة ضالة لا تؤمن بالله ولا تتبع منهجه، فهذه يجب أن يدعوها إلى الحق، فإن أبت وآذت حاربها وقتلها كما قال سبحانه: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

ولا يضر المسلمين ولا يخيفهم أن تكون قوة هؤلاء ضخمة أو عاتية، فهي بضالها عن مصدر قوتها تفقد قوتها، تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها، وتخدع بأشباحها من لا إيمان له، والمخلوقات كلها في قبضة الله، ينجي بها من يشاء ويهلك بها من يشاء: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. (١)

- الله سبحانه بيده كل شيء، وغيره ليس بيده شيء، فمن كان يقينه على الله نصره، وجعله سبباً لهداية الناس، ومن كان يقينه على المشاهدات والمصنوعات والأعداد أذله الله بها وهزم بسببها كما قال سبحانه عن طالوت وجيشه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) انظر: موسوعة فقه القلوب (٢/ ١٧٢٦ / ١٧٢٧).

فالمؤمنون الذين أطاعوا أمر الله، ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه وساروا مع طالوت لحرب عدوه صاروا فريقين:

فريق لما رأوا قلتهم وكثرة عدوهم قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده؛ لأنهم تأثروا بالمشاهدات من كثرة العدو، وكثرة عددهم وسلاحهم.

أما الفريق الآخر فهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ فقالوا مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وأمرين لهم بالصبر: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١]. (١)

- ولقد ضرب صحابة رسولنا مثلاً نادراً في الشجاعة والثبات، وكتب التاريخ والسير حافلة بمواقفهم وبطولاتهم التي سطروا بها في سجل التاريخ ما لا يخفى على أحد. فجزاهم الله خيراً على ما فعلوه من أجل نشر دين الله سبحانه وتعالى.

- والسبب الرئيس بعد الإيمان بالله في شجاعتهم وثباتهم، هو الإيمان

(١) موسوعة فقه القلوب: (٣ / ٢٤٩٨).

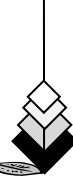
بلقاء الله تعالى.

- ولن أذكر مواقف، لأنه لا يخفى على أحد شجاعة أبي بكر الصديق،
فاقي عين الردة، ولا شجاعة الفاروق عمر، ولا شجاعة الأسد حمزة، ولا
شجاعة سيف الله خالد بن الوليد، وغيرهم كثير من الصحابة الكرام، الذين
اصفاهم رب العالمين ليكونوا في صحبة رسوله الكريم ﷺ.



المَبْحَثُ الرَّابِعُ

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ



هذه رسالة ربانية يوجهنا ربنا فيها أن نحذره سبحانه وتعالى، والحذر يكون بدوام المراقبة. (١)

❦ قال ابن القيم: المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. (٢)

❦ وقال المحاسبي: المراقبة: دوام علم القلب بعلم الله - ﷻ - في السكون والحركة علماً لازماً مقترناً بصفاء اليقين.

❦ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم: أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يقال إنه يراقب فلانا، ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتة إليه وملاحظته

(١) بفضل الله تعالى فصلت في موضوع المراقبة في كتابي: (الكليم يسأل والكريم يجيب)، لذلك سيكون كلامي هنا بصورة مختصرة.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٦٨).

إيَّاه وانصرفه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأن الله مطلع على الصّمائِر، عالم بالسّرائِر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كلّ نفس بما كسبت، وأنّ سرّ القلب في حقّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً - أعني أنّها خلت عن الشكّ - ثمّ استولت بعد ذلك على القلب قهرته ؛ فربّ علم لا شكّ فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرّقيب وصرفت همّه إليه؛ والموقفون بهذه المعرفة هم المقرّبون، وهم ينقسمون إلى الصّديقين وإلى أصحاب اليمين. (١)

❖ حديث القرآن عن المراقبة:

* قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

يقول السعدي معلقاً على هذه الآية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فانووا الخير، ولا تنووا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه. (٢)

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي (٤ / ٣٩٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ١٠٥).

❁ نصوص نبوية ترغب في المراقبة:

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفِرَ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوُوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صَبِيَّةٌ صَغَارُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ (١)، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَحِثْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصَّبِيَّةَ قَبْلَهُمَا، وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ (٢) عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبِي وَدَائِبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمَّ أَحَبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعَبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَحِثْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رَجْلَيْهَا (٣)، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ (٤)، فَقُمْتُ

(١) فإذا أرحمت عليهم: أي إذا رددت الماشية من المرعى إليهم.

(٢) يتضاغون: أي يصيحون ويستغيثون من الجوع.

(٣) فلما وقعت بين رجليها: أي جلست مجلس الرجل للوقاع.

(٤) لا تفتح الخاتم إلا بحقه: الخاتم كناية عن بكارتها. وقوله بحقه: أي بنكاح لا بزنى.

عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَأَفْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أُرْزُ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَرْزُ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَأَفْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ». (١)

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ». (٢)

إلى غير ذلك من الأحاديث.

❖ النبي ﷺ يعلم الأمة مراقبة الله جل وعلا :

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعْ

(١) البخاري - الفتح ١٠١ (٥٩٧٤). ومسلم (٢٧٤٣) واللفظ له.

(٢) البخاري - الفتح ٣ (١٤٢٣). ومسلم (١٠٣١) واللفظ له.

السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنِ» (١).

فالنبي ﷺ يعلمنا هنا أن العبد لابد أن يراقب الله ﷻ في كل سكناته وحركاته وكلماته وأفعاله، بل في كل زمان ومكان «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»...

ومن المعلوم أن العبد قد يخطئ ويقع في المعصية ولذا عَقِبَ بعدها النبي ﷺ بقوله: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» وهذا فيما يتعلق بحق الله جل وعلا أما فيما يتعلق بحق العباد فلقد قال النبي ﷺ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنِ» فجمع في تلك الكلمات اليسيرة بين حق الله وحق العباد.

- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» (٢).

- وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا كَرِهَ اللَّهُ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَلَا تَفْعَلُوهُ إِذَا خَلَوْتُمْ» (٣).

- وَعَنْ قَيْسٍ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ

(١) سنن الترمذي: (١٩٨٧). صحيح الجامع: (٩٧).

(٢) سنن الترمذي: (٢٥١٦). وانظر صحيح الجامع: (٧٩٥٧).

(٣) صحيح ابن حبان: (٤٠٣). وانظر الصحيحة: (١٠٥٥).

خَبْرٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ» (١)

وهكذا تكون المراقبة لله ﷻ بأن يشغل الإنسان المؤمن بعين الله ومراقبته ولا يشغل بعين الناس طلباً للحمد والثناء، فقد قال الرسول ﷺ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ اللَّهِ بَسَخَطِ النَّاسِ كَفَّاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ النَّاسِ بَسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ». (٢)

❁ صور من المراقبة:

رجل اسمه نوح بن مريم كان ذا نعمة ومال وثرء وجاه، وفوق ذلك صاحب دين وخلق، وكان له ابنة ذات منصب وجمال، وفوق ذلك صاحبة دين وخلق، وكان معه عبد اسمه مبارك لا يملك من الدنيا قليلاً ولا كثيراً، ولكنه يملك الدين والخلق - ومن ملكهما فقد ملك كل شيء - أرسله سيده إلى بساتين له، وقال له: اذهب إلى تلك البساتين، واحفظ ثمرها، وقم على خدمتها إلى أن آتيك، فمضى الرجل، وبقي في البساتين لمدة شهرين، وجاء سيده، ليستريح في بساتينه.

جلس تحت شجرة وقال: يا مبارك! ائتني بقطف من عنب، فجاءه بقطف، فإذا هو حامض، فقال: ائتني بقطف آخر إن هذا حامض، فأتاه بآخر فإذا هو حامض، فقال: ائتني بآخر إن هذا حامض، فجاءه بالثالث فإذا هو حامض، وكاد أن يستولي عليه الغضب، وقال: يا مبارك! أطلب منك قطف

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٤٦٢٥). وانظر صحيح الجامع: (٦٠١٨).

(٢) سنن الترمذي: (٢٤١٤). وانظر صحيح الجامع: (٦٠٩٧).

عنب قد نضج، وتأتيني بقطف لم ينضج، ألا تعرف حلوه من حامضه؟ قال: والله! ما أرسلتني لآكله، وإنما أرسلتني لأحفظه، وأقوم على خدمته، والذي لا إله إلا هو! ما ذقت منه عنبه واحدة، والذي لا إله إلا هو! ما راقبتك ولا راقبت أحداً من الكائنات، ولكني راقبت الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

فأعجب به، وأعجب بورعه، وقال: الآن أَسْتَشِيرُكَ - والمؤمنون نصحة، والمنافقون غششة، والمستشار مؤتمن - تقدم لابنتي فلان وفلان من أصحاب الثراء والمال والجاه، فمن ترى أن أزوج هذه البنت؟

فقال مبارك: لقد كان أهل الجاهلية يزوجون للأصل والحسب والنسب، واليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، وعلى عهد رسول الله ﷺ يزوجون للدين والخلق، وعلى عهدنا هذا للمال والجاه، والمرء مع من أحب، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

أي نصيحة وأي مشورة! نظر وقدر وفكر، وتملى ونظر فما وجد خيراً من مبارك، قال: أنت حر لوجه الله، فأعتقه أولاً، ثم قال: لقد قلبت النظر، ورأيت أنك خير من يتزوج بهذه البنت، قال: اعرض عليها، فذهب فعرض على البنت، وقال لها: إني قلبت ونظرت وحصل كذا وكذا، ورأيت أن تتزوجي بمبارك، قالت: أترضاه لي؟ قال: نعم. قالت: فإني أرضاه مراقبة للذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. فكان الزواج المبارك من مبارك، فما الثمرة وما النتيجة؟ حملت هذه المرأة وولدت طفلاً أسماه عبد الله، لعل الكل يعرف هذا الرجل، إنه عبد الله بن المبارك المحدث الزاهد

العابد الذي ما من إنسان قلب صفحة من كتب التاريخ إلا ووجده حياً بسيرته
وذكره الطيب، إن ذلك ثمرة مراقبة الله - ﷻ - في كل شيء. (١)

• خاف أن يكون فتنة؛

* وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ حَدَّثَنِي بَن رَزِين عَنْ نُعَيْمِ بْنِ حَمَّادٍ عَنْ
ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ بَكَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ وَهَبَ بْنَ مُنْبِهِ يَقُولُ أَتَيْتُ بَرَجُلَ مِنْ
أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ إِلَى مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ كَانَ يَفْتِنُ النَّاسَ عَلَى أَكْلِ لُحُومِ
الْخَنَازِيرِ فَلَمَّا أَتَيْتُ بِهِ أَعْظَمَ النَّاسِ مَكَانَهُ وَهَالَهُمْ أَمْرُهُ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ شَرْطِهِ
اأْتِنِي بِجَدِّي مِمَّا يَحِلُّ لَكَ أَكَلُهُ فَأُخْفِيهِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا دَعَا بِلَحْمِ الْخَنَزِيرِ أُتِيَتْ
بِهِ فَكُلُهُ فَذَبَحَ جَدِّيًّا فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَطْعَمَهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ فَجَعَلَ صَاحِبُ
الشُّرْطَةِ يَغْمِزُ إِلَيْهِ يُرِيدُ أَنَّهُ اللَّحْمَ الَّذِي دَفَعَ إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ فَأَمَرَ الْمَلِكُ
صَاحِبَ شَرْطِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَمَّا ذَهَبَ بِهِ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَهُ وَهُوَ اللَّحْمُ الَّذِي
دَفَعْتُ إِلَيْكَ أَفَظَنَنْتَ أَنِّي أَتَيْتُكَ بِغَيْرِهِ قَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ هُوَ وَلَكِنِّي خِفْتُ أَنْ
يُفْتِنَ النَّاسُ بِي فَإِذَا أُرِيدُ أَحَدٌ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْخَنَزِيرِ قَالَ أَكَلَهُ فُلَانٌ فَيَتَأَسَّى
بِي فَأَكُونُ فِتْنَةً لَهُمْ فَقُتِلَ. (٢)



(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (١ / ٩٠٢).

(٢) المحن (ص: ٣٩٥).

المبحث الخامس

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ

❁ أولًا: وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ: (١)

الْعَجْزُ يَنْشَأُ إِمَّا مِنَ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَقَدْ عُلِمَ بِبَدَايِهِ (٢) الْعُقُولِ وَالْفِطْرِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَاَنْتَقَى الْعَجْزُ، لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التَّضَادِّ، وَلِأَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. (٣)

فالله سبحانه قدير ومعنى «الْقَدِيرُ» أي: الَّذِي لَهُ مُطْلَقُ الْقُدْرَةِ وَكَمَالُهَا وَتَمَامُهَا الَّذِي مَا كَانَ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الَّذِي مَا خَلَقَ الْخَلْقَ وَلَا بَعَثَهُمْ فِي كَمَالِ قُدْرَتِهِ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ الَّذِي إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ. الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، الَّذِي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

(١) وأيضًا قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣].

(٢) «بدايه»: جمع بديهة، وأصلها بالهمزة «بدائه» ثم سهلت الهمزة فجعلت ياء.

(٣) شرح الطحاوية: (ص: ٦٤). بتصرف.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا أَيُّ: لَا يَكْرَهُهُ وَلَا يُثْقَلُهُ، الْفَعْلُ لِمَا يَشَاءُ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿[النِّسَاء: ١٣٣] وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ الْكَلَامِ عَلَى الْبَدْءِ وَالْإِعَادَةِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الْحَجَّ: ٦٢] الْآيَةُ. وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿[الْحَجَّ: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فَاطِر: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾ [لُقْمَانَ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿[يس: ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ خَلْقَهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الْأَحْقَاف: ٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ﴿[ق: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿[الطَّلَاق: ١١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴿[يس: ٨١-٨٢]
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ ﴿[تَبَارَكَ: ١] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ
 ﴿٤١﴾ ﴿[الْمَعَارِج: ٤٠، ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَهُ فِي
 الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ﴿[الْمُؤْمِنُونَ: ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ
 تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ
 إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿[فُصِّلَتْ: ٣٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾
 يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴿[العنكبوت: ٢٠-
 ٢٢] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا بَلْ كُلُّ آيَاتِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ
 وَالْمَعْنَوِيَّةِ وَجَمِيعُ مَخْلُوقَاتِهِ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ الشَّامِلَةِ
 الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ كَمَا أَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَعِبَارَةٌ
 الْعَبْدِ تَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَظِيمِ.

- وَكَفَى الْعَبْدَ دَلِيلًا أَنْ يَنْظُرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ كَيْفَ قَدَرَهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ
 وَخَلَقَهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَشَقَّ لَهُ السَّمْعَ فَسَمِعَ وَالْبَصَرَ فَأَبْصَرَ وَاللِّسَانَ فَنَطَقَ
 وَالْفُؤَادَ فَعَقَلَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَكَيْفَ إِذَا سَرَحَ قَلْبُهُ فِي عَجَائِبِ الْمَلَكُوتِ وَنَظَرَ
 بَعَيْنِ بَصِيرَتِهِ إِلَى مُبْدَعَاتِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَرَأَى الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ
 وَالْبَرَاهِينِ الظَّاهِرَةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْجَبَرُوتِ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي

مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ
فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿[الأعراف: ١٨٥]﴾ وَفِي حَدِيثِ الاسْتِخَارَةِ الْمُتَّفَقِ
عَلَيْهِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ
الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ». (١)، وفي هذا كفاية في بيان أن
الله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء.

❁ ثانياً: وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ:

الخزي يكون في الدنيا ويكون في الآخرة، كما وضح لنا ربنا في القرآن
الكريم.

والخزي في الدنيا يكون بصور مختلفة كالفضيحة، والإهلاك، وغير
ذلك.

* قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ
مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ
الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]

* وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى
فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤) [البقرة: ١١٤].

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول (١/ ١٣٨-١٤٠) بتصرف.

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣٣]

* وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ ﴾ [المائدة: ٤١]

* وقال تعالى: ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحج: ٩ - ١٠]

* وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاِنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الزمر: ٢٤ - ٢٦]

* وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ

الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ [فصلت: ١٦]

❁ الكافر إلى خزي والمؤمن إلى الله ﷻ:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾، قانون أزلي أبدي، الكافر إلى خزي، والمؤمن إلى الله ﷻ. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلَبُونَ﴾. [سورة آل عمران الآية: ١٢]

لن يفلت أحد من حساب الله، ولا من عقاب الله، فالجميع في قبضة الله، في أية لحظة: ﴿إِنَّا لَإِنَّا إِيَّاهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

- وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥ فَآذَقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾ [الزمر: ٢٥ - ٢٦] نذكر طرفاً ممن سبق من الأمم التي كذبت الرسل ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، وكان الجزاء وكانت النتيجة: ﴿فَآذَقَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥ فَآذَقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

❁ نماذج لمن أصابهم الخزي في الدنيا:

• قوم عاد:

قال الله في حقهم: ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦] كانت الريح تأتي إلى الواحد منهم فتقف عنده، ثم تلتف عليه وتحمله وتأخذه إلى عنان السماء فترمي به، فيهوي من السماء إلى الأرض ويتقطع قطعة قطعة.

﴿لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

• قوم ثمود:

سلط الله على ثمود قوم صالح الصيحة، فقطعهم الله وأهلكهم. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦].

• أبو جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثه أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما^(١)، فغمزني^(٢) أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها. قال: فلم أنشب^(٣) أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد

(١) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.

(٢) غمزني: قرصني.

(٣) أنشب: ألبث.

منهما: أنا قتلته، فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالوا: لا. فنظر في السيفين فقال: «كلاكما قتله»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، وكانا معاذ ابن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح (١).

وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (ابنا عفراء حتى برد (٢) فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه (٣)، وفي حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعا، فقلت: أي عدو الله قد أخزأك الله (٤)؟ قال: وبما أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعى سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوق السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» قلت: الله الذي لا إله إلا هو. قال: فانطلق فاستثبت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته. فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «هذا

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدراً، رقم (٣٩٨٨).

(٢) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.

(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٦٣).

(٤) تأمل فهم ابن مسعود حيث قال لأبي جهل: أي عدو الله قد أخزأك الله. ومن هنا نقول: كل عدو لله سيخزيه الله سبحانه وتعالى في الدنيا، وله في الآخرة عذاب وخزى.

فرعون هذه الأمة». (١)

❁ الخزي في الآخرة:

وبعد هذا الخزي الذي أصاب هؤلاء الطغاة ومن على شاكلتهم في الدنيا، يأتي يوم القيامة وفيه خزي لكل معاند كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]، والخزي العظيم في دخول جهنم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

❁ حال العاصي في الموقف أمام الله:

في هذا الموقف عندما يأتي كل متكبر إلى ملك الملوك الذي نساها ونسي شرعه في دار الدنيا كيف يكون حاله؟! إنهم يكونون منكسي الرؤوس أمام مولاهم، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] وهم سود الوجوه، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، ويعرضون على الله عز وجل

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٢٤٢.

فيحتقرهم الأشهاد: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (٢٤) ﴿[القيامة: ٢٤] أي: عابسة كالحة، تعلوها الظلمة، ويعلوها الغبار، كما قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٠) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (٤١) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ﴾ (٤٢) ﴿[عبس: ٤٠ - ٤٢].

ويودون أن يباعد الله ﷻ بينهم وبين أعمالهم السيئة، يقولون: ﴿يَوَلِّنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

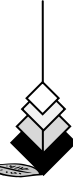
ويقول ابن آدم يوم القيامة: رب! ألم تجرني من الظلم؟ يقول: بلى، يقول: فإني لا أجزى عليّ شاهداً إلا مني، فيقول له الله ﷻ: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) ﴿[الإسراء: ١٤]، وكفى بالكرام الكاتبين عليك شهوداً، ثم يختم على فيه، وتؤمر أعضاؤه فتنطق عليه بما قدم، ويكون فحذه أول ما ينطق عليه، قال الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ (٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (٦٧) ﴿[يس: ٦٥ - ٦٧].

وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، فيحمل الرجل سيئاته على ظهره، فيطوق ما بخل به من أموال يوم القيامة إلى سبع أرضين، وهو مذموم مدحور

مرذول عند الله ﷻ، ويصبحهم الخزي والعار، يقول الله ﷻ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فماذا بعد هذا الذل؟! ثم بعد ذلك يتمنى الموت يقول: ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) ﴿[الحاقة: ٢٧]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ﴾ (٢٥) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابُهُ﴾ (٢٦) ﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٧) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) ﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٩) ﴿خُذُوهُ فَعَلُوهُ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ لَجَّجِمَ صَلْوُهُ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢) ﴿[الحاقة: ٢٥ - ٣٢].



المَبَحْثُ السَّادِسُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ



❖ الإنسان محتاجٌ إلى مولى:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾
[الأنفال: ٤٠]

الإنسان بحاجة إلى مولى، بحاجة إلى مرجع، بحاجة إلى مربٍّ، بحاجة إلى سند، بحاجة إلى من يدعمه، بحاجة إلى من يتوكل عليه، بحاجة إلى من يطمئنه، بحاجة إلى جهة قوية يحتمي بها من شرور أعدائه، هذا شيء طبيعي جداً في الإنسان. ولكن لماذا؟ والجواب: لأن الإنسان خلق ضعيفاً^(١)، هكذا خلقه الله ﷻ.

❖ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ:

من نعم الله الكبرى أن يكون الله ﷻ ولينا، قال تعالى: ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]. آية واحدة تملأ قلبك طمأنينة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(١) لقد تكلمت بفضل الله تعالى عن ضعف الإنسان في كتابي (بصائر قرآنية) فانظر ما أثبتته هناك.

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾

قال تعالى: ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١١)

[محمد: ١١]

للمؤمن مرجع يعرفه الحرام، والحلال، للمؤمن إله يدعو، وهذا من

فضل الله علينا. ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١١)

[محمد: ١١].

الفرق كبير جداً بين المؤمن وغير المؤمن قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا

كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨] ﴿ أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ

كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ

مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (٦١) [القصص: ٦١].

إذا فتح الله عليك باب الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء، فربما

أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك فعَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ

أَصَابَتْهُ سَرَاءُ شُكْرٍ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». (١)

لذلك يجب أن نفقه جيداً قوله تعالى: ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ

الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١١) [محمد: ١١].

❁ الله تعالى هو المتولي لأمر خلقه والقائم على تدبير ملكه :

الله هو المتولي لأمر خلقه، القائم على تدبير ملكه، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، كما قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]

❁ ولاية الله جلّ جلاله لخلقه ولايتان ولاية عامة وولاية خاصة :

• الولاية العامة :

الله يدبر شؤون كل عباده، وكل خلقه، يتكفل بأرزاقهم، يدبر أحوالهم، يربهم، يكرمهم أو يؤدبهم، يمكنهم من تحقيق اختيارهم، يعطيهم القوة على أن يحققوا ما اختاروا، يعطيهم أسباب ما يسألونه.

إنسان سأل الله الرزق، يلهمه سبحانه، ويعطيه أسباب طلبه، ويعطيه ما يبتغيه، فهذه هي الولاية العامة.

- الولاية العامة تقتضي العناية، والتدبير، وتصريف الأمور، وتدبير المقادير، فالله من فوق عرشه قريب من عباده، هو معهم بعلمه، يرى ما يفعلون، يسمع شكواهم، يعلم أحوالهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

أي نحن أقرب إليه من روحه، أقرب إليه من قلبه، هذه ولاية عامة، ولاية إمداد، ولاية تربية، ولاية معالجة، ولاية مكافأة، ولاية تأديب، ولاية تمكين، ولاية إعطاء أسباب ما سأل الإنسان، ولاية أن يعطي للمعلول علته.

• الولاية الخاصة:

أما الولاية الخاصة: فهي ولاية الله للمؤمنين وهي ولاية حفظ، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. وهذه الآية قد يغيب معناها عن معظم المؤمنين، فلتأمل الآية: قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، لم يقل علينا، يعني المؤمن الصادق، المستقيم، لا ينبغي أن يتشاءم، لأن الله يطمئنه، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾، ﴿لَنْ﴾ لتأبيد النفي، ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، من خير، من حفظ، من عطاء، من توفيق، من نصر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) [فصلت: ٣٠ - ٣٢]

❖ معاملة الله المؤمن معاملة خاصة:

معاملة الله المؤمن معاملة خاصة وهذا يؤكد آيات كثيرة قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (١١) [القصص: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١] في الدنيا. ﴿وَمِمَّا تَهْتَكُونَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١١) [الجاثية: ٢١].

إن وعد الله فوق كل ظرف، فإذا وعد الله المؤمن بحياة طيبة فلا بد من أن يصل إليها، في أي ظرف، وفي أي مكان.

❁ الولاية الخاصة للمؤمن ولاية نصر وتأيد وحفظ وتمكين:

١ - الولاية الخاصة للمؤمن ولاية نصر وتأيد: قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].
 ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمُ الْغَلِيلُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرؤم: ٤٧]. ﴿وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٢ - الولاية الخاصة للمؤمن ولاية تمكين: قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. ﴿قَطْعًا يَقِينًا: ﴿كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي﴾ [النور: ٥٥].

٣ - الولاية الخاصة للمؤمن ولاية حفظ: قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]

٤ - الولاية الخاصة للمؤمن ولاية توفيق: قال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا

بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]

❁ من طبق منهج الله ﷻ سعد في الدنيا والآخرة:

الله ﷻ يقول في آيات كثيرة منها: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].
من أجل أن يكون الله ولينا ينبغي أن نكون أولياءه بطاعتنا له وتوكلنا عليه:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)
﴿[يونس: ٦٢] فمن هم أولياء الله؟

والتعريف للأولياء بسيط، جامع، مانع قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣) ﴿[يونس: ٦٣]

• وهذه الآية غطت الماضي، والحاضر، والمستقبل:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢] بالمستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) ﴿[يونس: ٦٢] على ما فاتهم في الماضي، وهم في حاضرههم
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣) ﴿[يونس: ٦٣].

❁ ما يتمتع به المؤمن الذي تولاه الله:

١- الأمن:

المؤمن يتمتع بأمن لا يتمتع به أحد على الإطلاق، والدليل: ﴿فَأَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) ﴿[الأنعام: ٨١-٨٢].

لو أن الآية: أولئك الأمن لهم، أي لهم ولغيرهم، هذه البلاغة عبارة قصر وحصر. ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [٨٢] ﴿[الأنعام: ٨٢].

٢- الحكمة:

يتمتع المؤمن بالحكمة: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]

٣- الرضى:

يتمتع المؤمن بالرضى، فلذلك حينما يسوق الله الإنسان إلى بابه عن طريق مصيبة، أو شبح مصيبة، أو ضيق، أو عدو جائم على صدره، أو شبح فقر، أو شبح مشكلة، فهذه في الفهم الإيماني نعمة باطنة: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]

❁ تولي الله حفظ ونصر أنبيائه وأوليائه :

الله هو الذي يتولى الصالحين والملتقين والمؤمنين كما قال سبحانه وتعالى في آيات كثيرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وقال الله: ﴿فَاطْرَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [١٩] [الجاثية: ١٩].

- ومن تتبع التاريخ وقصص الأنبياء سيجد أن الله لم يضيع أهل الإيمان والصالح.

أيها القارئ الكريم:

تدبر قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾
[التوبة: ٥١].

واعلم:

١- أن هذه الآية تملأ قلب المؤمن أمناً وطمأنينة.. وتملأ قلب المؤمن ثقة بالله ﷻ وثقة بالمستقبل ولذلك كلما نقص يقين المرء بهذه الآية.. زاد مستوى الخوف والهلع في قلبه.

٢- أن المؤمن الضعيف يضجر عند المصيبة إذ يراها كتبت عليه لا له، أما قوي الإيمان فيقول: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، ولم يقل: علينا. لأن في الصبر أجراً له. لأنه لا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له.

٣- إذا كان الله وليك.... فلا تخف أحداً.

٤- كم يطمئن من تيقن بهذا ولا يضعف بفرح أو شماتة أهل النفاق به لعلمه بأن ما أصابه هو بأمر الله.



الخاتمة نسأل الله حسنها

أَتَيْتُكَ رَاجِيًّا يَا ذَا الْجَلَالِ ... فَفَرَّجْ مَا تَرَى مِنْ سُوءِ حَالِي
 عَصَيْتُكَ سَيِّدِي وَيْلِي بِجَهْلِي ... وَعَيْبُ الذَّنْبِ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي
 إِلَيَّ مِنْ يَشْتَكِي الْمَمْلُوكُ إِلَّا ... إِلَيَّ مَوْلَاهُ يَا مَوْلَى الْمَوَالِي
 لَعَمْرِي لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي ... وَلَمْ أَغْضِبْكَ فِي ظُلْمِ اللَّيَالِي
 فَهَذَا أَنَا عَبْدُكَ الْعَاصِي فَقِيرٌ ... إِلَيَّ رُحْمَاكَ فَاقْبَلْ لِي سُؤَالِي
 فَإِنْ عَاقَبْتَ يَا رَبِّي تُعَاقِبْ ... مُحَقَّقًا بِالْعَذَابِ وَبِالنَّكَالِ
 وَإِنْ تَعَفَّوْا فَعَفْوُكُمْ قَدْ أَرَانِي ... لِأَفْعَالِي وَأَوْزَارِي الثَّقَالِ

الفهرس

٧	الإهداء.....
٩	مقدمة.....
١٦	عملي في هذا الكتاب.....
	الفصل الأول: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... ٢١
	المبحث الأول أدلة وجود الخالق جلّ وعلا... ٢٢
٢٢	الدليل الأول: دليل الفطرة:.....
٢٤	المصائب تصفي جوهر الفطرة:.....
٢٧	المشركون الذين بُعث إليهم الرسول كانوا يقرّون بوجود الخالق:.....
٢٨	الدليل الثاني: المخلوق لا بدّ له من خالق:.....
	المبحث الثاني توحيد الله جلّ جلاله... ٣١
٣١	أشرف ما نطق به اللسان كلمة التوحيد:.....
٣٢	معنى لا إله إلا الله:.....
٣٤	أركان لا إله إلا الله:.....
٣٤	النوع اللفظي.....
٣٤	النوع المعنوي.....
٣٥	شروط لا إله إلا الله:.....
٣٥	معنى الشروط في اللغة:.....

- المراد بشروط: «لا إله إلا الله»: ٣٦
- منزلة هذه الشروط من شهادة «لا إله إلا الله»: ٣٦
- ذكر شروط «لا إله إلا الله»: ٣٦
- الآن إلى بيان هذه الشروط: ٣٧
- ١- العلم: ٣٧
- ٢- اليقين: ٣٨
- ٣- القبول المنافي للرد: ٣٩
- ٤- الانقياد: ٤٢
- ٥- الصدق: ٤٣
- ٦- الإخلاص: ٤٤
- ٧- المحبة لله ورسوله: ٤٥
- ٨- الكفر بما يعبد من دون الله: ٤٨

المبحث الثالث فضائل كلمة التوحيد ... ٥٠

- أولاً: فضائلها في القرآن: ٥١
- ثانياً: فضائلها من خلال ما ورد في حديث رسول الله ﷺ: ٥٦

المبحث الرابع أثار لا إله إلا الله في الدنيا ... ٦١

الفصل الثاني: رسائل يُحدثنا فيها ربنا عن ذاته العلية ٦٩

المبحث الأول اعلّموا أن الله شديد العقاب ٧٠

- مبدأ الثواب والعقاب الإلهي: ٧١
- ترتيب الجزاء الأخروي على كسب الإنسان الدنيوي: ٧٢
- العقاب سنة الله فيمن عصاه من الأمم: ٧٣

- الذنوب مهلكة لأصحابها: ٧٣
- عقوبات الله للمخالفين نوعان: ٧٣
- كل من نسي الله يعاقب بعقوبتين: ٧٤
- عقوبات الذنوب والمعاصي نوعان: ٧٥
- أنواع العقوبة: ٧٦
- العقوبات خاصة وعامة: ٧٩
- الله ﷻ على أهل المعاصي عقوبتان: ٨٠
- على المسلم أن يحذر من أمرين لهما عواقب سوء: ٨٠
- ما عاقب الله به الكفار: ٨١

المبحث الثاني فاعلموا أن الله عزيز حكيم... ٨٣

- اسم الله العزيز ٨٣
- معناه في حق الله تعالى: ٨٣
- اسم الله العزيز في الكتاب: ٨٤
- اسم الله العزيز في السنة: ٨٤
- من آثار الإيمان باسمه سبحانه (العزيز): ٨٥
- إذا أردت أن تنال العزة في الدنيا والآخرة، فعليك بما يلي: ٨٨
- بيان كيفية التعبد لله ودعائه باسم العزيز: ٩٠
- اسم الله الحكيم ٩١
- ورود اسم الحكيم في السنة النبوية: ٩١
- معناه في حق الله تعالى: ٩٢
- من آثار اسمه سبحانه (الحكيم): ٩٣

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الحكيم): ١٠١

المَبْحَثُ الثَّالِثُ اعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ... ١٠٩

القادر، القدير، المقتدر..... ١٠٩

المعنى اللغوي لهذه الأسماء: ١١٠

معنى هذه الأسماء في حق الله تعالى: ١١١

من آثار الإيمان بأسمائه الحسنی (القدير، القادر، المقتدر): ١١١

المَبْحَثُ الرَّابِعُ وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ... ١١٤

المعنى اللغوي لهذه الأسماء: ١١٥

معناه في حق الله تعالى: ١١٥

ذكر بعض متعلقات علم الله ﷻ في خلقه سبحانه وأمره: ١١٦

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (العليم): ١٢٣

المَبْحَثُ الْخَامِسُ وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ... ١٣٠

البصير..... ١٣٠

ورود اسم البصير في السنة الشريفة: ١٣٠

المعنى اللغوي: ١٣١

المعنى في حق الله تعالى: ١٣١

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (البصير): ١٣٢

المَبْحَثُ السَّادِسُ وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ... ١٣٦

اسم الله الْغَفُور..... ١٣٦

المعنى اللغوي (للغفور) و (الغفار): ١٣٨

المعنى في حق الله ﷻ: ١٣٨

من آثار الإيمان بأسمائه سبحانه (الغفور، الغفار، غافر الذنب): ١٣٩.....

اسم الله الحليم ١٤٢

المعنى اللغوي: ١٤٢

معناه في حق الله تعالى: ١٤٢

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الحليم): ١٤٤

المَبْحَثُ السَّابِعُ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ..... ١٥٠

اسم الله السميع ١٥٠

المعنى اللغوي: ١٥١

المعنى في حق الله تعالى: ١٥١

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (السميع): ١٥٤

المَبْحَثُ الثَّامِنُ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ... ١٦١

اسم الله الغني ١٦١

المعنى اللغوي: ١٦٢

المعنى في حق الله تعالى: ١٦٢

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الغني): ١٦٣

اسم الله الحميد ١٧١

المعنى اللغوي لـ (الحميد): ١٧١

معناه في حق الله سبحانه وتعالى: ١٧١

الفرق بين الحمد والشكر: ١٧٣

فضل ذكر الله - ﷻ - (بالحمد) له سبحانه: ١٧٤

المواطن التي يتأكد فيها الحمد: ١٧٦

من آثار الإيمان باسمه سبحانه (الحميد): ١٧٦

المبحث التاسع فاعلموا أن الله غفور رحيم... ١٨٠

اسم الله الرحيم ١٨٠

المعاني الكريمة لهذين الاسمين الجليلين: ١٨١

الفرق بين الاسمين: ١٨٢

الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: ١٨٥

ورحمة الله ﷻ لعباده نوعان: ١٨٦

الأولى - رحمة عامة: ١٨٦

الثانية - رحمة خاصة: ١٨٧

ذكر بعض آثار رحمة الله - ﷻ - في خلقه وأمره: ١٨٩

من آثار الإيمان باسمه سبحانه: (الرحمن الرحيم): ١٩٩

الفصل الثالث: رسالة يحدثنا فيها ربنا عن كتابه العزيز ٢٠٧

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ٢٠٨

س: هل شهد الله لرسله أنهم رسله كما شهد للقرآن الكريم؟ ٢٠٨

س: ولماذا يحتاج الأنبياء لهذه الشهادة؟ ٢٠٨

وهنا نأتي لشهادة الله للقرآن: ٢١٠

كلما تقدم العلم تطابق مع القرآن: ٢١٤

المبحث الأول الإعجاز العلمي... ٢١٧

إشارة القرآن الكريم إلى علم الذرة: ٢١٧

إعجاز القرآن في خلق الإنسان: ٢١٧

النطفة هي التي تحدد جنس المولود وليس البويضة: ٢١٧

- إشارة القرآن إلى كروية الأرض: ٢١٨
- إشارة القرآن إلى ضيق صدر من يصعد لطبقات الجو: ٢١٩
- إشارة القرآن إلى وسائل المواصلات الحديثة: ٢٢٠
- هذه الآية من إعجاز القرآن العلمي: ٢٢٠
- إشارة القرآن إلى حركة الجبال: ٢٢١
- إشارة القرآن إلى وجود برزخ بين البحرين: ٢٢١
- أين هذا البرزخ؟ ٢٢٢
- إشارة القرآن إلى ظاهرة تناثر الضوء: ٢٢٢
- التفسير العلمي لأنهم أصبحوا عمياناً: ٢٢٣

المبحث الثاني الإعجاز الإخباري... ٢٢٤

- إعجاز القرآن الإخباري يتناول الماضي والحاضر والمستقبل: ٢٢٤
- الإعجاز في الإخبار عن الماضي: ٢٢٤

المبحث الثالث الإعجاز البلاغي... ٢٢٨

- والآن أذكر بعض النماذج على الإعجاز البلاغي: ٢٢٨
- من الإعجاز البلاغي التقديم والتأخير لبعض الألفاظ: ٢٣٠
- التقديم والتأخير بين السمع والبصر: ٢٣٢
- التقديم والتأخير بين النفس والمال: ٢٣٢
- ومن الإعجاز البلاغي دقة اختيار الألفاظ: ٢٣٤
- ومن صور الإعجاز: الإيجاز وجمع المعاني المتعددة: ٢٤١

المبحث الرابع الإعجاز الحسابي... ٢٤٩

- من الإعجاز الحسابي ما يلي: ٢٤٩

- بعض التنبيهات والتوجيهات: ٢٥٠
- أولاً: القرآن الكريم فيه شيء رائع جداً: ٢٥٠
- ثانياً: هناك ثلاثة ثوابت في الحياة تدل على الله، وهي: ٢٥٠
- ثالثاً: مهمة كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله: ٢٥٠
- رابعاً: لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن: ٢٥١
- خامساً: الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد: ٢٥١
- ومما يجب التنبيه عليه في قضية الوعظ: ٢٥٢

الفصل الرابع: رسالتان يحدثنا فيهما ربنا عن الرسول ﷺ ٢٥٥

المبحث الأول فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ٢٥٦

- البلاغ المبين: ٢٥٦
- كيف يكون البلاغ: ٢٥٧
- طرق البيان للوحي: ٢٥٧
- ١ - البيان بالقول: ٢٥٧
- ٢ - البيان بالفعل: ٢٥٨

المبحث الثاني واعلموا أن فيكم رسول الله... ٢٦٤

- موضع الرسول في هذا المنهج الإلهي: ٢٦٦
- الاستغناء عن السنة بالقرآن مخالف القرآن: ٢٦٩

الفصل الخامس: رسالتان يحدثنا فيهما ربنا عن القلب ٢٧١

- أهمية القلب في الإسلام: ٢٧٢
- النداء العلوي: ٢٧٤
- ويتفرغ للمعالجة: ٢٧٤

- ١- القلب هو وعاء الإيمان أو الكفر: ٢٧٥
- ٢- القلب هو وعاء الإخلاص أو النفاق والرياء: ٢٧٥
- ٣- القلب هو وعاء ذكر الله أو الغفلة عنه: ٢٧٦
- ٤- القلب هو وعاء السعادة أو الشقاء: ٢٧٦
- ٥- القلب هو وعاء التقوى أو الجرأة على حرمات الله: ٢٧٦
- ٦- القلب هو وعاء الرحمة أو القسوة والغلظة: ٢٧٦
- ٧- القلب هو وعاء العلم أو الجهل: ٢٧٧
- ٨- القلب هو وعاء الشجاعة أو الجبن: ٢٧٧
- ٩- القلب هو وعاء الحب والبغض: ٢٧٧
- ١٠- القلب هو وعاء التواضع أو الكبر: ٢٧٨
- ١١- القلب هو وعاء الاطمئنان أو القلق والاضطراب: ٢٧٨
- ١٢- القلب هو وعاء الفلاح أو الخسران: ٢٧٨

المبحث الأول واعلموا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ... ٢٨٠

- قلب الإنسان بيد الله يقلبه كيف يشاء: ٢٨١
- ما معنى قوله: يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ؟ ٢٨١

المبحث الثاني اعلموا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... ٢٩٢

- حياة القلب بالوحي: ٢٩٤
- ولنا مع الوحي وقفات سريعة: ٢٩٥
- التأثر بالوحي: ٢٩٥
- أصناف الناس بالنسبة لانتفاعهم بالوحي بعد جيل الصحابة ٢٩٧
- أولاً: عدم الانتفاع بالوحي بالكلية: ٢٩٧

- ثانيًا: الانتفاع الجزئي بالوحي: ٢٩٨
- حياة القلب بالمحن والبلاء ٣٠٤
- الحكمة من الابتلاء: ٣٠٤
- صور الابتلاء: ٣٠٥
- الابتلاء من أسرار الدين: ٣٠٨
- يا ضعيف العزم: ٣٠٩
- فوائد الابتلاء ٣١١
- ١ - معرفة حقيقة الناس ومصداقيتهم: ٣١١
- ٢ - تمحيص الصف الإسلامي من المنافقين: ٣١١
- ٣ - تكفير الخطايا والذنوب: ٣١٢
- دروس في الابتلاء ٣١٤
- ١ - إظهار التوحيد في الابتلاء: ٣١٤
- زنيرة وإظهار التوحيد: ٣١٤
- ٢ - ومن دروس الابتلاء العظيمة: التوكل والاعتماد على الله: ٣١٥
- ولنا في رسولنا الأسوة: ٣١٥
- ٣ - الابتلاء علامة لمحبة الله للعبد: ٣١٦
- ٤ - حقارة الدنيا عند الابتلاء: ٣١٦
- ٥ - الابتلاء يبعث الهمة في النفوس: ٣١٧
- ٦ - ومن دروس الابتلاء: ٣١٧
- قصر الأمل، وتدبر القرآن، وتجنب مفسدات القلب ٣١٨

الفصل السادس: رسالة يُحذَرُنَا فِيهَا رَبُّنَا مِنَ الْهَوَى ٣٢١

- ٣٢٢..... فَأَعْلَمَ أَنَّهَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.....
- ٣٢٢..... الهوى لغة:
- ٣٢٤..... الهوى اصطلاحًا:
- ٣٢٤..... اتباع الهوى اصطلاحًا:
- ٣٢٥..... اتباع الهوى وأثره على الفرد والمجتمع:
- ٣٢٦..... الفرق بين الهوى والشهوة:
- ٣٢٦..... الفرق بين ما يسومه العقل وما يسومه الهوى:
- ٣٢٧..... الهوى يعمي ويصم:
- ٣٢٨..... اتباع الهوى ضلال وعلامة من علامات أهل البدع:
- ٣٢٩..... علاج الهوى:
- ٣٣٠..... أنواع الهوى:
- ٣٣١..... تحذير القرآن من اتباع الهوى:
- ٣٣٤..... ذم الهوى في سنة رسول الله ﷺ:
- ٣٣٨..... من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في ذم (اتباع الهوى):
- ٣٤١..... نماذج لمن اتبعوا الهوى:
- ٣٤٥..... أبو جهل اتبع هواه:
- ٣٤٦..... أَبِي بَنُ خَلَفٍ صَدَهُ عَنْ اللَّهِ هَوَاهُ:
- ٣٤٦..... عاقبة من اتبع هواه:

الفصل السابع: رسالة يُحذَرُنَا فِيهَا رَبُّنَا مِنَ الدُّنْيَا ٣٤٧

- ٣٤٨..... اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ.....

- التحذير من الافتتان بالدنيا والركون إليها: ٣٤٨.....
- واعلم علم اليقين الذي لا يخالطه شك أن حب الدنيا رأس كل خطيئة: ٣٤٩
- ذم الدنيا وبيان حقارتها وضرب المثل لها في القرآن: ٣٥١.....
- ذم الدنيا في حديث الرسول ﷺ: ٣٥٣.....
- متاع الدنيا يسحب من رصيد الآخرة: ٣٥٥.....
- زهّد الرسول ﷺ في الدنيا: ٣٥٩.....
- زوال الدنيا: ٣٦٢.....
- ومما ورد في ذم التنافس على الدنيا ما يلي: ٣٦٣.....
- أسباب تنافس الدنيا: ٣٦٤.....
- ١ - الغفلة عن أن حظوظ الدنيا تجري بالمقادير: ٣٦٤.....
- ٢ - الغفلة عن حقيقة الدنيا: ٣٦٦.....
- ٣ - العيش في وسط حريص يتنافس الدنيا: ٣٦٩.....
- ٤ - حب الدنيا: ٣٦٩.....
- ٥ - إقبال الدنيا: ٣٧٠.....
- ٦ - الاستعلاء والتكبر في الأرض بغير حق: ٣٧١.....
- ٧ - طول الأمل: ٣٧١.....
- ٨ - الغفلة عن الموت والدار الآخرة: ٣٧٢.....
- ٩ - الغفلة عن الآثار المترتبة على تنافس الدنيا: ٣٧٥.....
- آثار تنافس الدنيا: ٣٧٥.....
- ١ - القلق والاضطراب النفسي: ٣٧٥.....
- ٢ - إهدار حقوق الأخوة الإسلامية: ٣٧٦.....

- ٣ - الانصراف عن أعمال الآخرة: ٣٧٦
- ٤ - كراهية الموت والدار الآخرة: ٣٧٦
- ٥ - الفرقة والتمزق: ٣٧٧
- علاج تنافس الدنيا: ٣٧٧
- أضرار حب الدنيا: ٣٨٠
- وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا، ومفسدًا للدين من وجوه: ٣٨١
- المقابلة ما بين الدنيا والآخرة: ٣٨٥
- هذه مقابلة بين الدنيا والآخرة، يتضح منها: ٣٨٥
- ١ - مقابلة في الكمية (= المدة الزمنية). ٣٨٦
- ٢ - مقابلة في الكيفية (= الحال). ٣٨٨
- ٣ - مقابلة في الحقيقة (= الشرف والمنزلة). ٣٩١
- نتائج المقابلة: ٣٩٣
- الفصل الثامن: رسالةٌ يُحدِّثنا فيها ربُّنا عن الأموال والأولاد ... ٣٩٩**
- وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ٤٠٠
- تمهيد: ٤٠٠
- النظرة القرآنية للمال والبنين: ٤٠١
- المال والبنون زينة الحياة الدنيا: ٤٠١
- الزينة قسمان: زينة تامة، وزينة ناقصة: ٤٠٢
- المال والبنون فتنة وابتلاء: ٤٠٢
- المبحث الأول فتنة المال ... ٤٠٤**
- مظاهر فتنة المال: ٤٠٦

٤١١..... كيفية النجاة من فتنة المال:

المبحث الثاني فتنة الأولاد... ٤١٣

٤١٤..... والفتنة هنا لها معنيان:

٤١٦..... بعض الأبناء سبب لشقاء آبائهم:

٤١٨..... المال والبنون لا تغني عن أصحابها شيئاً في الآخرة:

٤٢١..... المال والبنون لا تخلد أصحابها في الدنيا:

٤٢٢..... الأموال والأولاد لا تقرب أصحابها إلى الله زلفى:

الفصل التاسع: رسائلٌ يُحدِّثنا فيها ربُّنا عن حقائق ثابتة... ٤٢٣

المبحث الأول وأعلموا أن الله مع المتقين... ٤٢٤

٤٢٥..... التعريف بالتقوى:

٤٢٥..... موضع التقوى القلب:

٤٢٦..... المقصود الأعظم من العبادات تحقيق التقوى في القلوب:

٤٢٧..... حاجتنا للتقوى في الآخرة:

٤٢٧..... لا تكون من المتقين حتى تكون عالمًا بما تتقي:

٤٢٨..... المحذورات التي يجب علينا أن نتقيها:

٤٢٩..... كيف نغرس التقوى في قلوبنا:

٤٢٩..... ومما يغرس التقوى في القلب ما يلي:

٤٢٩..... تأسيس الأعمال على التقوى:

٤٣٠..... ليس من التقوى الغلو في العبادة:

٤٣١..... فضل التقوى وعظم قدرها:

المبحث الثاني وأعلموا أنكم إليه تحشرون... ٤٣٣

- ٤٣٣..... التعريف بالبعث والنشور:
- ٤٣٣..... حشر الخلائق جميعاً إلى الموقف العظيم:
- ٤٣٦..... صفة حشر العباد:
- ٤٣٨..... كسوة العباد في يوم المعاد:
- ٤٤٠..... أرض المحشر:
- ٤٤٢..... الوقت الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات:

المبحث الثالث وأعلموا أنكم ملاقوه... ٤٤٤

- ٤٤٤..... حتمية لقاء الله تعالى:
- ٤٤٤..... محبة لقاء الله:
- ٤٤٥..... الفرق بين المحسن والمسيء:
- ٤٤٦..... المؤمن آمن بساعة اللقاء لذلك حياته كلها متكيفة مع ساعة اللقاء:
- ٤٤٦..... الخسارة التي لا تعوض خسران الآخرة وخسران لقاء الله ﷻ:
- ٤٤٧..... تذكر لقاء الله:
- ٤٤٨..... وقوف العبد بين يدي الله:
- ٤٥٠..... جزاء من نسي لقاء الله:
- ٤٥٠..... أولاً: ينساهم الله تعالى:
- ٤٥٠..... ثانياً: يفتح الله عليهم الدنيا:
- ٤٥١..... ثالثاً: يعيش حالة من اليأس:
- ٤٥٢..... إعداد العدة للقاء الله ﷻ:
- ٤٥٣..... وفي هذا اليوم ثلاث مصائب:

- المصيبة الأولى: ستلقى رباً غضباناً: ٤٥٣
- المصيبة الثانية: المرء يكون مكشوفاً عرياناً: ٤٥٥
- المصيبة الثالثة: كل الناس تتخلى عن المرء: ٤٥٦
- صدق التأهب للقاء الله: ٤٥٧
- أولاً: تجريد التوحيد: ٤٥٧
- ثانياً: قطع التعلق بالدنيا والتأهب للآخرة: ٤٥٩
- ثالثاً: الاستجابة لأوامر الله من أول وهلة: ٤٦١
- الشوق إلى لقاء الله: ٤٦٤
- علامة الشوق: ٤٦٤
- درجات الشوق: ٤٦٥
- درجات الشوق إلى الله: ٤٦٦
- حقيقة الشوق: ٤٦٦
- نماذج للمشتاقين: ٤٦٧
- ١- شوق نبي الله آدم عليه السلام: ٤٦٧
- ٢- شوق كريم الرحمن موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل: ٤٧٠
- ٣- شوق يوسف عليه السلام: ٤٧٥
- ٤- شوق سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم: ٤٧٥
- الفرق بين الشوق والمحبة: ٤٧٦
- اليقين بلقاء الله يورث الشجاعة والثبات: ٤٧٧
- القوى الإنسانية بالنسبة للمسلم نوعان: ٤٧٨

المَبْحَثُ الرَّابِعُ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ... ٤٨١

- ٤٨١..... بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:
- ٤٨٢..... حديث القرآن عن المراقبة:
- ٤٨٣..... نصوص نبوية ترغب في المراقبة:
- ٤٨٤..... النبي ﷺ يعلم الأمة مراقبة الله جل وعلا:
- ٤٨٦..... صور من المراقبة:
- ٤٨٨..... خاف أن يكون فتنة:

المَبْحَثُ الْخَامِسُ وَعَلِّمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ... ٤٨٩

- ٤٨٩..... أولاً: وَعَلِّمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ:
- ٤٩٢..... ثانياً: وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ:
- ٤٩٤..... الكافر إلى خزي والمؤمن إلى الله ﷻ:
- ٤٩٤..... نماذج لمن أصابهم الخزي في الدنيا:
- ٤٩٤..... قوم عاد:
- ٤٩٥..... قوم ثمود:
- ٤٩٥..... أبو جهل:
- ٤٩٧..... الخزي في الآخرة:
- ٤٩٧..... حال العاصي في الموقف أمام الله:

المَبْحَثُ السَّادِسُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ... ٥٠٠

- ٥٠٠..... الإنسان محتاج إلى مولى:
- ٥٠٠..... نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ:
- ٥٠١..... ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ:

- الله تعالى هو المتولي لأمر خلقه والقائم على تدبير ملكه: ٥٠٢.....
- ولاية الله جلّ جلاله لخلقه ولايتان ولاية عامة وولاية خاصة: ٥٠٢.....
- الولاية العامة: ٥٠٢.....
- الولاية الخاصة: ٥٠٣.....
- معاملة الله المؤمن معاملة خاصة: ٥٠٣.....
- الولاية الخاصة للمؤمن ولاية نصر وتأيد وحفظ وتمكين: ٥٠٤.....
- من طبق منهج الله ﷻ سعد في الدنيا والآخرة: ٥٠٥.....
- هذه الآية غطت الماضي، والحاضر، والمستقبل: ٥٠٥.....
- ما يتمتع به المؤمن الذي تولاه الله: ٥٠٥.....
- ١ - الأمن: ٥٠٥.....
- ٢ - الحكمة: ٥٠٦.....
- ٣ - الرضى: ٥٠٦.....
- تولّى الله حفظ ونصر أنبيائه وأوليائه: ٥٠٦.....
- الخاتمة نسأل الله حسنها: ٥٠٨.....
- الفهرس: ٥٠٩.....

